فلاديمير نابوكوف

مكتبة اليأس

ترجمة
د. فالح الحمراني

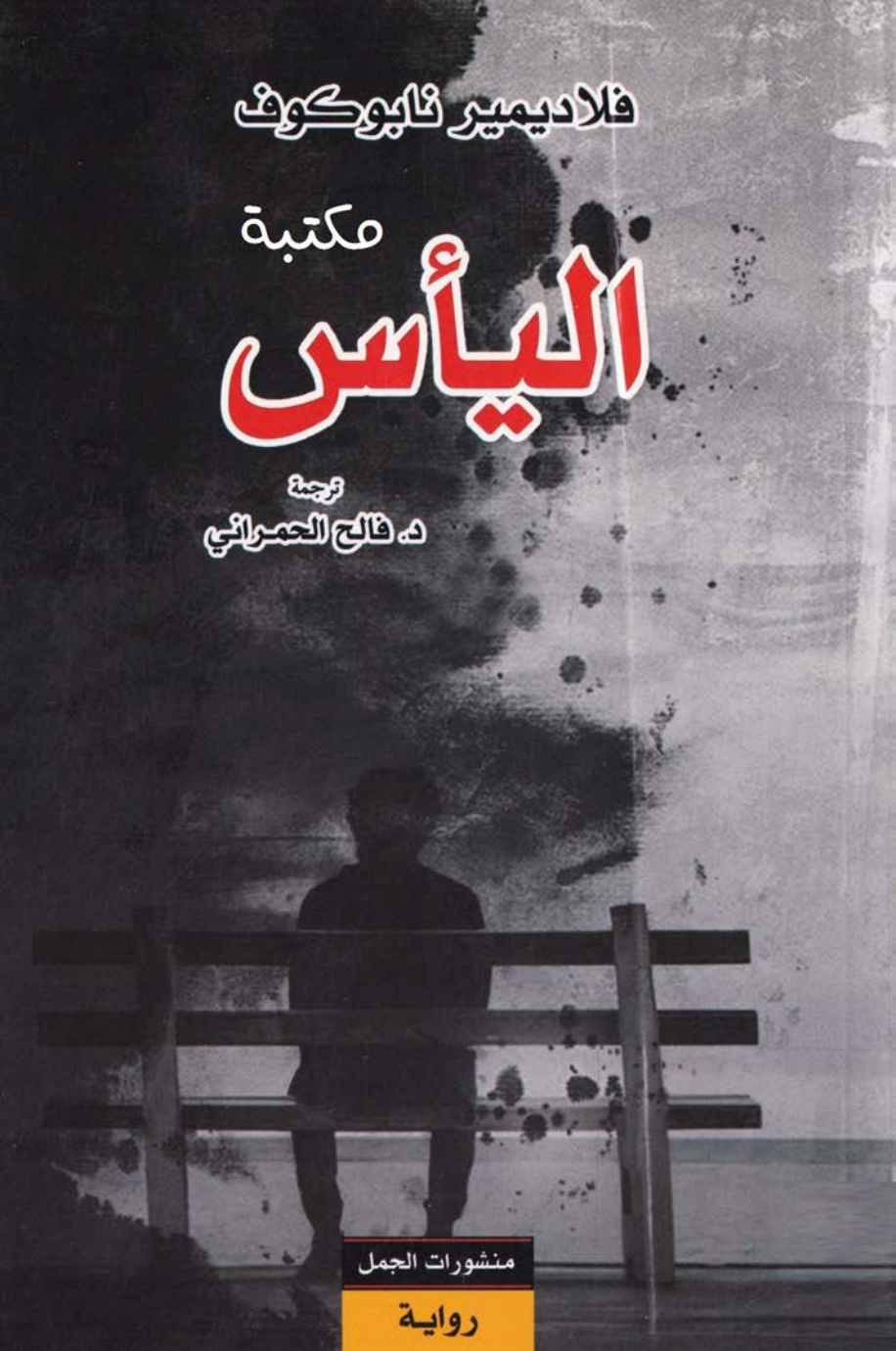

منشورات الجمل

رواية

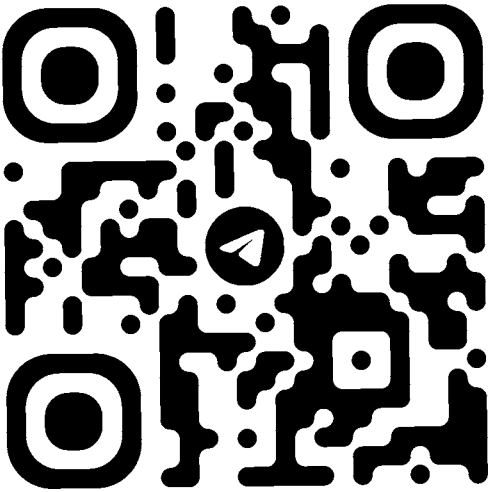

سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

فلاديمير نابوكوف: اليأس

مكتبة
t.me/soramnqraa

فلاديمير نابوكوف: الياس، ترجمة: د. **فالح الحمراني**، رواية
الطبعة الأولى ٢٠٢٣
كافة حقوق النشر والترجمة والاقتباس
محفوظة لمنشورات الجمل، بغداد ٢٠٢٣
منشورات الجمل ـ الشارقة ـ ص.ب: ٧٣١١١
الإمارات العربية المتحدة

© *Al-Kamel Verlag 2023*
Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany
www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

فلاديمير نابوكوف

مكتبة
t.me/soramnqraa

اليأس

رواية

ترجمة
د. فالح الحمراني

منشورات الجمل

نابوكوف وروايته اليأس

مكتبة
t.me/soramnqraa

د. فالح الحمراني

كتب فلاديمير نابوكوف رواية «اليأس» في برلين عام ١٩٣٢. ونُشرت على شكل حلقات في غضون عام ١٩٣٤ في مجلة «سوفريميني زابيسكي» وهي مجلة اهتمت بنشر أدب ألمهاجرين الروس، وصدرت في باريس من ١٩٢٠ إلى عام ١٩٤٠. وفي عام ١٩٣٦ قامت دار نشر بتروبوليس في برلين بنشرها ككتاب. وهي الرواية السادسة التي كتبها باللغة الروسية. ومنع نشرها في الإتحاد السوفياتي السابق، مثل جميع أعمال نابوكوف الأخرى، ولم تنشر في روسيا فقط في تسعينات القرن الماضي.

وفي أواخر عام ١٩٣٦، حين كان نابوكوف يقيم في برلين ترجم رواية اليأس لناشر في لندن. وفي عام ١٩٣٧، نشرت دار جون لونج للنشر في لندن رواية اليأس في طبعة مقبولة.

تعد رواية اليأس حدّاً فاصلاً وملموساً في طريق نابوكوف الإبداعي. وتتميز عن الأعمال التي كتبها في الحقبة الروسية إنها جاءت على نمط الرواية البوليسية، بيد إنها تختلف عن أسلوب الرواية البوليسية التقليدية في أن الراوي هو الذي حَضَرَ للجريمة، وهو الذي يتولى عرض خلفياتها. وأجمع كبار نقاد أدب المهجر الروسي بالإجماع على أن اليأس

هي ذروة إنجازات الكاتب حتى ذلك الحين. وحتى الخصوم الأبديين مثل الناقدين الروسيين المعروفين خوداسيفيتش وآدموفيتش اتفقا على تقييم عالٍ لهذا العمل بناءً على تحليلهما للرواية. وأعطى الناقدان توصيفاً عميقاً لإبداع نابوكوف.

يكتشف جيرمان، وهو رجل أعمال متوسط الحال من مدينة برلين، ويتميز بكونه حساس جداً، ويطمح سرّاً ليكون كاتباً ممجداً، بصورة مفاجئة وجود شبه تام بينه وبين المتشرد فيليكس الذي يلتقي به بالصدفة في ضواحي مدينة براغ، ولم تكشف لنا الرواية حتى النهاية هل كان هناك تشابه عجيب، وكما يؤكد لنا جيرمان أم انه فقط إن ذلك كان ثمرة خياله. وعلى خلفية وقوف مشروعة التجاري على حافة الإفلاس تطرأ في ذهنه فكرة استعمال هذا التشابه لإنقاذ وضعه المالي...

وباستخدام الحبكة للرواية البوليسية وموضوعة الشبيه، تطرق نابوكوف في روايته إلى الموضوعات الأساسية للأدب الكلاسيكي الروسي: الجريمة والعقاب، ومن المتهم؟ والعبقرية والشر، والمثالة والدونية، والقوة الخانقة للأنانية، مما يدفع الشخص أولاً إلى إنكار القيمة الوجودية لـ «الآخرين»، ثم الخسارة الحتمية لـ «أنا» الفرد والتفكك الكامل للشخصية. لذلك، ليس من قبيل الصدفة أن تحتل «اليأس» مكانة خاصة في التطور الإبداعي لنابوكوف. وجدت الموضوعات والشخصيات التي تناولها في الأعمال السابقة تطورها، في رواية «اليأس» واكتسبت صوتاً رمزياً، وساهمت في ترسيخ سمعته ككاتب.

ويقول نابوكوف أن رواية «اليأس» «مثل كل كتبي الأخرى، لا تطمح لتقديم نقد اجتماعي، ولا عضات جاهزة. هذا الكتاب ولا ترفع أداة الإنسان الأخلاقية ولا تُظهر للبشرية طريق الخلاص. كما تتضمن عدد أقل بكثير من «الأفكار» التي تروج لها تلك الروايات لتي المبتذلة».

اللافت إن نابوكوف بذل طوال مسيرته الإبداعية، الكثير من الجهد والطاقة ليخلق لنفسه صورة «الفنان الخالص»، على غرار النزعة الجمالية لدى أوسكار وايلد، وبشر بلا هدف الآدب واكتفاء الإبداع الأدب بذاته من التزام يحدده ولا رسالة يروج لها، ودعم تجريد الفن من بُعد المشاغل الإنسانية المادية، وبعيداً عن «أفراح البشر ومآسيهم». «الواقع ليس موضوع الفن الحقيقي ولا هدفه، الذي يخلق واقعه الخاص، والذي لا علاقة له بالواقع العادي الذي يمكن للعين الجماعية الوصول إليه». ويرى نابوكوف أن الصدمة الجمالية التي يحدثها الأدب لدى المتلقي هي الهدف السامي لأي عمل فني رفيع. «الواقع ليس موضوع ولا هدف الفن الحقيقي الذي يخلق واقعه الخاص الذي لا يشترك في أي شيء مع الواقع المباشر الذي يمكن الوصول إليه بالعين الجماعية» هذا التوضيح الجذاب، الذي جاء على لسان بطل رواية «النار الشاحبة»، يتناغم مع العديد من التصريحات البرنامجية للكاتب.

كذلك يحذر نابوكوف القارئ المولع بالتفسير النفسي ألا يرى في الرواية أكثر مما هي عليه، ويقول: «أود فقط أن أضيف، أن المتخصصين في مجال «المدارس» الأدبية سيتصرفون بحكمة إذا لم يرصدوا في الرواية عن طريق الخطأ «تأثيرات الانطباعيين الألمان»: فأنا لا أعرف اللغة الألمانية، ولم أقرأ أبداً الانطباعيين وليس لدي أي فكرة عنهم. من ناحية أخرى، وبما إني أعرف الفرنسية، أتساءل عما إذا كان هناك مَن سيرى في بطل الرواية جيرمان هو «أبو الوجودية»».

يلمح نابوكوف هنا إلى ملاحقة المراجعين والنقاد له، والنهوض بالبحث مع كل رواية ينشرها عن خلفياتها ورصد ظلال وحتى اقتباس وانتحال أفكار وتقنيات أعمال مشهورين أو محدودي الشهرة. فقد زُعم انتحاله أعمال كافكا في روايته «دعوة للشنق»، كما لاحظوا في أعماله الأخرى بصمات تولستوي وبوشكين وجيمس جويس وغوغل...الخ.

ويجمع دارسوا نابوكوف على وجود ظلال فيودور دوستويفسكي في روايته التي بين أيدينا، رغم أن نابوكوف كانسان لا يطيق دوستويفسكي، ويسخر من أعماله. ويلاحظ ألكسندر موليارياركشيك في كتابه «أعمال نابوكوف النثرية بالروسية» (١٩٩٧) «قُلبت المكونات الميتافيزيقية الأساسية للرواية، على طريقة دوستويفسكي، وتذكرنا به، أيضاً النبرة العصبية الحادة... أن نابوكوف الفنان كان في اليأس قريباً جداً من دوستويفسكي الذي سخر منه... أن الراوي يعيد ذاكرة القارئ إلى شخصيات روايات الأبلة والشيطان» ويضيف نقاد آخرون لهم شخصيات روايات المراهق و«مذكرات من الأعماق».

ويعترف نابوكوف أن روايته تناولت بأقل من الروايات الأخرى موضوعة عُقد المهاجرين الروس الموالين لحركة البيض، ولم يمنع هذا الفيلسوف والأديب الفرنسي جان بول سارتر من في نقده للرواية من القول «أن كاتبها وبطلها الرئيس ضحية للحروب والهجرة». لهذا السبب، لابد أنها ستثير استغراب وانفعال أقل بين القراء الذين نشأوا على الدعاية اليسارية في الثلاثينيات. **«والقراء الأكثر بساطة التكوين والمؤامرة الجميلة، ومع ذلك، فهي ليست بهذه البساطة كما يعتقد كاتب الرسالة البائسة في الفصل الحادي عشر. هناك الكثير من الحوار الرائع في الرواية والتي يتميز من بينها المشهد الأخير مع فيليكس في الغابة الشتوية».**

ويقول نابوكوف في مقدمة الترجمة الإنجليزية للرواية: «ليس بوسعي التنبؤ ومنع محاولات العثور بين سطور رواية «اليأس» شيئاً من الخطاب المسموم الذي غرزته بنبرة الراوي في روايات سابقة. يتشابه بطل رواية اليأس جيرمان وبطل رواية لوليتا هامبرت فقط من زاوية إنهما تنانين متشابهة رسمهما نفس الفنان في أوقات مختلفة من الحياة. كلاهما وغد ومريض عقلياً، ومع ذلك يوجد ممر أخضر في الجنة حيث يُسمح

لهامبرت بالتمشي عند غروب الشمس مرة واحدة في السنة، لكن لن يفرج عن جيرمان من الجحيم بأي كفالة».

ويضيف: «يقع «المسكن البعيد» الذي فر إليه المجنون جيرمان بطل «اليأس» في نهاية المطاف في روسيين في فرنسا، حيث كنت قد بدأت قبل ثلاث سنوات في تأليف روايتي في لعبة الشطرنج، «دفاع لوجين». لنترك جيرمان هناك في ذروة الانهيار الكامل المستحيل والنهائي. لا أتذكر ما حدث له بعد ذلك، لأن خمسة عشر كتاباً آخر وعدة سنوات تفصلني عن ذلك الوقت».

وليست من السهولة ترجمة نابوكوف وقراءته، فأعماله تتميز بتقنية أدبية معقدة، وتحليل عميق للحالة العاطفية للشخصيات في تركيبة مع حبكة لا يمكن التنبؤ بتطورها. كتب المختص بأدب وسيرة نابوكوف ميلنيكوف: «بالفعل في قصص النصف الثاني من عام ١٩٢٠، والتي تم تضمينها لاحقاً في مجموعة «عودة تشورب» (١٩٣٠)، وجد نابوكوف أسلوباً فريداً وطور تقنية سردية مبتكر، تقوم على مبدأ تغيير الدوافع المهيمنة، وتشكيل «أنماط موضوعية» أنيقة، ولعبة المؤلف المكررة مع توقعات القراء، وبفضل التنازلات المتناقضة، وإدخال الراوي «غير الموثوق به» أو إعادة إنتاج العديد من وجهات النظر الذاتية المتناقضة أحياناً حول ما يحدث، يتم إنشاء جو من عدم الاستقرار الدلالي والتناقض في أعمال نابوكوف، مما يسمح بتقديم نسخ متنافية من الواقع الموصوف بدرجة متساوية من الإقناع». ويطالب نابكوف القارئ بان يتفاعل مع عمله الروائي وينشط خياله وذاكرته ومعارفه لا استيعاب النص وحتى إعادة صياغته، فالحدث لا يتطور دائماً بشكل منطقي والراوي قد يتحدث بإيحاء وقد لا يكمل جملته، ويتيح للقارئ الحرية في الفهم. ويوصي المترجم بالأمانة وعدم التدخل في النص أو تسليط الضوء على

خفاياه، حتى لو تلبس بالغموض، فهذا جزء من هدفه، فالهدف الأخير منه، كما يرى نابكوف، هو تحريك وجدان القارئ فكرياً وجمالياً للخروج من قيود الواقع المباشر وتلمس أفق وفضاءات ارفع له.

الفصل I

لو لم أكن متيقنا تماماً من قدرتي على الكتابة، ومن موهبتي الرائعة على التعبير بأقصى درجات الرشاقة والحيوية... افترضتُ إني سأبدئ روايتي على ذلك النحو... أود أن ألفتْ انتباه القارئ إلى أنه لو لم أمتلك تلك الإمكانية، والموهبة، وما إلى ذلك، لما امتنعتُ وحسبَ عن وصف الأحداث قريبة العهد، بل وعلى العموم لم يكن هناك ما أصفه، لأنه، أيها القارئ العزيز، لولا موهبتي كمبدع، لما حدث أي شيء على الإطلاق. ربما ما أقوله غباء، ولكنه واضح. إنني مدين فقط لموهبتي وميلي الفطري المستدام للإبداع في إدراك افتراءات الحياة... وهنا أقارن نفسي بمنتهك ذلك القانون الذي يحظر إراقة القليل من دَم شاعر أو ممثل مسرحي. ولكن كما قال صديقي المسكين الأعسر، إن الفلسفة من اختلاق الأغنياء. فلتسقط.

يبدو لي وبكل بساطة أنني لا أعرفُ من أين أبدأ. يلوح مضحكاً ذلك العجوز الذي لحق بآخر أتوبيس، راكضا بخدين مهتزين، ضاربا الأرض بقدميه بقوة، لكنه يخشى القفز في الحافلة خلال سيرها، وتفتر شفتاه عن ابتسامة أليمة، يواصل الركض بقوة الاستمرار، يتخلف عن الحافلة. «يا تُرَى لا أستطيع القفز؟» الأوتوبيس يهدر، يسرع، سيذهب خلف الزاوية، أمر لا يمكن إصلاحه، أتوبيس قصتي الجبار. إنها صورة فنية مضخمة نوعاً ما. ما زلت أواصل الركض.

كان الراحل والدي ألماني من مدينة ريفال الإستونية، من زاوية التعليم كان مهندساً زراعياً، ووالدتي الراحلة كانت روسية أصيلة، منحدرة من عائلة أمراء عريقة. نعم، اعتادت في أيام الصيف الحارة ارتداء فستان من حرير بنفسجي قاتم وبيدها مِرْوَحَة، وتستلقي على كرسي هزاز، وتهوي على نفسها، وتأكل الشوكولاتة، وملأت الريح، التي فاحت برائحة العشب المحصود، الستائر المنسدلة فتجعلها شبيهة بأشرعة بنفسجية. جرى اعتقالي في روسيا في أثناء الحرب لأني مواطن ألماني، وكنت قد التحقت للتو بجامعة سانت بطرسبرغ، وتعين عليّ ترك كل شيء. قرأت، من نهاية السنة الرابعة عشرة من عمري، وإلى منتصف السنة التاسعة عشرة، ألفا وثمانية عشر كتاباً، أجريتُ إحصاءً لها. وفي طريقي إلى ألمانيا، عَلقتُ في موسكو لثلاثة أشهر، وتزوجت هناك. وعشتُ في برلين منذ أن كان لي عشرون عاما. وفي التاسع من مايو من عام ١٩٣٠، تعدى عمري الخمسة والثلاثين...

استطراد صغير: لقد كذبتُ فيما يتعلق بأمي. ففي الواقع كانت ابنة برجوازي صغير، وهي امرأة بسيطة فظة في ملابس فلاحية تقليدية قذرة. وبوسعي بالطبع أن أشطب على قصة المروحة اليدوية المُختلقة، لكنني أتركها عمداً كنموذج لإحدى سماتي الرئيسية: الكذب الهين، المُلْهِم. وهكذا أواصل القول: في ٩ مايو ١٩٣٠ كنتُ في براغ في مهمة عمل. كانت المهمة تتعلق بالشوكولاتة. الشوكولاتة شيء طيب. ثمة سيدات شابات يشغفن فقط بالنوع المر من الشكولاتة، يشغفن باللذيذ من الأطعمة بتعالٍ. لا أفهم لماذا أتحدث بهذه النبرة في الحديث.

يدي ترتجف الآن وانا اكتب روايتي، أريد أن أصرخ أو أحطم شيئاً ما، أو أسقط شيئاً مدوياً على الأرض... في مثل هذه الحالة المزاجية من المستحيل الكتابة بلغة سلسة. قلبي يحكني، إنه شعور فظيع. أحتاج إلى الهدوء، أحتاج إلى تمالك نفسي. لا يجوز لي المضي على هذا النحو.

ينبغي عليّ التحلي برباطة الجأش. الشوكولاتة كما هو معروف... (تخيلوا أن يتبع ذلك وصف إنتاجها). تظهر على الغلاف الخاص بمنتجنا صورة سيدة بالبنفسجي مع مِرْوَحَة. عرضنا على شركة أجنبية، كانت تنزلق إلى الإفلاس، التحول إلى إنتاجنا لخدمة التشيك، ولهذا السبب انتهى بي المطاف في براغ. في صباح التاسع من مايو/ أيار، غادرت الفندق في سيارة أجرة... من الممل عرض كل هذا، إنه ممل للغاية، أروم الوصول إلى الشيء الرئيس في أقرب وقت ممكن، لكن من المفترض أن أقدم لكم بعض الإيضاحات التمهيدية. قصارى القول، كان مكتب الشركة يقع في ضواحي المدينة، ولم أجد هناك الشخص الذي أريده، قالوا إنه سيكون في غضون ساعة، على الأرجح...

أجد الآن وقبل المضي بكتابة روايتي أن من الضروري أن أخبر القارئ بأنه كانت لدي فترة استراحة طويلة، سارعت الشمس خلالها بالغروب، فأشاطت في طريقها الغيوم الشاحبة السابحة فوق جبل مشابه لجبل فوسياما في اليابان، وجلستُ وقد انتابني الإرهاق المضني، والآن مرة أرهف السمع إلى ضجيج ودوي الريح، وتارة استغرق في نوم خفيف، وبغتة انتفض... ومرة أخرى نما لدي الشعور بالحكة الداخلية، وبدغدغة لا تطاق، وهذا الافتقار للإرادة وهذا الخواء في داخلي. وبذلتُ الكثير من الجهد لإضاءة المصباح، وإدخال ريشة جديدة في القلم، فقد انشطرت القديمة والتوت، وتبدو الآن مثل منقار طائر جارح. ورحت أرسم أنوفا على هامش الورق، كل هذا ليس من قبيل معاناة الإبداع.

أذن، لم أعثر على الشخص المطلوب، قالوا إنه سيعود بعد ساعة. وليس هناك ما أتشاغل به، فذهبتُ في نزهة. كان يوماً عاتي الرياح، والفضاء أزرق، انتشرت فيه بقع كبيرة تشبه التفاح، وهبت في الشوارع الضيقة رياح آتية من بعيد، وغطت الغيوم الشمس تارَة، وتارَة ظهرت

بنفسها مدورة مثل قطعة نقد مشعوذ. هاج الليلك في الحديقة حيث تدحرج المعوقون في كراسي متحركة. وتطلعتُ إلى اللافتات على واجهات المباني، ووجدت فيها كلمات لها جذراً سلافياً مفهوماً لي من اللغة الروسية، مع أنها اكتسبت معنى لا أفهمه. تسكعت بلا هدف، ملوحا بيدي في قفازاتي الصفراء الجديدة، وفجأة انتهت المنازل، وانفتح فضاء، لاح لي أنه غير محدود، ريفي، ومغرٍ للغاية. وبعد أن مررت بثكنة جنود، كان أمامها جندي يدرب حصانا أبيض، رحت أمشي على أرض رخوة ولزجة، وارتجفت الهندباء في الريح، وعند السياج حذاء متراخي كثير الثقوب مرمى تحت الشمس اللافحة. ظهر أمامي تل بديع، شديد الانحدار، ارتفع كجدار نحو السماء. قررت صعوده. ظهر أن روعته كانت خدعة. قادني درب مدرج صعوداً في طريق متعرجة بين أشجار الزان واللسان، التي نمت بصورة منخفضة. وتصورت ها أني سأصل الآن إلى مكان ذي جمال طبيعي غرائبي ما، ولكن لم يكن أي جمال هناك. شعرت بعدم الرضا لهذه الغطاء النباتي الكئيب والقبيح، كانت الشجيرات قد نمت على أرض جرداء، وكان كل شيء وسخ وملوث، وانتشرت قصاصات، ورق، وخرق، وقمامة. ولم يكن بوسع المرء أن ينعطف إلى أي مكان من مدرجات الدرب المحفورة عميقا، وتدلت من على جوانب الجدران الترابية، جذور وطحالب متعفنة شائكة مثل لوالب مكسورة لأثاث متداعية. وعندما بلغت القمة في نهاية المطاف، وجدت هناك منازل مائلة، وحبل غسيل نشرت عليه سراويل داخلية نفختها الريح، فغدت كأنها كائنات حية.

وفيما اتكأتُ على درابزين ذي نقوش، رأيت في الأسفل براغ، وقد غطتها سحب دخانية خفيفة، ولاحت سقوف المباني تتلألأ، ومداخن ترسل الدخان، وفناء ثكنة، وحصان أبيض صغير. قررت العودة بطريق آخر، وأخذتُ أنزل في الطريق العام الذي وجدته خلف المنازل.

والجمال الوحيد للمناظر الطبيعية كان على مسافة بعيدة، حيث رابية محاطة بسماء زرقاء، وصهريج لحفظ الغاز الطبيعي وردي مدور مثل كرة قدم عملاقة. تركتُ الطريق العام وذهبت صاعداً مرة أخرى في عشب قليل الكثافة. منظر كئيب، وأماكن جدباء، تعالى هدير شاحنة على الطريق الذي تركتهُ، ومضت عربة في الاتجاه المعاكس لها، ثم راكب دراجة، وسيارة مصنع مُزينة بالأصباغ بقوس قزح بشع.

تطلعت لبعض الوقت من المنحدر إلى الطريق العام. استدرت ومضيت قدما، وعثرت على ما يشبه دربا بين نتوءين جرداء، وأجلت بُنظري باحثا عن مكان للجلوس لأخذ قسط من الراحة. كان بالقرب من الأدغال الشائكة، شخص مستلق على ظهره، ورجليه مفتوحتان، غطى وجهه بسيدارة. مررت بجواره، ولكن استرعى انتباهي شيئاً ما غريب في هيئته، تمثل بجموده الملحوظ، وبركبتيه المنفرجتين الجامدتين، وبتصلب ذراعيه النصف ملتوية. كان في سروال من قماش قطني يرثى له، وسترة داكنة.

قلت لنفسي:

ـ هراء، إنه نائم، إنه ببساطة نائم. وما الداعي من أدس أنفي، وأتطلع إليه.

ومع ذلك، اقتربت منه، وأزحت بمقدمة حذائي الأنيق، باشمئزاز سيدارته عن وجهه.

اعزفي أيتها الأوركسترا قطعة احتفالية، أو من الأفضل أن يقرع الطبل، كما عند تقديم لعبة بهلوانية تنقطع لها الأنفاس. شككتُ في حقيقة ما يجري، وفي سلامة عقلي، بكلمة شرف، تفاقمت حالتي تقريباً، جلستُ بجواره، ارتجفت ساقاي. ولو رأي شخص آخر ما رأيته، ربما استولت عليه ضحكة هوميرية، لقد أذهلني غموض ما رأيته.

تفرستُ به، وأفلت كلَ ما في داخلي، كما لو سقط من الطابق العاشر. كنت أنظر إلى أعجوبة. أثار كمالها، ولا غائيتها، وانعدام سببها، رعبا غامضا في داخلي.

هنا، وبما أنني وصلت الآن إلى الجوهر وخَفَ تلهفي، أمرت قلمي! : أخلد إلى الراحة. وأعود بذاكرتي للوراء، لأتذكر على مهل ما جرى لي، وأحدد بأي مزاج كنت في ذلك الصباح، وما كنت أفكر به عندما لم أجد الطرف المقابل لعقد صفقة إنتاج الشكولاتة، ذهبتُ في نزهة، وصعدتُ إلى أعلى التل، ونظرتُ بعيدا، إلى صهريج وردي كروي، للغاز الطبيعي، وكان ذلك في يوم من أيام مايو/ أيار، هبت خلاله ريح عاتية، والسماء خفيفة الزرقة. لنعد ونثبت. كنت أتجول من دون هدف بعد، لم أجد أيما شخصا كان بعد. ما الذي كنت أفكر فيه في واقع الأمر؟ وهنا تكمن المسألة، أنى لم أفكر بشيء. كنت خاويا تماماً، مثل وعاء شفاف، ينتظر أن يُصب فيه حتماً سائل غير معروف، وفي ذهني أفكار ما ضبابية: حول عملي، وحول السيارة التي كنت قد اقتنيتها مؤخرا، وحول الخصائص المختلفة للأماكن التي تجولت فيها ـ ضبابية هذه الأفكار لم تكن تحلق في داخلي، وإذا سُمع شَيء ما في خوائي الرحب، فكان فقط الشعور غير الواضح لقوة ما تجذبني وتستميلني. قال لي ذات مرة مواطن ذكي من جمهورية لاتفيا، عرفته في عام ١٩١٩، في موسكو أن الاستغراق من دون سبب بالتفكير الذي سيطر عليّ أحياناً، هو علامة على أنني سأنتهي إلى دار المجانين. بالطبع، كان يبالغ ـ فخلال هذا العام تمتعت بصفاء وانسجام ذهني غير عاديين، ومعمار منطقي، الذي استسلم له عقل عالي التطور، والطبيعي تماماً. مارست الألعاب الحدسية والوجدانية، والإبداع، والإلهام ـ وكانت هذه الألعاب الذهنية السامية قد زينت حياتي، ويمكن أن أفترض إنها قد تبدو للجاهل، وليكن لجاهل ذكي، مقدمة لجنون غير مؤذ. لكن

لا تقلقون، فأنا بصحة ممتازة، جسدي طاهر من الخارج والداخل، وخطواتي خفيفة، وأنا لا أشرب الخمور، وأدخن باعتدال، ولا أمارس الفجور. تجولت في الأماكن التي وصفتها للتو، وكنت بصحة جيدة، بملابس فاخرة، أبدو بملامح رجل شاب، ولم يخدعني إلهام غامض، ووجدت ما كنت أبحث عنه بلا وعي. أكرر، لحظة لا تصدق. نَظَرَتْ إلى الأعجوبة، وأثارت الأعجوبة بكمالها وعدم وجود سبب لظهورها، وبلا غائيتها، في داخلي شكل من أشكال الرعب، ولكن ربما في ذلك الوقت، في تلك اللحظة، بدأ عقلي يختبر الكمال، وإدراك الأسباب ومعرفة الهدف.

سحب أنفه بقوة، وانسابت موجة الحياة في وجهه، وتكدرت الأعجوبة قليلاً، لكنها لم تختفِ. ومن ثم فتح عينيه، ولحظ إليّ، ونهض قليلاً، وراح يتثاءب ويتثاءب، وحك بكلتا يديه شعره الأشقر الدهني.

كان هذا رجلاً في مثل سني، طويلاً نحيفاً، قذراً، ربما لم يحلق ذقنه على مدى ثلاثة أيام، تَوَردَ خط الجلد بين الحافة السفلى للياقة (ناعمة، بعروتين في مقدمة لدبوس غير موجود) والحافة العلوية للقميص. وتدلى بصورة مائلة، الطرف الرفيع لربطة عنق محبوكة، ولم يكن هناك زر واحد على صدره. وذبلت في عروة سترته حزمة من البنفسج الشاحب، انكسرت إحداها، وتدلى رأسها للأسفل. وكانت في جواره حقيبة كتف على شكل كمثرى، ذات أحزمة معالجة بحبل. تفحصت المتشرد بدهشة لا يمكن تفسيرها، كما لبس زيه على هذا النحو عن عمد، من أجل حفلة تنكرية ريفية.

سألني بشكل غير متوقع باللغة التشيكية، وبصوت منخفض، وحتى رصين، وقام بإيماءة تدخين بإصبعين مفتوحتين:

ـ هل مِن سيجارة؟

مددت له علبة سجائري الجلدية الكبيرة، ولم أسدل عينيّ عنه ولو للحظة. تقدم قليلاً ساندا راحة يده على الأرض. في هذه الأثناء، قمت بفحص أذنه وصدغه المقعر. ابتسمَ وهو يظهر لثته، وخيب هذا أملي، لكن لحسن الحظ اختفت الابتسامة على الفور، (ولا أود الآن الافتراق عن الأعجوبة)، وسألني باللغة الألمانية، وهو يمسح ويضغط على السيجارة.

ـ هل أنت ألماني؟

فكان ردي عليه بالإيجاب، وقدحت الولاعة أمام أنفه. وبلهفة جعل راحته بهيئة قبة على لهيب النار الضئيل المضطرب. كانت أصابعه سوداء ضاربة للزرقة، بيضوية.

وقال وهو يطلق الدخان:

ـ أنا أيضاً ألماني، بمعنى أن والدي كان ألمانيا، أما والدتي فمن بيازين في التشيك.

وطوال هذه الفترة انتظرت منه أن ينفجر مندهشاً، وربما يطلق ضحكة هوميرية، ولكنه ظل رابط الجأش ورصين. ومن ذلك الحين أدركت، أي شخص بليد هذا.

وقال لنفسه بغبطة وبصق بمتعة:

ـ لقد نمتُ بما فيه الكفاية.

وبادرته:

ـ هل أنت عاطل عن العمل، أم ماذا؟

ما لبث أن تلعثم وبصق مرة أخرى. يدهشني دوما، كمْ من اللعاب لدى الناس البسطاء. وأجاب وهو يتطلع إلى أصابعه.

ـ بوسعي أن أسير ماشياً أكثر من عمر حذائي.

وفعلا كان حذاؤه بين بين.

وفي الوقت الذي انقلب على بطنه ببطيء، وهو يتطلع بعيداً إلى قُبَّرة ارتفعت محلقة من الحد الفاصل بين الأرض والسماء، وعلى صهريج الغاز الطبيعي، تحدث حالما:

ـ كان لدي عمل ممتاز في العام الماضي في ساكسونيا، غير بعيد عن الحدود. عامل بستان، فما أفضل من هذا؟ ومن ثم عملت في متجر للحلويات. وكل يوم بعد العمل عبرت ورفاقي الحدود حتى نحتسي قدحا من الجعة. تسعة أميال إلى هناك ونفس المسافة بالعودة، فالجعة كانت في التشيك أرخص. ولفترة عزفتُ على الكمان، وكانت لدي فأرة بيضاء.

والآن لنتطلع من جانب، ولكن بشكل عابر، دون التمعن في الوجه، وبخلافه ستستغربون بشدة يا سادتي. ولكن الأمر سيان، لقد عرفتُ بعد كل ما حدث أن بصر الناس، ويا للأسف سيئ ومتحيز. وعلى هذا النحو: في يوم من شهر مايو/ أيار وقف شخصان قرب أحدهما الآخر على عشب ذابل. سيد بزي فاخر يطبطب على ركبتيه بقفاز أصفر، ومتشرد شارد الفكر، استلقى على وجهه وهو يشتكي من الحياة. واهتزاز الشجيرات الشوكية الشديد، والسحب الراكضة، ، ومن جهة الطريق العام يترامى هدير بعيد لحافلة حمولة، مرتعش من الريح كما يرتعش جلد فرس. تحدث المشرد مع انقطاعات، وبصق بين الفينة والأخرى. وفيما كان منبطحا ثني بطات سيقانه للوراء، ومد قدميه مرة أخرى. وبادرته وقد نفد صبري:

ـ اسمع يا ترى أنك لم تلحظ أي شَيء؟

استدار، وجلس وسألني، وقد لاح على وجهه تعبير شك متجهم.

ـ ما القضية؟

فقلت له:

ـ أذن أنت أعمى.

تبادلنا النظرات لعشر لحظات. رفعتُ ببطء يدي اليمنى لمصافحته، ولكن يده اليسرى لم ترتفع، وكنت قد توقعت هذا تقريباً. ضيقتُ عيني اليسرى، بيد أن كلا عينيه ظلتا مفتوحتين. أظهرت له لساني. فتمتم مرة أخرى:

ـ ما القضية؟

كانت لدي مرآة صغيرة في جيبي. أعطيتها له. وما أن أخذها، حتى مسح وجهه بيده، تطلع إلى راحة يده، ولكن ليس ثمة دم أو قذارة. نظر في الزجاج اللامع. هز كتفيه وأعادها لي.

ـ نحن وإياك أيها الأحمق ـ صرخت بُه ـ نحن وإياك شبيهين لبعضنا الآخر، طيب، ألا ترى ذلك أيها الأبله، إذن ألق نظرة فاحصة عليّ...

قربتُ رأسه إلى رأسي، وصدغه إلى صدغي، وطفقت أعيننا تقفز في المرآة وتعوم. وقالَ بلين ورفق:

ـ الرجل الغني لا يشبه الرجل الفقير، لكنك أعرف... أتذكر توأمين في المعرض، كان ذلك في أغسطس/ آب في عام ١٩٢٦ أو في سبتمبر/ أيلول، كلا، على ما يبدو، في أغسطس/ آب. هناك فعلا كان من الصعب التميز بينهما. أعلنا عن جائزة بمئة مارك لمن يجد علامة فارقة بينهما. طيب، يقول لهما صديقي «فريت» ذو الشعر الأحمر، وفجأة ضرب بإذن أحد التؤامين فاحمرت. وقال انظروا: إن إذن هذا حمراء، وإذن الآخر غير ذلك، إذن أعطوني مئة مارك. وانفجرنا ضاحكين!

زحف نظره على قماش بدلتي رمادية اللون باهظة الثمن، وانحدر

إلى الكم، وتعثر بالساعة الذهبية على معصمي. واستفسر مني، وقد أمال رأسه إلى الجانب.

ـ أليس لديك عمل لي؟

أود الإشارة إلى أنه وليس أنا، أول مَن شعر بالصلة الماسونية لتشابهنا، ونظراً لأني قمت بتثبيت هذا التشابه، فإني وفقاً لحسابه اللاواعي كنت تابعاً له، كنت أنا محاكاة وهو النموذج، هو الأصل وأنا الشبيه له. فالجميع يفضل بالطبع، أن يقال لهم: إنه يشبهكم، وليس على العكس: أنتم تشبهونه. ومن خلال طلبه مني العمل، كان هذا المحتال الصغير يمهد لمطالب أخرى في المستقبل. ربما خطرت له فكرة في دماغه المضبب، بأن عليّ أن أكون ممتنا له، لأنه ومن خلال وجوده يمنحني بسخاء، الفرصة لأكون شبيها له. لاح لي أن تشابهنا من تدبير قوى خارقة. واعتبر هو أن تشابهنا جاء بإرادتي. أنا رأيت فيه شبيهي، أي كائن مساوٍ لي جسدياً ـ كانت هذه المساواة الكاملة بالتحديد هي التي أزعجتني بشدة. أما هو فقد رآني محاكي له مشكوكاً فيه. ولكن أؤكد أن هذه الأفكار كانت غير واضحة له. ولغبائه الشديد، بالطبع، لم يكن ليفهم تعليقاتي عليها.

أجبته ببرود:

ـ لا يمكنني مساعدتك في الوقت الحالي، لكن أعطني عنوانك.

أخرجت دفتراً وقلماً فضيّاً.

وابتسم بخبث، وقال:

ـ لا أستطيع أن أقول إن لدي فيلا. من الأفضل أن انأم في مخزن حشائش مجففة، على أن انأم في غابة، لكن النوم في غابة أفضل لي من النوم على مصطبة.

ووعدته:

ـ لكن مع ذلك، أين أجدك في حالة توفر فرصة عمل؟

فكر للحظة وأجاب:

ـ على الأرجح سأكون في الخريف في القرية التي عملت فيها في الخريف الماضي. يمكن الكتابة لي على مكتب البريد المحلي والعنوان. ليس بعيداً عن مدينة تارنيتسا. اسمحوا لي أن أكتبه.

تبين أن اسمه فيليكس، وهو ما يعني «السعيد». أيها القارئ لستَ بحاجة إلى معرفة كنيته. وكان خطه أخرق، وقلمه يصر عند الانتقال من سطر إلى آخر. كتب بيده اليسرى، إنه اعسر.

لقد حان الوقت لمغادرتي. أعطيته عشرة كرون. ابتسم لي ممتناً، ومد يده نحوي، بينما ظل في وضع نصف مستلق.

مشيت وأنا أحث الخطى سريعة نحو الطريق العام. استدرتُ، ورأيت قامته القاتمة النحيلة بين الشجيرات: كان مستلقيا على ظهره، وقد ضع رجلا على أخرى، ويديه تحت تاج رأسه. شعرتُ فجأة أن قواي خارت، ومنهك تماماً، ودار رأسي كما لو بعد حفلة تهتكيه طويلة مقرفة. لقد أقلقني بعذوبة، وغموض، انه سرق قلمي الفضي ببرودة، كما لو بالصدفة بسبب تشتيت التركيز. وأثناء السير على جانب الطريق، أغلقتُ عيني من حين لآخر، وكدت أهوى في حفرة. وبعد عدة أيام من ذلك، في خضم حديث يخص العمل في المكتب، شعرت فجأة أن شيئاً يدفعني لإخبار محدثي:

ـ حدث لي أمر لا يصدق. تخيل...

لكنني لم أقل شيئاً، وبذلك خلقت سابقة للتكتمي اللاحق.

عندما عدت حينها أخيراً إلى غرفتي في الفندق، انتظرني هناك فيليكس كظل في المرآة الزئبقية ذات الإطار البرونزي المجعد. اقترب مني جداً بوجه جدي وشاحب. كان الآن حليق بصورة نظيفة، وشعره

مسرح إلى الخلف، وببدلة رمادية شاحبة، وربطة عنق أرجوانية. أخرجتُ منديلاً، فأخرج هو منديلا أيضاً. هدنة، مفاوضات...

ملأ غبار الضواحي أنفي. تمخطت، وجلست على حافَة السرير، وواصلت التفرس في المرآة. أتذكر أن صغائر الحياة اليومية: دغدغة في الأنف، والجوع، ثم مذاق لحم الشنيتزل الأحمر في المطعم قد شغلتني بصورة غريبة، وكما لو بحثت وعثرت (مازال لدي شكوك طفيفة) على أدلة بأنني هو أنا (رجل أعمال متوسط الحجم وذو أخلاق) وحقاً موجود في فندق، وأتناول الغداء، وأفكر في العمل وليس لدي أي قواسم مشتركة مع المتشرد المستلقي الآن في مكان ما خارج المدينة، تحت الأدغال. وفجأة انقبض قلبي مرة أخرى من الشعور بحدوث أعجوبة. فهذا الرجل، وخاصةً عندما كان نائما، وعندما كانت ملامحه ثابتة، عرض عليّ وجهي، قناعي، وجثتي الخالية من العيوب والنقية. أقول، الجثة، فقط من أجل التعبير عن أفكاري بأقصى درجات الوضوح. أي أفكار؟، هذه هي: لقد تطابقت سماتنا تماماً، وبلغت أقصى درجات الوضوح في أثناء استلقاء المشرد بسكون تام ـ الموت ـ هو سكون الوجه، وكماله الفني: لقد أفسدت الحياة وحدها لي شبيهي: مثلما ما عتمت الرياح سعادة نارسيس، ومثلما يدخل طالب في غياب رسام، وفي حركة طائشة يشوه لوحة الفنان، بإضافته ألوان زائدة عليها. وفكرتُ أنه ولا سيما لي، أنا الذي أحب وجهي وأعرفه، كان أسهل عليّ من الآخرين أن أنتبه إلى الشبيه، فبعد كل شيء ليس الجميع منتبهين، وغالباً ما يحدث أن تقول عن شخصين يعرف أحدهما الآخر، ولا يشكّان في وجود تشابه بين البشر، «إلى أي حد إنهما متشابهان!»، ولو أُشيرَ إلى الشبه بينهما، يروحان ينكران ذلك باستياء. ولكن، لم أتوقع إمكانية وجود هذا التشابه الكامل القائم بيني وبين فيليكس. رأيت إخوة، وأقارب متشابهين، وشاهدت في السينما صنوين للغاية، أي ممثل في دورين،

وكما هو في حالتنا جرى التأكيد بسذاجة على الاختلاف في المكانة الاجتماعية: أحدهما من كل بد فقير، والآخر ثري، أحدهما متشرد في قبعة، بمشية خرقاء، والآخر برجوازي محترم لديه سيارة، كما لو في الحقيقة أن زوج من المتشردين المتشابهين، أو زوج من السادة المتشابهين يترك انطباعاً أقل على المخيلة. نعم، لقد رأيت كل هذا، لكن قرابة الدَّم بين التوائم تفسد التشابه الحق، وليس بوسع الممثل السينمائي في دورين أن يخدع أحداً، لأنه إذا ظهر في وجهين في وقت واحد، فإنك تشعر بخط اللصق بين الصورتين. في حالتي، لم تكن هناك قرابة دَم كما في التوأمة (ذهب الدَّم إلى الإثنين)، ولا حيلة ساحر. أتمنى ومهما كلف أن أقنعكم جميعاً وأرغمكم أيها الأوغاد على الاقتناع، وسأحقق ذلك، ولكنني أخشى أن ليس بوسع الكلمة وبحكم طبيعتها، أن ترسم بالكامل تشابه وجهين بشريين، فينبغي رسمهما جنبا إلى جنب ليس بالكلمات، بل بالألوان، وحينها سيتسنى للمشاهد بوضوح عن ماذا يدور الكلام. إن أعظم حلما للمؤلف هو تحويل القارئ إلى مشاهد: هل يتحقق هذا في يوم ما؟ إن الأجساد الشاحبة لشخوص الأعمال الأدبية، تتغذى بإشراف المؤلف، وتشرب دم القارئ الحي، وتكمن عبقرية الكاتب في منحها القدرة على الحياة بفضل هذا الطعام، والعيش طويلاً. لكني لست بحاجة للأدب الآن، بل رسم بسيط فظ، ها هو أنفي، كبير، نموذج أنف سكان الشمال، بعظم قوي، وأرنبة انف مستطيلة تقريباً. ها هو أنفه بالضبط بهذا الشكل. ولديه أيضاً خز حاد كما على جانبي فمي، وشفتي الرفيعتان كما كانتا ملحوسه. ها هي عظام الوجنتين... لكن هذا تعداد لملامح الوجه التي تسجل في جواز السفر، ولا تفصح عن شيء، عموماً تفاهات اصطلاحية. قال لي أحدهم ذات مرة إنني أشبه الرحالة النرويجي راؤول أموندسون. بيد إنه أيضاً يشبه راؤول أموندسون. لكن لا

يتذكر الجميع وجه أموندسون، وأنا لا أتذكره جيداً الآن. لا، لا يمكنني شرح أي شيء.

أنا أتصنع. اعرف إنني برهنت. كل شيء جيد. أيها القارئ ترانا فعلاً. وجهانا متشابهان كما لو كانا وجه واحد! ولكن لا تفكر، إنني لا أخجل من النواقص المحتملة والأخطاء البسيطة في كتاب الطبيعة. نظرت بإمعان إلى نفسي: أسناني صفراء كبيرة، وأسنانه متراصة أكثر، وأكثر بياضا ـ لكن هل يا تُرَى هذا مهم؟ ينتفخ عِرق على جبهتي مثل حرف «ميم في الأبجدية القديمة للكنيسة الروسية» غير محدد المعالم، لكن عندما أنام، تكون جبهتي ملساء مثل جبهة صنوي. والأذنان... منحنيات صَدَفَة الإذن تغيرت لديه قليلاً جداً بالمقارنة مع منحنيات صَدَفَة إذني: في مكان مضغوطة، وفي آخر مبسوطة. حز العيون هو نفسه، عيون ضيقة، مشدودة، مع رموش مضغوطة، لكن لونها أكثر شحوبا، هنا، على ما يبدو، توجد جميع العلامات الفارقة التي لاحظتها في اللقاء الأول.

راجعت في ذلك المساء، في تلك الليلة، هذه الأخطاء التافهة واحدة تلو الأخرى معتمداً على ذاكرة العقل وبذاكرة البصيرة، رأيت على الرغْم كل شيء نفسي في صورة بائسة لمتشرد، بوجه ساكن، مع ظل شائك للحية على الذقن والخدود، على نحو ما يحدث للمَيِّت في غضون ليلة واحدة.

لماذا تباطأتُ في مغادرة براغ؟ لقد أنهيت العمل، وكان لي مطلق الحرية في العودة إلى برلين. لماذا؟ لماذا ذهبتُ مرة أخرى إلى الضواحي في صباح اليوم التالي، وسلكت الطريق العام المألوف لي؟ من دون صعوبة، عثرت على المكان الذي كان يستلقي فيه أمسِ. وجدت هناك عقب سيجارة ذهبي، وقطعة من صحيفة تشيكية، وشيء آخر، ذلك الشيء البائس عديم الصفات، الذي يتركه المارة البسطاء تحت الأدغال.

وأكمَلَ عدد من الذباب الأخضر الصورة. إلى أين ذهب وأين قضى الليل؟ أسئلة مُعَلقة لا معنى لها. لم أكن مرتاح البال، شعرت بالغموض، والمشقة، كأن ما حدث كان عملاً شريراً. عدتُ إلى الفندق من أجل أخذ حقيبة سفري، وسارعت إلى المحطة. وعند مدخل منصة الركاب بمحطة السكك الحديد، كان هناك صفان من المساطب المريحة التي تدعم الظهر، جلس عليها الناس، بعضهم كان غافياً، فكرتُ: سأراه الآن، نائما بذراعين مفتوحتين، مع آخر وردة بنفسج باقية. ومن الممكن أن يرونا ونحن بجوار بعضنا، ويندفعون نحونا، ويحيطون بنا، ويسوقننا إلى مركز الشرطة. لماذا؟ ولأي غرض أكتب هذا؟ هل هو جريان قلم معتاد، أم في الواقع أن التشابه بين شخصين كتشابه قطرتي دَم، غدى جريمة؟

الفصل II

اعتدت جداً على النظر إلى نفسي من جانب، لأكون موديل تصوير حي لنفسي، وهذا هو السبب في خلو أسلوبي من الروح النبيلة لعدم التكلف. لا يمكنني العودة إلى داخلي والاستقرار في نفسي بالطريقة القديمة، فهناك ما يشبه الفوضى: لقد أُعيدَ ترتيب الأثاث، وعطبَ المصباح، وتمزق الماضي إلى أشلاء.

كنت سعيداً جداً في برلين، كانت لدي شِقَّة صغيرة، بيد أنها جميلة، تتكون من ثلاث غرف ونصف، وشرفة مشمسة، ومياه ساخنة، وتدفئة مركزية، وزوجتي ليدا والخادمة ألزا، وكان هناك مرآب مجاور، وسيارة جميلة زرقاء داكنة ذات مقعدين اشتريتها بالتقسيط، وفي الشرفة نما بنجاح ولو ببطء صبار مستدير رمادي الزغب. كنت دائماً أشتري سجائر في نفس المتجر، وهناك رحبوا بي بابتسامة سعيدة. وبذات الابتسامة استقبلتني امرأة حيث اشتري الزبدة والبيض. ويوم السبت نذهب إلى مقهى أو سينما. كنا ننتمي إلى صفوة البرجوازية، أو هكذا يبدو علينا. ولكن، عند عودتي إلى المنزل من المكتب، لم أخلع حذائي، ولم أستلقِ على الأريكة مع صحيفة المساء.

لم تنحصر محادثتي مع زوجتي في شؤون عادية روتينية. ولم تجذبني دائماً مجازفة بزنس الشوكولاتة الذي أزاوله. أعترف بانه كانت لي بعض الميول البوهيمية. سأقول بصراحة عن موقفي تجاه روسيا الجديدة: لم

أشاطر زوجتي آراءها. اكتسب مفهوم «البلاشفة» في شفاها المطلية ظلالا معتادة، وكراهية غير عادية، كلا، ربما كلمة «كراهية» مشحونة بانفعال بالغ، لقد كان كره البلاشفة لديها كلام نسوان عائلي بسيط، تماماً كما لا يحب أحدنا المطر (خاصة أيام الأحد)، أو البق (خاصة في شقة جديدة)، كانت تنظر إلى البلشفية كنزعة غريزية، فطرية، كريه وسمجة، مثل الزكام. وبرأيها أن وجهات نظرها واضحة وليست بحاجة إلى برهان، فهي بديهية بحد ذاتها، ولا تحتاج إلى تفسير. فالبلشفي لا يؤمن بالرب ـ فيا له من رجل سيئ ـ وعموماً، صعلوك ويميل للعنف. وعندما كنت أقول إن الشيوعية في النهاية شيء عظيم وضروري، وأن روسيا الجديدة الفتية تخلق قيَّماً سامية، وإن كانت غير مفهومة للأوروبي، وإن كانت غير مقبولة للمهاجر الروسي البائس والغاضب، ولم يعرف التاريخ هذا الحماس وهذا الزهد، والنزاهة، والإيمان بالتماثل والتشابه بين البشر الذي ستخلقه مستقبلاً، في يوم من الأيام. أجابت زوجتي بهدوء:

ـ إذا تتحدث بهذه الصورة لتشاكسني، فهذا ليس لطفاً منك.

لكنني حقاً كنت أفكر على هذا النحو، على سبيل المثال، أعتقد حقاً ينبغي القيام بتغير ما جذري في حياتنا المختلطة والمراوغة والمربكة، وأن الشيوعية ستخلق حقاً عالماً منظماً رائعاً من أشخاص أقوياء البنية متماثلين، نسخة طبقة الأصل من بعضهم البعض الآخر، برؤوس صغيرة وأكتاف عريضة. وتعادي ليدا وتنفر من الشيوعية، بحكم مسبق على طريقة الأطفال، مثل التغيرات على وجهها، التي تلجأ إليها في كل مرة تنظر بصورة خاطفة، حتى في المرآة، مثل شد منخرها ورفع حاجبها (أي إعطاء صورة طفولية مسبقة للمتحدث عن إنها امرأة محطمة للقلوب).

لا أحب كلمة مرآة. إنها شيء مريع. لم أستخدمها منذ أن عزفت عن

الحلاقة. ومنذ ذلك الحين، أثار ذكرها قلقاً مشمئزاً لدي، قاطعتْ مجرى قصتي. (تخيلوا ما يلي: سأروي لكم تاريخ المرايا). هناك مرايا مقعرة، مرايا بشعة: يطول فيها فجأة أدنى جزء عاري من الرقبة، ومن الأسفل تستطيل للقاء بها أخرى، ومن غير المعلوم من أين جاء العري اللامع، وتندمجان، المرآة المقعرة تعري الشخص، أو تبدأ برصه، وينجم عنه شخص ـ ثور، أو شخص ـ ضفدع، تحت ضغط أجواء مرايا لا حصر لها ـ أو تمتد مثل عجين، وتتمزق إلى نصفين، لا أعرف كيف أضحك ضحكة هوميرية ـ كل هذا ليس بهذه البساطة كما تظنون أيها الأوغاد. نعم، سأشتم، ليس بوسع أحد يمنعني من الشتم. كما أن من حقي ألا أمتلك مرآة في الغرفة. وعند الحاجة القصوى لوجودها (ما الذي أخاف منه حقاً سينعكس فيها رجل ملتح غريب ـ لقد نمت لحيتي بصورة ملحوظة، إن هذه اللحية بالذات جعلتني، وفي مثل هذا الوقت القصير، شخصا آخر، آخر تماماً، أنا لا أرى نفسي. منذ ذلك الحين ينمو شعر لحيتي بسرعة. كان في داخلي على ما يبدو، احتياطي هائل من الشعر. أختبئ في غابة طبيعية نمت في داخلي. ليس لدي ما أخافه. وسواس فارغ. وها أنا أكتب هذه الكلمة مرة أخرى. مرآة. سأرددها كما يحلو لي من المرات ولن يحدث شيئاً. مرآة، مرآة، مرآة. كما يحلو لي، لست خائفا. مرآة. أنظرُ في المرآة. قلت هذا عن زوجتي. من العسير عليّ التحدث إذا يقاطعوني طوال الوقت.

بالمناسبة هي أيضاً مصابة بالوسواس. تتمتم: يا ساتر، عند ما تسمع الكلمات والتمنيات الطيبة لها، لكيلا تصاب بعين، عجولة، مظهرها صارم، تزم شفتيها بإحكام، تبحث عن خشبة عارية غير مصقولة لتضربها برفق بأصابعها القصيرة ذات سطح الظفر المحاط بثنية وردية زاهية التي على غرار أظافر طفل ودوما غير نظيفة للحد المطلوب، وتجس الخشبة خلال ترديدها التمني بالسعادة ودفع الأذى. كانت تؤمن بالأحلام:

فسقوط ضرس في الحلم: موت صديق، وسقوط سن بدم: موت قريب. واللآلئ: دموع. وأن ترى نفسك في ثوب أبيض جالساً على رأس الطاولة: علامة سيئة للغاية. والتراب هو الثروة، والقط: خيانة، والبحر: اضطراب عاطفي. وكانت تحب أن تروي أحلامها بالتفصيل. وللأسف، إنني أكتب عنها بصيغة الماضي. لنمضي بالقصة قدما.

إنها تكره رئيس الوزراء البريطاني لويد جورج، لأنه، كما يقولون، أهلكَ روسيا، وعموماً «كنت سأخنق هؤلاء الإنجليز بيدي». وتحقد على الألمان لأنهم قاموا بتسيير القطار المصفح (تعليب البلشفية، وتصدير لينين إلى روسيا). وعن الفرنسيين تقول: «أخبرني أرد ليون أنهم تصرفوا بوقاحة أثناء إجلاء الروس الهاربين من النظام الشيوعي». في الوقت نفسه، تجد النمط الإنجليزي (من بعدي) الأجمل في العالم، وتحترم الألمان بسبب موسيقاهم وتماسكهم، و«تعشق باريس»، حيث قضت معي هناك عدة أيام. قناعاتها هذه ثابتة، مثل التمثال الغائر في الجدار. من ناحية أخرى، شهد موقفها تجاه الشعب الروسي بعض التطور. في عام ألف وتسعمئة وعشرين، كانت تقول: «الفلاح الروسي الحقيقي مؤيد للقيصريةِ». والآن تقول: «إن الفلاح الروسي الحقيقي قد انقرض».

كانت قليلة الثقافة، وتعوزها قوة الملاحظة. اكتشفنا بطريقة ما أنها دائماً فهمت بناء كلمة «ساحر» بالروسية على أنها صيغة تصغير لكلمة أخرى تدل على وجود سحرة كبار حقيقيين في أردية «توجا» سوداء، ذوي وجوه نجمية. الشجرة الوحيدة التي تميزها هي البتولا: شجرتنا الروسية كما تقول. تقرأ بنهم، وكل ما تطالعه هراء، لا تتذكر شيئاً منه، وتترك الوصف الطويل. تذهب إلى المكتبة الروسية، وتجلس هناك إلى الطاولة وتنتقي لمدة طويلة كتاباً، وتتلمس وتجس وتتصفح، وتنظر في الكتاب من الجانب، مثل دجاجة تبحث عن الحبوب ـ تضعه جانبا ـ وتأخذ آخر، تفتحه: كل هذا يجري بيد واحدة، دون أن تزيله من

الطاولة. وإذا تلاحظ أنها فتحته رَأساً على عقب، تقوم باستدارته تسعين درجة، وتمد يدها سريعاً إلى الكتاب الذي تستعد أمينة المكتبة إعطاؤه لسيدة أخرى، وتختطفه من يدها. كل هذا يستمر أكثر من ساعة، ولا أعرف ما الذي يحدد خيارها النهائي، ربما العنوان. ذات مرة جئت لها بكتاب اشتريته من محطة سكك الحديد، رواية بوليسية تافهة بغلاف مزين بصليب أحمر على نسيج عنكبوت أسود. شرعتْ في القراءة، كانت تطالع الكتاب بغاية المتعة، وليس بوسعها ضبط نفسها من عدم التعرف على نتيجة نهاية القصة. ولأن هذه الرغبة أفسدت عليها كل شيء، ضيَّقت عينيها، ومزقت الكتاب من الكعب إلى قسمين، وأخفت الأخر، لكنها نسيت أين وضعته، وفتشت الغرف لفترة طويلة بحثاً عن المجرم المختبئ الذي أخفته بنفسها، قائلة في صوت رقيق:

ـ لقد كان ممتعاً جداً، ممتعاً جداً، سأموت إذا لم أكتشف ذلك.

عرَفتْ الآن. أنها عثرت على تلك الصفحات التي تسلط الضوء على ما سيحدث لاحقاً في القصة، كانت مخفية بشكل جيد، تم العثور عليها ربما باستثناء صفحة منها. وبشكل عام اتضح الآن الكثير مما وقع. وحدث أكثر شيئاً كانت تخافه، كان الأسوأ من بين كل الإشارات. مرآة مكسورة. نعم، وهذا ما حدث، لكن ليس بالصوة المعتادة. مسكينة هي المرحومة!

تي ري بوم. ومرة أخرى ـ بوم! كلا، أنا لم أفقد عقلي، أنا فقط أصدر بعض الأصوات القصيرة البهيجة. على هذا النحو يبتهج المرء عندما يخدع شخصا ما. وقد خدعت للتو أحدهم بنجاح. مَن؟ انظر في المرآة، أيها القارئ، ، لأنك تحب المرايا كثيراً.

لكن ساورني الآن فجأة حزن عميق. تذكرت فجأة وبوضوح ذلك الصبار النامي على شرفة شقتنا، وغرفنا الزرقاء، وشقتنا في المبنى

الجديد المصمم بأسلوب حديث على هيئة مربع ومساحة صغيرة من دون زخرفة معمارية، وعلى خلفية شغفي بالنظام ونظافتي، تذكرت الاضطراب الذي بثته ليدا في كل مكان، والرائحة الحلوة التي أشعتها عطورها الخليطة والمبتذلة. لم تغضبني عيوبها، ولا غباوتها المقدسة، وعادتها بالانفجار ضحكاً مع تغطية الوجه بمنديل، التي أتقنتها في مدراس البنات، ولم نتشاجر معها أبداً، ولم أقدم لها ملاحظة لوم واحدة ـ بغض النظر عما تفوهت به من حماقات بين الناس، وكيفما لبست بصورة سيئة. فهي المسكينة لم تفهم في الألوان: بدا لها أنه إذا كان كل شيء بلون واحد، فقد تحقق الهدف، والانسجام الكامل، ولهذا بوسعها أن تعتمر قبعة من اللباد الأخضر الزمردي مع فستان بلون زيتوني أو مائي نيلي. وكانت تحب أن «يتكرر» كل شيء ـ إذا كان وشاح أسود، فحتما حاشية ما سوداء أو شال بصورة عقدة على الرقبة. وفي السنوات الأولى من زواجنا، كانت ترتدي ملابس داخلية مطرزة من صناعة سويسرية. ولم تجد حرجا في ارتداء أحذية خريفية سميكة مع فستان خفيف، كلا، لم تفهم تماماً أسرار الانسجام، بإهمالها وانعدام الترتيب والقذارة. وأظهرت الإهمال وعدم الإتقان ذاته في مشيتها: كانت تدوس، فجأة، على كعب قدمها اليسرى. وكان من المريع النظر إلى درج خزانتها، فقد غص بخرق تشابكت بعضها مع البعض على هيئة كرة، كانت هناك شرائط قطع من القماش، وجواز سفرها، وقطعة من الفراء آكلها العث، وبعض المفارقات التاريخية الأخرى، على سبيل المثال جوارب تدفئة نسوية، في كلمة واحدة، الرب أعلم ما كان هناك. في كثير من الأحيان، كانت حتى في عالم أشيائي المرتبة بنظام ودقة، يتردد هناك على سبيل المثال منديل دانتيل متسخ أو جورب ممزق لها: كانت جواربها تتمزق على الفور، كما لو كانت تحترق على سمانتها النشطة. لم تعرف شيئاً عن شئون التدبير المنزلي، وكانت تستقبل الضيوف بشكل فظيع، لسبب

ما، تقدم للضيوف في مزهرية قطع شوكولاتة الحليب المكسرة مع الشاي، كما هو الحال في عائلة ريفية فقيرة. سألت نفسي أحياناً لماذا أحبها، ربما بسبب الشعاع البني الدافئ لعينيها الرقيقة، أو للتموج الجانبي الطبيعي في تسريحة شعرها البني، أو للأكتاف المستديرة والمتحركة، أو بشكل أكثر دقة، ربما من أجل حبها لي.

كنت الرجل المثالي لها: ذكي وشجاع. وبرأيها لم يكن أحد يرتدي ملابس أكثر إنافة مني، أتذكر كيف شبكت يديها بهدوء عندما رأتني ببدلة وكسيدو الجديدة ذات بنطلون واسع، وهوت في الكرسي بإعياء خفيف، وقالت بهدوء:

ـ آه، جيرمان...

كان إعجابا يشبه صورة من صور الحزن السماوي.

اغتنمتُ سذاجتها، فمارست في السنوات العشر من حياتنا المشتركة، الكذب عن نفسي، حول ماضيي، حول مغامراتي التي لا عد لها، لدرجة حتى ليس بوسعي تذكر كل شيء وغير مستعداً لإعادة روايته. كذبت عليها بشعور لا واعي، ربما لتحسين صورتي أنا الشخص الذي تحبه، وللتجاوب معها، والقيام بعمل معروف وطيب لإسعادها، لكنها كانت تنسى كل شيء. لقد استضافت مظلتها منازل كل أصدقائنا، والحكاية التي قرأتها في الجريدة الصباحية روتها لي في المساء تقريباً على هذا النحو: «أوه، أين قرأت ـ وماذا كان... ليس بوسعي مسك خيوطها ـ ذكرني بها، من أجل الرب». كان إعطاؤها رسالة لوضعها في صندوق البريد تعادل أن يرميها المرء في نهر، والتعويل على حركة التيار وان يكون المتلقي بالصدفة على الشاطئ وهو يقوم بالصيد الترويحي. لقد خلطت بين التواريخ والأسماء والوجوه. وبعْد أن أَختَلق شيئاً مَا لن أعود إليه أبداً، فسرعان ما تنساه، تغرق القصة في قاع وعيها، ولكن

تبقى على السطح، موجة متجددة من الدهشة الشفافة. كاد حبها لي يتجاوز الخط الذي حدد كل مشاعرها الأخرى. وتحولت أفكارها المتحضرة في بعض الليالي الصيفية المقمرة، إلى أفكار رعاة رُحَل خجولين. لم يستمر هذا طويلا، ولم تذهب بها بعيدا. عالمها ينغلق مرة أخرى، عالمها الأكثر بساطة، كان الجزء الأصعب فيه هو البحث عن رقم هاتف سجلته في إحدى صفحات كتاب المكتبة، وأعارته بالذات للأشخاص الذين كان يجب عليها الاتصال بهم.

لقد أحبتني من دون تحفظ وبكل وجدانها، بصورة من الإخلاص الطبيعي. لا أعرف لماذا انغمرتُ مرة أخرى في الماضي، ولكن مع ذلك، فمن الملائم أكثر أن أكتب بهذه الطريقة. نعم، لقد أحبتني، بإخلاص حقاً. أحبت أن تتفحص وجهي بكل الطرق: بإبهامها وسبابتها، مثل أداة قياس المسافات، قاست ملامحي، ما فوق الشفة العليا الشائكة قليلاً ذات الشق طويل في المنتصف، وجبهتي الواسعة، والانتفاخ فوق الحاجبين، مرت بظفرها على الأخاديد المضغوطة غير الحساسة بجانبي فمي. وجهي كبير، معقد، كما لو مصنوع حسب الطلب، ذو لمعان على عظم الخد، والوجنتين الغائرتين قليلاً، كساهما في اليوم الثاني بالذات شعر أشقر، يلوح في الضوء مثل شعر شبيهي. أما تشابه العينين (وإن كان تشابها غير كامل) فهذا أمر فاخر، ولا فارق أن عينيه كانتا مغطاة عندما كان مستلقيا أمامي. ورغم أنني لم أر بأم عيني جفوني وهي مغمضة، وقمت بجسها وحسب، أعرف أنها لا تختلف عن أجفانه. لا، لست قلقاً على الإطلاق، فأنا متمالك لنفسي تماماً. ربما أن إطلالة وجهي بين الحين والآخر من بين السطور، بالضبط كما لو من خلف سياج من أغصان مجدوله، قد يزعج القارئ الحساس، بيد أن هذا فقط لخير القارئ، دعه يعتد عليّ، فإني سأبتهج بهدوء، من أنه لا يعرف هل هذا وجهي أم وجه فيليكس ـ أنظرُ وأختبئ ـ فهذا لم أكن أنا. بهذه الطريقة

وحسب، بالوسع تعليم القارئ، والبرهنة له بالتجربة، بأن هذا التشابه غير مختلق، وانه يمكن، ويمكن أن يوجد، وأنه موجود نعم نعم نعم، ومهما بدا هذا مصطنعاً وبليداً.

عندما عدت من براغ إلى برلين، كانت ليدا تخفق البيض مع الحليب والعسل في المطبخ... وقالت بقلق: «حلقي يؤلمني». وضعت آنية على الموقد، ومسحت شفتاها الصفراء بظهر يدها وقبلت يدي. كانت بفستان وردي وجوارب وردية وخف ممزق... أغرقت شمس المساء المطبخ. وطفقت ليديا مرة أخرى في تحريك الملعقة في الكتلة الصفراء السميكة، طقطق السكر الذي ما يزال رخوا، ولم تتحرك الملعقة بسلاسة بعد في الخليط، حتى ظهور صوت رقيق تأكيداً على أن الخليط جاهز. كان كتاب ممزّق على الموقد مفتوحا، وكُتبت ملاحظة على هامشه بخط مجهول، بقلم رصاص غير حاد: «يا للأسف، هذا صحيح» ـ وثلاث علامات تعجب معوجة على حافة الكتاب. قرأتُ عبارة نالت بشدة إعجاب من قرأ الكتاب قبل زوجتي: قال السير ريجنالد: «إن حب القريب، غير متداول في بورصة العلاقات الحديثة».

ـ طيب، هل كانت سفرتك موفقة؟

سألتني زوجتي، وهي تدير مقبض مطحنة سحن القهوة بقوة، وتضغط عليها بين ركبتيها. تصدعت القهوة ففاحت رائحتها قوية، وعملت المطحنة فترة أخرى بجهد وهدير، ولكن فجأة غدت تعمل بسلاسة، حيث لم تعد هناك مقاومة، نشأ فراغ...

اختلطت عليّ الأمور. كما في حلم. إنها كانت تعد «غوغل ـ موغل «أي خلط البيض مع السكر، وليس القهوة.

ـ غير موفقة تماماً، وكيف حالك؟

لماذا لم أخبرها عن مغامرتي المذهلة؟ أنا الذي رويت لها الكثير من

الحكايات المختلقة البديعة، كأنني لم أجرؤ على إخبارها بالحقيقة الرائعة من شفاهي الملوثة للغاية بالأكاذيب. أو ربما أوقفني شيء آخر: الكاتب لا يقرأ مسودة غير مكتملة بصوت عالٍ، والشخص الوحشي لا ينطق بكلمات تدل على أشياء غامضة، التي يشك في نواياها، ليدا نفسها لم تحب أن تسمي قبل الأوان الأحداث التي لم ترَ النور بعد.

بقيتُ لعدة أيام تحت وطأة وثقل ذكرى ذلك اللقاء. وبشكل غريب أقلقتني فكرة أن شبيهي يسير الآن في طرق مجهولة، ويأكل بشكل سيء، ويتعرض للبرد، ويبتل، وربما يعاني الآن من نزلة برد. تمنيتُ بشدة أن يجد له فرصة عمل: ويطيب لي لو اعرف أنه في مكان أمين، ودافئ، أو على الأقل يقبع داخل جدران سجن آمن. مع ذلك لم أعتزم على الإطلاق اتخاذ أي إجراءات لتحسين ظروفه المعيشية، ولم أرغب في أن اكفل معيشته. والعثور له على عمل في برلين، التي كانت مليئة بالأفاقين، فضلاً عن أن ذلك كان مستحيلا. وبشكل عام، ولسبب ما بدا لي من الأفضل أن يكون بعيداً عني، فالجوار بالقرب منه سيبطل سحر التشابه بيننا. وكنت على استعداد لأرسل للحامل الأمين لوجهي في العالم، من وقت لآخر قليلاً من المال، حتى لا يموت جوعا، ولا يغرق أخيراً في تجواله البعيد، ويبقى على قيد الحياة... إن التفكير بالقيام بعمل خير له، عديم الجدوى، ما دام لم يكن لديه عنوان دائم، فدعونا ننتظر، ننتظر ذلك اليوم الخريفي عندما سيذهب إلى مكتب البريد في قرية سكسونية نائية.

مر شهر مايو/ أيار، وطال أمد ذكرى فيليكس. أشير لنفسي إلى الإيقاع المتسق لهذه العبارة: السردية المبتذلة لأول كلمتين، ومن ثم نفس طويل لإرضاء بليد للذات. ولكن بالنسبة لعشاق الإثارة، سأشير إلى أن الجرح وليس الذكرى، غدا طويل الأمد. بيد أنه وبالمناسبة، لا يمت بصلة للقصة. أشير أيضاً إلى أن الكتابة أصبحت عليّ الآن أسهل، لقد

تحركت قصتي: لقد ركبتُ الأتوبيس الذي جئت على ذكره في بداية روايتي، واركب فيه ليس واقفاً، بل جالساً عند النافذة، مع كل وسائل الراحة. وعلى هذا النحو كنت أذهب في الصباح بالأتوبيس إلى المكتب، حتى حصلت على سيارة.

تعين على سيارتي أن تتنقل كثيراً في ذلك الصيف، نعم، لقد ولعت بهذه اللعبة الزرقاء اللامعة. غالباً ما كنا نذهب أنا وزوجتي إلى خارج المدينة طوال اليوم. وعادة ما نأخذ معنا ابن عم زوجتي أردليون، وهو فنان دمث الخلق، عديم المواهب. وبتصوري، إنه كان فقير مثل عصفور، وإذا طلب منه شخص أن يرسم له بورتيه، فقد كان ذلك بدافع الشفقة عليه، أو بسبب ضعف الإرادة، كان أردليون مثابراً بشكل فظيع. استسلف مني، وربما من ليدا، كل مرة نصف مارك أو مارك، وبالطبع سعى جهده في تناول الغداء معنا. لم يدفع ثمن الغرفة التي يسكنها لشهور، أو دفع عنها لوحة طبيعة ميتة تصور بعض التفاح المربع مبعثر على مفرش مائل، أو ليلك قرمزي في مزهرية منحرفة ذات وهج. ووضعت صاحبة شقته هذه اللوحات في اطر على نفقتها الخاصة، كانت غرفة المعيشة أشبه بمعرض لوحات فنية. وكان يتناول طعامه في الحانة الروسية، التي في وقت ما «عربد فيها» وكان سابقاً من أهالي موسكو وأحب الكلمات الثقيلة، وعيناه تقدح شرراً، وتخزر بشكل مبتذل على طريقة سكان موسكو. واستطاع رغم فقره، بطريقة ما الحصول على قطعة أرض صغيرة تبعد ثلاث ساعات عن برلين، أو بالأحرى، دفع القسط الأول من سعرها البالغ مئة مارك، ولم تشغله الأقساط التي ينبغي عليه دفعها في المستقبل، ولن يدفع سنت أكثر من ذلك. معتقداً أن قطعة الأرض الخصبة هذه ستكون ملكاً للأبد بدفعه القسط الأول من سعرها. كانت بساحة ملعبي تنس ونصف، وانتهت عند بحيرة صغيرة جداً. نمت عليها شجرتان بتولا لا تفترقان (أو أربعة، إذا قمنا بعد انعكاساتها في

الماء)، وعدة شجيرات من النبق، وعلى بعد منها خمس أشجار صنوبر، وأبعد من ذلك، في المؤخر عدد من أشجار الكالين: بمثابة مقدمة للغابة المحيطة. لم تكن قطعة الأرض مسورة، إذ لم يوجد لديه المال الكافي لذلك. كان أرداليون، على ما أعتقد ينتظر أن يتم تسييج قطعتي الأرض المجاورتين، وبذلك يتم إضفاء الشرعية تلقائيا على حدود ممتلكاته، ومنحه سياجا مجانيا، لكن القطع المجاورة لم تُباع بعد. وعلى العموم، كان بيع الأراضي في هذه الانحاء بطيئاً، فالمكان رطب، مليء بالبعوض، جداً عن القرية، ولا يوجد درب إلى الطريق العام حتى الآن، وغير معروف متى سيتم مده.

أقنعنا أردليون بإلحاح بزيارة قطعة الأرض تلك، فخضعنا له، وقمنا لأول مرة بذلك في منتصف يونيو. أتذكر ذهبنا لمبنى سكنه في صباح يوم أحد، وبدأتُ اضرب الزمور وأنا أنظر إلى نافذته. غرقتْ النافذة في نوم عميق. وصنعت ليدا من يديها بوقاً ونادته باسم التحبب: «أردااليوشا!»، ولاحظتُ أن ستارة رفرفت بعنف في إحدى النوافذ السفلية، فوق لافتة الحانة، التي جعلني منظرها لسبب ما أعتقد أن أرداليون مدين لصاحبتها بمبلغ كبير ـ رفرفت الستارة ـ كما قلتُ ـ واطل منها عجوز، يشبه الزعيم الألماني الأسبق بسمارك، وهو برداء منزلي، وسلط علينا نظرة غاضبة.

تركتُ ليدا في السيارة بعد أن أوقفت محركها، وذهبتُ لإيقاظ أرداليون. كان يغط في النوم بملابس السباحة. تدحرج من السرير، وارتدى خفه بصمت وبسرعة، وسحب سروالا من الفانيلا وارتدى قميصا أزرق فوق ملابس السباحة، وأخذ حقيبة ذات انتفاخ مريب، ونزلنا إلى الطابق السفلي. لم يساعد التعبير الاحتفالي الناعس كثيراً في إضفاء الجمال على وجهه ذي الأنف السميك. أجلسناه في الخلف، في المقعد الذي تتخذه الحماة عادة.

لم أعرف الطريق. قال إنه يعرفها كما يعرف صلاة «أبانا الذي في السماوات». وما أن غادرنا برلين، حتى بدأنا نظل الطريق. وأخذنا لاحقاً نستفهم: توقفنا وسألنا، ومن ثم استدرنا في وسط قرى مجهولة، وإذ قمت بالمناورة دهست الدجاج بالعجلات الخلفية. قمتُ، وقد انتابني الغضب، بتدوير المقود، وتقويمه بقوة، واندفعنا بسرعة. صاح أردالیون عندما مررنا ببلدة كونيغسدورف في الظهيرة وبلغنا الطريق العام الذي يعرفه.

ـ أنا أتعرف على ممتلكاتي! سأريك إلى أين تتجه. مرحى، مرحى، أشجار عمرها مئة عام!

قالت ليدا بسلام:

ـ أردالیونشيك، لا تؤدي دور الأحمق.

امتدت تلال صحراوية على جوانب الطريق العام، وشجر من فصيلة الخلنجات، ورمال، وفي بعض الأماكن ظهرت أشجار صنوبر صغيرة. ثم أصبح كل هذا منبسطاً بعض الشيء، على غرار أي حقل، وخلفه حافة غابة مظلمة للغابة. اهتاج أردالیون مرة أخرى. وعلى حافة الطريق، على اليمين، ارتفع عمود أصفر لامع، يؤشر إلى طريق قديم غير مرئية، تفرعت عن الطريق العام، تشبه شبح طريق، ضاعت معالمها بسبب نمو نبات ذيل الحصان والشوفان.

قال أردالیون بنبرة جادة، وسقط عليّ وهو يصرخ بشكل لا إرادي، لأنني أبطأت.

ـ أستدر.

ابتسمتُ أيها القارئ. وفي الواقع، ولماذا لا يبتسم المرء؟: يوم صيفي ممتع، ومنظر طبيعي هادئ، وفنان أحمق دمث الأخلاق، وعمود على جانب الطريق. أوه، هذا العمود الأصفر... نصبه رجل أعمال يبيع

الأراضي، ويتراءى ساطعاً في عزلته مثل أخ ضال للأعمدة الصفراء المائلة للأحمر الشبيه له، التي تقف على بعد سبعة أميال من هنا بالقرب من قرية فالذاو، وقفت هناك لحراسة قطع أراضي مغرية، وأغلى سعراً. لقد تحول هذا العمود الوحيد بالتالي بالنسبة لي إلى فكرة ثابتة، لازمة. نما في أحلامي أصفر مميز وسط طبيعة كالحة. لقد استرشدتْ رؤيتي به. عادت كل أفكاري إليه. أشرق كنار موثوق بها في ظلام افتراضاتي. يبدو لي الآن بأنني قد تعرفت عليه عندما رأيته للمرة الأولى: لقد كان معروفا لي، انطوى على معنى مستقبلي. ربما أكون مخطئاً، ربما نظرتُ إليه بلا مبالاة، وفكرت فقط في عدم الاحتكاك به بجناح السيارة عند الاستدارة، ولكن الأمر سيان: فالآن، عندما أتذكره ليس بوسعي فصل هذا التعارف الأول معه عن صورته التي كانت في مرحلة التكوين.

وكما قلت ضاعت الطريق، وانمحت، والسيارة تطلق صريرها باستياء، وقفزت على نتوءات الطرية. توقفتُ ورحت أهز كتفي.

قالت ليدا:

ـ أتعرف، يا أرداليوشا، من الأفضل أن نذهب مباشرة على الطريق العام إلى فالداو، وكما قلت إن هناك بحيرة كبيرة ومقهى.

اعترض أرداليون بحماس:

ـ هذا مستحيل. أولاً مازالت المقهى في مرحلة التصميم فقط، وثانيا، لدي بحيرة أيضاً. كونا لطيفين، يا أعزاءي.

والتفتَ إليّ:

ـ حرك سيارتك للأمام لن تأسفا على لذلك.

بدأت، على بعد ثلاثمائة خطوة منا، غابة صنوبر. نظرتُ إلى هناك، وأقسم لكم، شعرتُ أنني أعرف كل هذا! نعم، نعم أتذكر الآن بوضوح: أكيد امتلكني مثل هذا الشعور، لم أختلقه بأثر رجعي، بعد أن

جرت تلك الحوادث، وعندما تطلعتُ حولي، صوب لي هذا العمود الأصفر نظرة ذات مغزى، وكأنه قال لي: أنا هنا رهن إشارتك. ونهضتْ جذوع الصنوبر في الأمام، كما لو متلحفة بجلد ثعبان محمر، والريح مرت بلطف على عكس اتجاه شعر وبرها الأخضر الأشعث، وشجرة بتولا عارية على الحافة... لماذا عارية؟ فلم يحل الشتاء بعد ـ كان فصل الشتاء ما يزال بعيداً ـ وطقس اليوم كان معتدلاً، صافٍ تقريباً، وتعالت أصوات الجنادل كمتلعثم «زي، زي، زي»... نعم، كان كل هذا مفعم بالمعاني، كل هذا لم يكن عبثاً...

ـ أين، في الواقع، تأمرني بالتوجه؟ أنا لا أرى الطريق.

قال أردالیون:

ـ لا تتهاون، هيا امض يا عزيزي، طيب، نعم للأمام، إلى هناك، إلى ذلك الفاصل. يمكن المرور عبر الغابة دون مصاعب وهناك لن يكون بعيدا.

اقترحت ليدا:

ـ ربما نخرج من السيارة ونذهب مشيا.

قلت ساخرا:

ـ أنتِ على حق، فمن يخطر على باله سرقة سيارة جديدة.

وافقت على الفور:

ـ نعم، إنه أمر خطير، ربما تذهبان أنتما الاثنان، (تأوه أردالیون) سيريك أرضه، وسأنتظركما هنا، وبعد ذلك سنذهب إلى فالدانو، نستحم، ونجلس في المقهى.

قال أردالیون بانفعال:

ـ هذا مقرف يا سيدتي. أردت أن استقبلكم في ارضي، لقد أعددت لكم مفاجئة، أنتما تسيئان لي.

شَغَلتُ المحرك، وقلت في نفس الوقت:

ـ لكن إذا حدث عطبا في السيارة، فستتحمل أنتَ مسؤوليته.

اهتزت السيارة بي على المطبات، واهتزت ليدا بجواري، واهتز أردالیون وهو يجلس في الخلف

وقال:

ـ نحن الآن، (والسيارة طُب)، سنقود إلى الغابة، (طُب)، وهناك، (طُب)، من السهل السير على نبات الخلنج (طب).

وصلنا. في البداية عَلقنا في رمال رخوة، زأر المحرك، واندفعت العجلات، وفي النهاية قفزنا، ثم راحت الأغصان تضرب على جوانب السيارة وبدنها وتخدش صبع الورنيش. وثم ظهر ما يشبه الطريق الترابي التي نما عليها نبات خلنج جافاً هشّاً، مرة ظهرت الطرق، وأخرى انعطفت بين جذوع متلاصقة بعضها بالبعض.

قال أردالیون:

ـ إلى اليمين قليلاً، سنصل الآن. هل تشعرون بهواء الصنوبر الرائع، فاخر! كما توقعت أنه سيكون فاخرا. الآن يمكنكم التوقف. سأذهب للاستطلاع.

نزل مبتهجاً، أدار مؤخرته السميكة، ومشى مسرعاً في الغابة. صرخت ليدا:

ـ انتظر، اذهب أنا معك!

لكنه حث خطاه بكل سرعته، واختفى خلف الأشجار.

تحرك المحرك وتوقف.

قالت ليدا:

ـ يا له من مكان موحش، هل تعرف أخاف أن أكون بمفردي هنا. هنا بوسع الأشرار السطو والقتل وأي شيء.

في الواقع، كان المكان نائياً وأصمّاً، خشخشت أشجار الصنوبر بخفوت، وكان الثلج يكسو الأرض، وفيه بقع أرضية سوداء جرداء... هراء، من أين يأتي الثلج في يونيو؟ يجب حذف هذه العبارة. كلا إن قول ذلك خطيئة. فليس أنا الذي اروي، بل تروي ذاكرتي عديمة الصبر. وافهموها كما يحلو لكم، لا علاقة لي بها. وكانت على العمود الأصفر قطعة من الثلج تشبه الطاقية. على هذا النحو بانَ المستقبل. لكن يكفي الحديث عن هذا الموضوع، دع يوم الصيف ذاك يكون في بؤرة تركيزي مرة أخرى: بُقع الشمس، وظلال الأغصان على جناح السيارة الزرقاء، وعلى كوز الصنوبر والسُلم على جناح السيارة، حيث ستوضع عليه في وقت من الأوقات أدوات غير متوقعة: فرشاة حلاقة.

سألتني زوجتي.

ـ في أي يوم اتفقنا معهم على إعادة الكلبة،

أجبتها:

ـ مساء الأربعاء.

ساد بيننا صمت. فأردفت زوجتي:

ـ أتمنى ألا يعيدوها ثانية.

ـ طيب، سيحضرونها... أليس الأمر سيان لكِ؟

ران الصمت. وحلقت فراشات زرقاء صغيرة فوق نبات الزعتر.

ـ جيرمان هل أنت متأكد في يوم الأربعاء؟

(هل يستحق الأمر فتح الأقواس؟ تحدثت وزوجتي عن تفاهات ـ عن

بعض المعارف، وقصدت بسؤالها كلبنا الصغير المسعور، الذي كان يحظى باهتمام الجميع عندما نكون في ضيافة عائلة ما، كانت ليدا لا تحبه وتحب «الكلاب الأصيلة الكبيرة» فقط، وتضخم أنفها عند كلمة «من سلالة أصيلة».)

ـ لماذا لا يعود؟ ربما يكون قد ظل الطريق.

نزلتُ وقمت بدورة حول السيارة لفحصها. كان بدنها مخدشاً.

لم يكن لدى ليدا ما تشغل نفسها به، فتلمست حقيبة أردواليون ثم فتحتها قليلاً. تنحيتُ جانبا، لا أتذكر، لا أتذكر ما كنت أفكر فيه، نظرتُ إلى حطب غشاش تحت أقدامي، وعدتُ. جلستْ ليدا على سُلم جناح السيارة، وأطلقت صفيرا. طفقنا ندخن. وساد الصمت بيننا. كانت تنفث الدخان بشكل جانبي، وتلوي فمها.

ومن بعيد ترامت صرخة أردواليون الحادة. ظهر بعد دقيقة بين الأشجار محرجا، ولوح لنا لنتبعه. سرنا ببطء وانعطفنا حول سيقان الأشجار. وسار أردواليون أمامنا بهيئة شخص عملي وواثق من نفسه. وسرعان ما لمعت البحيرة.

لقد سبق أن وصفت قُطعة أرضه. لم يستطع إخباري بحدودها بالضبط. راح يقيس مساحة أرضه بخطوات ثابتة واسعة، ارتكز مع كل خطوة على ساق واحدة منحنية وتطلع حوله، هز رأسه وذهب يبحث عن جذع شجر صغير ليكون بمثابة علامة لحدود أرضه. انعكستْ أشجار البتولا في الماء، الذي طفت عليه نتف الريش، ولمع القصب. وكانت مفاجئة أردواليون لنا هي زجاجة فودكا، التي سارعت ليدا بإخفائها عنه. ضحكتْ، وقفزتْ في الماء، وهي في ثوب سباحة ضيق ذي حافة بلونين، أحمر وأزرق، تماماً مثل كرة الكروكي.

وعندما عامت لحد كاف على ظهر أردواليون العائم ببطء صرخ:

ـ لا تقرصيني، يا أمتي، وإلا سوف أسقط،

خرجت من الماء وهي تصرخ وتشخر، وأصبحت ساقاها مشعرة، ولكن بعد ذلك جفت، وشابها لونا ذهبيا. رسم أردليون شارة الصليب قبل أن يغطس في الماء، بدت على طول ساقة ندبة من أثار الحرب الأهلية، وظهر من فتحة إبط ملابس السباحة الضيقة بشكل رهيب، بين الحين والآخر صليب صدري من النمط الذي يلبسه الفلاحون.

دهنت ليديا نفسها بزيت، ومن ثم استلقت على ظهرها، وأسلمت جسدها لأشعة الشمس. جلستُ وأردليون في مكان قريب، تحت أفضل أشجار الصنوبر لديه. أخرج من حقيبته الرفيعة البائسة دفتراً وأقلاما رصاص من ورق وايتمان، وبعد دقيقة لاحظت أنه كان يرسمني.

وقال وهو يتفرس بي:

ـ لديك وجه صعب.

صرخت ليدا دون أن تتحرك تماماً:

ـ آه، أرني،

وأشار لي أردليون:

ـ ارفع رأسك، هكذا، هذا يكفي.

صرخت ليدا مرة أخرى بعد فترة وجيزة:

ـ آه، أرني.

أردف أردليون باستياء:

ـ أولاً، أريني أين أخفيّتِ زجاجة الفودكا.

أجابت ليدا باسم التحبب:

ـ أردليونشيك لن تحصل عليها، لن تشرب أمامي.

ـ يا لها من غريبة أطوار.(وتوجه لي) هل تعتقد أنها دفنتها حَقّاً؟ لقد أردت أن أشرب معك يا سيدي.

صرخت ليدا وهي لا ترفع جفنيها اللامعين:

ـ سأجعلك تكف عن عادة الشرب.

قال أردااليون:

ـ يا لها من امرأة مؤذية.

وسألتهُ:

ـ لماذا تقول إن وجهي صعب؟ ما هي الصعوبة فيه؟

ـ لا أعرف، لا يتمكن منه قلم رصاص. يجب أن أجرب رسمه بالفحم أو الزيت.

قام بمسح شيء بقطعة مطاطية، وإزالة الغبار بمفاصل أصابعه، وأمال رأسه.

ـ أعتقدُ أن وجهي عادي للغاية. ربما تحاول تصويره برسم جانبي؟

وصرخت ليدا وهي مشدودة للأرض.

ـ نعم رسم جانبي.

ـ كلا، لا يمكنك أن تسميه عادي. ارفع راسك قليلاً. على العكس، هناك شيء غريب فيه. قلم الرصاص عاجز عن التمكن من كل ملامحه. تخرج فجأة.

ـ مثل هذه الوجوه، إذن، نادرة، هل هذا ما تعنيه؟

قال أردااليون:

ـ كل وجه فريد من نوعه.

تأوهت ليدا دون أن تتحرك:

ـ أوه، أنا أحترق من الشمس.

ـ لكن، عفواً، ما علاقة ذلك بالخاصية الفريدة؟ فأولاً، هناك أنماط محددة من الوجوه: حيوانية، على سبيل المثال. هناك أشخاص بسمات القرد، وهناك من نمط الفئران، والخنازير.. وبعد ذلك: أنماط وجوه المشاهير لنقل نابليون بين الرجال، والملكة فيكتوريا بين النساء. قيل لي إنني أشبه راؤول أموندسن. لم يتَسنَ لي ولو لمرة واحدة أن أرى أنوف أشخاص مثل ليف تولستوي. طيب هناك أيضاً نمط فني: وجه مبدع، رسوم الأيقونات، على غرار صورة العذراء. وأخيرا، ثمة أنماط مهنية...

ـ إذن تعتقد أيضاً أن جميع اليابانيين متشابهون مع بعضهم البعض. وتنسى يا سيدي، أن الفنان يرى الفرق. الشخص العادي يرى التشابه، غالباً ما تصرخ لي ليدا في السينما:

ـ انظر، كيف تشبه خادمتنا كاتيا!

قالت ليدا:

ـ أردااليونشيك، لا تسخر مني.

تابعتُ:

ـ لكن يجب أن تعترف، في بعض الأحيان يكون التشابه هو المهم.

قال أردااليون:

ـ عندما تشتري شمعدانا.

ليست هناك حاجة للكتابة أكثر عن هذه المحادثة مع أردااليون. أردت بشغف أن يتحدث الأحمق عن المتشابهين، لكنني لم أحقق ذلك. بعد مرور بعض الوقت، أخفى دفتر الملاحظات، وتوسلت ليدا له لإظهاره لها، وطالب بإعادة الفودكا كمكافأة، لكنها رفضت، ولم يظهره.

تنتهي ذكرى ذلك اليوم بالتلاشي في ضباب الشمس، أو تتشابك مع

ذكرى رحلاتنا القادمة هناك. فقد ذهبنا إلى هناك عدة مرات. وأصبحت مرتبطاً بشدة وبشكل مؤلم بهذه الغابة المنعزلة التي بداخلها بحيرة متألقة. أراد اراداليون بالتأكيد أن يعرّفني على مدير المشروع ويجبرني على شراء قطعة أرض مجاورة، لكنني رفضت، وحتى لو كانت هناك رغبة في الشراء، لما قررت ذلك، إذ لم يكن عملي جيداً في ذلك الصيف، وشعرت بالسأم من كل شيء. لقد أفلسني بزنس الشكولاتة الكريهة. لكن بكلمة شرف، أيها السادة، بكلمة شرف، ليست المنفعة، ليست المنفعة فقط، وليست الرغبة في تحسين شؤوني وحسب... على أي حال ليست هناك حاجة لاستباق الأمور.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل III

كيف نبدأ هذا الفصل؟ أقدم عدة خيارات للانتقاء من بينها: الخيار الأول ـ غالباً ما نصادفه في الروايات التي يرويها كاتب حقيقي أو شخص مُتخيل، غير واقعي:

اليوم مشمس، ولكنه بارد، والرياح هائجة، وأوراق الشجر دائمة الخضرة تهتز خارج النوافذ، ويسير ساعي البريد للخلف على طول الطريق العام ممسكاً بقبعته. أشعر بالإنهاك...

السِمات المميزة لهذا الخيار من السرد واضحة تماماً: فمن المعروف أن الشخص يتواجد أثناء الكتابة في مكان معين ـ إنه ليس مجرد روح تحوم فوق الصفحة. وبينما هو يتذكر ويكتب، يحدث شيء ما من حوله ـ فها هي الآن هذه الرياح، وهذا الغبار على الطريق، الذي أراه من خلال النافذة (استدار ساعي البريد، وانحني، واستمر في مقاومة الريح، وتقدم للأمام). إن هذا الخيار من السرد ممتع، ومنعش، يعطي فترة راحة، والانتقال إلى الذاتي، ويمنح هذا الحيوية للقصة، خاصة عندما يكون بطل القصة من صنع الخيال مثل الشخوص الأخرى جميعاً. ولكن أسيئ استخدام هذه الأداة السردية، وجعلها الأدباء المختلقون أداة مبتذلة، وهولا يناسبني، لأنني أصبحت صادقا. دعونا ننتقل الآن إلى الخيار الثاني. يتمثل في تقديم بطل الرواية الجديد من دون مقدمات، وبدء الفصل مثلاً على هذا النحو:

ـ كان أورلوفيوس مستاءً. وعندما يكون منزعجا أو منشغلا، أو ببساطة لا يحر جوابا، يجر الشحمة الطويلة لإذنه اليسرى التي شاب حافتها الزغب، ومن ثم يجر الشحمة الطويلة لإذنه اليمنى، ـ لكيلا تحسد اليسرى، ويحملق بمحاوره من فوق نظاراته البسيطة بعيون صادقة، ويتباطأ في الرد، وبالتالي يجيب: «من العسير عليَّ القول، ولكن يبدو لي...» تعني كلمة «من العسير» بالنسبة له «من الصعب». وتلفظ حرف العين بثقل.

أقول مرة أخرى إن الخيار الثاني لبداية الفصل أداة فنية معروفة وذات نوعية حسنة بيد أنه احتفالي وتفخيم بعض الشيء لا يناسب شخصية روائية مثل اورلوفيوس الصارم والخجول، لكي يبدأ الكاتب الفصل بحيوية، استرعى انتباهكم للخيار الثالث:

ذات مرة... (نقاط ثلاث لإثارة فضول القارئ للمضي في القراءة).

سابقاً أحب السينمائيون بالذات البيوسكوب، هذه الأداة الفنية. يحدث في أول مقطع للبطل كذا وكذا، وفي الوقت نفسه... توضع نقاط ثلاث وينتقل الحدث إلى قرية، وفي الوقت نفسه... فقرة جديدة:

... سار المتشرد في طريق متوقدة، وسعى للبقاء في ظل أشجار التفاح، عندما صادف جذوعها الملتوية المصبوغة بالأبيض الساطع...

كلا، هراء، لم يكن دائم التنقل. كان يجد فرصة عمل عندما يحتاج صاحب مزرعة إلى عامل إضافي، أو هناك حاجة لظهر في مطحنة لنقل أكياس الطحين. لدي صورة غامضة عن حياته، فلم أعش حياة مشرد قط. قبل كل شيء أردت أن أتخيل الانطباع الذي بقي لديه من أحد إصباح شهر مايو/ أيار في العشب الذابل خارج براغ. استيقظَ. جلس إلى جانبه سيد بملابس فاخرة وراح يحدج فيه، ربما سيعطي سيجارة. تبين أن السيد ألماني. راح يضايقني، ـ ربما ليس طبيعيا تماماً ـ دفع بمرآة،

شتمَ. اتضح أن الكلام يدور عن التشابه بيننا. تشابه ليكن تشابه. لا شأن لي بذلك. ربما سيعطيني عملا سهلا. هذا هو عنواني. من يدري، ربما سيسفر عن شيء ما.

ـ اسمعني يا رجل (يقول في محادثة دارت في نزل ذات ليلة دافئة ومظلمة)، لقد التقيت ذات مرة برجل غريب الأطوار. اتضح أننا توأمان.

ضحك الرجل الآخر في الظلمة:

ـ إنك تعاني من ازدواجية الرؤية، يا سكير.

هنا خطر لي خيار أخر: محاكاة الروايات المترجمة عن حياة المتشردين المرحين، الطيبين. لقد اختلطت عليّ كل الأدوات الفنية.

أنا أعرف كل ما يتعلق بالأدب. دائماً كان لدي هذا الشغف. عندما كنت طفلا كتبت الشعر والقصص الطويلة. لم أسرق قط المشمش من الدفيئات الزراعية لمالك الأراضي الذي عمل والدي عنده كناظر ضيعة، ولم أدفن قط قططاً حية، ولم ألو ذراع أحد أقراني الأضعف مني، قط، ولكني كتبت سراً قصائد وقصصا طويلة لطخت فيها عبثا شرف معارفي بشكل فظيع لا يمكن إصلاحه، لكنني لم أكتب هذه القصص ولم أخبر أحداً عنها. ولم يمر يوم دون أن أكذب. لقد كذبت بسرور، وبنكران ذات، واستمتاع بالانسجام والتوافق والتناغم والإيقاع بالحياة الجديدة إلى صنعتها. لقد عاقبتني والدتي على مثل هذا الكذب اللذيذ بصفعة على أذني اليسرى، وساطني أبي في مؤخرتي. لم يحزنني ذلك قط، بل كان بمثابة حافز لأكاذيب جديدة. وإذ أصابني الصمم في أذني اليسرى من ضربة أمي، والتهبت النيران في عجيزتي، استلقيت على وجهي في العشب الخصب تحت أشجار الفاكهة ورحت أصفر، أحلم بلا مبالاة. في المدرسة، وضعوا لي في درس الإنشاء والتعبير درجة ضعيف، لأنني سردت أفعال أبطال روايات الكلاسيكيين بطريقتي الخاصة: على سبيل

المثال، في عَرضي لقصة ألكسندر بوشكين «الطلقة» كتبت أن سيليفيو أردى من دون إبطاء غريمه الكونت محب الكرز، قتيلا، ومعه قتلتُ أنا مضمون القصة بأسره، رغم أنني عرفته بصورة جيدة، إذ أن سيليفيو غفر عن غريمه.

حصلت على مسدس، ورسمت على جذوع شجر الحور في الغابة بالطبشور وجوها بيضاء تصرخ وأطلقت عليها النار. أحببت ـ وما زلت أحب ـ أن أضع الكلمات في ترتيب غبي، وجمعتها وزاوجتها في تلاعب الألفاظ، وقلبتها لتفاجئ المتلقي على غرار أن اسم البندقية مشتق من بندق وانتهز من انتهازي....

راودني لعدة سنوات حلم طريف وسمج: كما لو كنت في ممر طويل، في أعماقه باب، أرغب بالاقتراب منه بلهفة، ولا أجرؤ، لكن أخيراً قررت الاقتراب منه وفتحه، وفيما فتحته، استيقظت من نومي وانا أئن وأتوه، فقد ظهر خلف الباب شيئاً فظيعاً ليس بالوسع تصوره، أي: غرفة فارغة تماماً، عارية، طُليت جدرانها حديثا بلون ابيض، لا شيء أكثر من ذلك، لكنها كانت فظيعة لدرجة أنه كان من المستحيل تحملها.

منذ الصف السابع، بدأت بشكل منتظم أزور دار المتعة، وشربت الجعة هناك. كنت أعيش خلال الحرب، بخمول في قرية صيد بالقرب من أستراخان في جنوب روسيا، ولولا الكتب لما عرفت ما إذا كنت سأحتمل هذه السنوات العجاف. تعرفت على ليدا في موسكو (إلى حيث شققت طريقي بأعجوبة، عبر هرج ومرج الحرب الأهلية الشنيعة)، في شقة صديق عابر من لاتفيا، كنت أعيش معه. كان رجلاً صامتاً أبيض الوجه بشعر قصير وخشن انتصب على طرف جمجمة مكعبة، ونظرة بلا تعبير في عيون باردة، وكان عالم باللغة اللاتينية، ومن ثم أصبح مسؤولاً سوفيتياً بارزاً إلى حد ما. عاش في الشقة عدة أشخاص، كلهم نزلوا فيها

بالصدفة، وبالكاد يعرفون بعضهم البعض، وبالمناسبة، كان شقيق أردالیون، وابن عم ليديا، إينوكينتي، الذي أُطلق النار عليه لسبب ما، بعد مغادرتنا. في الواقع، أن كل هذا يلائم أكثر بداية الفصل الأول وليس الثالث...

تضحك، تجيب بحيلة

(أنت لا تكره الذهاب بعيداً!)

من الأشعة، من يأس لماذا،

لماذا تنطلق في الليل؟

هذه تجاربي في نظم الشعر الذي كتبته في الشباب إذ شغفت بالأصوات التي لا معنى لها... لكن ما يشغلني الآن: هل كانت لدي أي ميول بين قوسين «إجرامية»، في ذلك الوقت؟ هل أخفى شبابي، الذي يبدو رمادياً وبسيطاً وساذج، قدرتي على مخالفة القوانين بدهاء؟ أو ربما ظللت أسير في ذلك الممر العادي الذي تراءى لي في الحلم، وصرخت مرعوباً عندما وجدت الغرفة فارغة، لكن ذات يوم، في يوم لا يُنسى، لم تكن الغرفة فارغة، ونهض شبيهي لملاقاتي. حينها تم تأويل كل شيء: رغبتي في الاقتراب من هذا الباب، والألعاب الغريبة، وحتى ميلي حينئذ لنسج، بمشقة ونهم، أكاذيب من غير هدف. لقد وجدتُ ذاتي. حدث هذا كما سبق وأن تشرفت بإخباركم في التاسع من مايو/أيار، وفي يوليو/تموز.

زرت وكيل شركة التأمين أورلوفيوس. وافق على قراري بالتأمين على حياتي الذي اتخذته ونفذته على الفور، والذي، فضلاً عن ذلك، كان هو نفسه قد نصحني به منذ فترة طويلة باتخاذه. بعد أسبوع، دعوته لتناول العشاء معنا. وضع زاوية المنديل على جانب خلف ياقة قميصه. تناول الحساء وهو يعرب عن استيائه من التطورات السياسية. وسألته ليدا

بسذاجة عما إذا ستنشب الحرب ومع مَن. نظر إليها من خلال نظارته، وتباطؤ في الرد عليها (على هذا النحو تقريباً ظهر بسرعة في بداية هذا الفصل)، وأجاب أخيرا:

ـ من العسير قول ذلك، لكنني أعتقد أنه غير وارد. عندما كنت شابا، توصلت إلى فكرة أن افترض حدوث الأفضل فقط ـ (خرجت كلمة «الأفضل» منه بنبرة حزينة ومعبرة). ومنذ ذلك الحين ما زلت أحمل هذه الفكرة. الشيء الرئيس لي هو التفاؤل.

قلتُ له مبتسماً:

ـ هذا هو بالضبط ما تحتاجه مهنتكم، نظراً لأنكم ستدفعون كلفة التأمين على الحياة بالملايين.

نظر إليّ من تحت حواجبه وأجاب بجدية:

ـ لكن التشاؤم من الحياة يعطينا زبائن.

تكللتْ نهاية العشاء بشكل غير متوقع بالشاي في أكواب. ولسبب ما بدا هذا لليدا بارعاً وممتعاً للغاية. ومع ذلك، كان أورلوفيوس سعيدا. تحدث بهدوء وكآبة عن والدته العجوز التي عاشت في يوريف، رفع الزجاج وقلب الشاي المتبقي فيه على الطريقة الألمانية، أي ليس بالملعقة، ولكن بهز الكوب بيده، لكيلا يذوب السكر الذي استقر في القاع.

بوسعي أن أقول إنني وقعت العقد مع وكالته، في حالة نعاس، وبغير أهمية بشكل غريب. وبعد ذلك غدوت كئيباً، قليل الكلام، ضبابي. وحتى زوجتي التي تعوزها قوة الملاحظة، رصدت بعض التغيير علي. وقالت ذات يوم في منتصف الليل:

ـ أنت مُتعب، يا جيرمان. سنذهب إلى البحر في أغسطس/ آب،

لم نستطع النوم، كان الجو خانقاً بصورة لا تطاق، مع أن النافذة كانت مفتوحة على مصراعيها. أوضحت لها:

ـ بشكل عام سئمتُ من حياتنا في المدينة.

لم تستطع رؤية وجهي في الظلام. وبعد دقيقة قالت:

ـ إن العمة ليزا، التي عاشت في إكس، توجد مثل هذه المدينة، إكس؟ أليس كذلك؟

ـ توجد.

تثاءبت وتابعت:

ـ تعيش الآن في إكس، بل بالقرب من نيس، تزوجت من رجل فرنسي عجوز، ولديهما مزرعة.

تثاءبتْ. فشرحتُ لها، وتثاءبتُ أيضا:

ـ إن بزنس الشوكولاتة، يا أمي، في طريقه إلى الجحيم.

تمتمت ليدا:

ـ كل شيء سيكون على ما يرام. أنت بحاجة إلى الراحة وحسب.

وقلت بحسرة متصنعة:

ـ تغيير الحياة، وليس الراحة.

تساءلت ليدا:

ـ تغير الحياة؟

سألتها:

ـ هل ترغبين في أن نعيش في مكان نخلد فيه إلى حياة هادئة، تحت الشمس؟ حيث لا يكون لدي ما أفعله؟ ونعيش على إيرادات شريفة؟

ـ جيرمان، أشعر بالرضا معك في كل مكان. كنا سنأخذ أردواليون معنا، ونشتري كلباً كبيراً...

لذنا في الصمت. وبعد فترة قلت لها:

ـ يا للأسف ليس بوسعنا الذهاب إلى أي مكان. وضعنا المالي سيئ. ربما سأضطر إلى تصفية بزنس الشوكولاتة.

مرّ في الشارع المجاور أحد المشاة في تلك الساعة المتأخرة من الليل. طق. طق مرة أخرى. لا بد أنه ضرب أعمدة الإنارة بعكازه.

ـ خمّني ما هي الكلمة الروسية التي: يعني أولها ساخن «بالفرنسية». والثاني «ما يجلسون عليه المذنب التركي»، والثالث هو «المكان الذي سنصل إليه عاجلاً أم آجلا». وكامل الكلمة ـ ما يجعلني مفلسا.

مرت سيارة في الشارع المجاور.

ـ طيب، ألا تعرفين؟ إنها شوكولاتة إذ أن شو بالفرنسية ساخن وكول أي خازوق بالتركية وآد بالروسية: «جهنم» وبالتالي سأصبح مفلساً من بزنس الشكولاتة.

لكن الحمقاء غطت في النوم. أغمضت عينيّ، واستلقيت على جانبي، رغبت في النوم. ولم أفلح، جاء فيليكس من الاتجاه المعاكس ليّ، من الظلمة، عندما وصل إليّ، دفع بفكه وهو ينظر مباشرة إلى عيني، وذاب، وكانت أمامي طريق طويلة خاوية: ظهر رجل من بعيد، سار الرجل، وضرب عصاه على جذوع الأشجار القائمة على جانبي الطريق، واقترب، وتمعنت، ودفع بفكه وحملق مباشرة في عيني، وذاب مرة أخرى، ووصل إلي، أو بالأحرى، دخل في، مر من خلالي، كما لو كان من خلال ظل، ومرة أُخرى امتدت الطريق بترقب، وظهر رجل من بعيد، ومرة أُخرى كان هو. انقلبتُ على الجانب الآخر، لفترة كان كل شيء مظلماً وهادئا، سواد مستو، ولكن بالتدريج ارتسمت

طريق، في الاتجاه الآخر، والآن ظهر وجهي أمامي، كما لو كان يخرج مني، ظهر رأس رجل مع كيس كمثرى على ظهره، كان يصغر ببطء، ذهب، وذهب، والآن سيذهب تماماً، ـ لكنه استدار بغتة، توقف وعاد، وامسى وجهه أكثر وضوحا، كان وجهي. استلقيت على ظهري، وامتدت فوقي سماء مطلية باللون الأسود والأزرق، كما لو زجاج داكن، ولاح شريط السماء من بين هامات الأشجار الحزينة كما لو كانت تمشي ببطء إلى اليمين واليسار، وعندما استلقيت على بطني، رأيت تحتي طريق حجرية ميتة تتحرك مثل ناقلة متحركة، ثم حفرة وبركة وفي البركة وجهي وقد شوهته تموجات الماء بفعل الرياح، مرتعش وباهت، وفجأة لاحظت أنه من دون عيون.

قال أرداليون بغرور، وهو يمسك أمامه اللوحة التي بدأها ويبعدها قليلاً، ويميل رأسه في هذا الاتجاه وذاك:

ـ أنا دائماً ارسم العين في النهاية.

كان يزورنا كثيراً ويبدأ رسمي بالفحم. نجلس عادة في الشرفة. لدي الآن فيض من الفراغ، لقد رتبت لنفسي إجازة قصيرة، كانت ليدا جالسة معنا، على كرسي من الخيزران، تقرأ كتاباً، وأمامها عقب سيجارة نصف مطحون. ـ لم تطفئ أعقاب السجائر للنهاية مطلقاً، وراح عقب السيجارة يرسل من منفضة السجائر بعناد قوي تياراً رفيعاً ومستقيماً من الدخان إلى أعلى، ويتلوى قليلاً في الهواء، ويعود مرة أُخرى، مستقيما ورفيعا.

قالت ليدا، وهي تواصل النظر في الكتاب:

ـ لا يشبهه كثيراً.

اعترض أرداليون قائلاً:

ـ سيكون شبيها له. الآن سنصلح هذا المنخر، وسيبدو شبيه له. الضوء اليوم إلى حد ما قاتم.

سألت ليدا، ورفعت عينيها عن الكتاب، ووضعت إصبعها على الجملة التي توقفت عندها.

ـ ما هو القاتم؟

وأود أن اعرض لكم أيها القارئ فصل آخر من حياة ذلك الصيف. أعتذر عن عدم ترابط واتساق القصة واختلاط أحداثها، لكني أكرر، أن ذاكرتي ولست أنا الذي يكتب، وتتمتع هي بمزاجها الخاص، وقوانينها الخاصة. لذا، وعلى هذا النحو كنتُ مرة أخرى في الغابة بالقرب من بحيرة أردااليون، لكن هذه المرة وصلت وحدي، وليس على متن سيارة، ولكن ركبت في البداية القطار إلى كوينغسدورف، ثم بالحافلة إلى العمود الأصفر. كانت كل علامات المنطقة واضحة جداً على الخريطة التي نساها أردااليون في شرفة شقتنا، لنفرض أنني أمسك بهذه الخارطة أمامي، حينئذ ستكون برلين التي لم تتسع لها ورقة الخارطة، تقع تقريباً في ثنية يدي اليسرى. وتشير الخارطة إلى أن شريان طريق السكك الحديد المرسوم بالأبيض والأسود الذي يستمر في مساره يأتي من جهة ذراعي أيسر من برلين. ويرتكز الشريان في هذه الزاوية الجنوبية الغربية للخريطة في بلدة كوينغسدورف، ثم يستدير الشريط الأسود والأبيض بتموج إلى الشرق، وهناك مدينة جديدة: ايخنبيرج. لكن في الوقت الحالي ليس لدينا حاجة للذهاب إلى هناك، نخرج في كوينغسدروف. نترك خط السكة الحديد التي اتجهت شرقاً، ونرى الطريق العام التي تذهب شمالاً مباشرة باتجاه قرية فالداو. في هذه الطريق العام تذهب حافلة ثلاث مرات في اليوم تقريباً إلى فالداو (سبعة عشر كيلومتراً)، حيث، بالمناسبة، يقع مركز مؤسسة بيع الأراضي: جناح مبرقش، وعلم مبهج، والعديد من أعمدة الإشارة الصفراء، على واحد منها، على سبيل المثال، سهم يؤشر «إلى الشاطئ»، ولكن ليس ثمة شاطئ حتى الآن، فهناك فقط مستنقع على طول بحيرة كبيرة،

وعمود آخر عليه إشارة «إلى الكازينو»، لكن ليس ثمة كازينو هناك، هناك شيء مثل الخيمة وبوفيه بدائي، وأخيراً الثالث يدعو إلى أرض ميدان رياضي، وأقيمت هناك عوارض جمباز جديدة ومعقدة، والتي ليس ثمة من يستخدمها، باستثناء صبية الفلاحين، الذين تدلت رؤوسهم إلى أسفل العُقلة التي تعلقوا عليها، وتظهر في مؤخراتهم رقع ملابسهم، وكانت قطع أرض في كل مكان، وفي جميع الاتجاهات، التي تم شراء نصف البعض منها، ويمكن للمرء أن يرى في أيام الأحد رجال بدينين يرتدون ملابس السباحة والنظارات ذات الإطار القرني، مشغولين بتركيز على بناء كوخ، وفي بعض الأماكن، زرعت الزهور، أو هناك كشك لكنيف، مطلي بغنج. مكتبة سُر مَن قرأ

لكننا لن نذهب إلى فالداو، ونغادر الحافلة على بعد عشر فيرست من كوينغسدورف، عند العمود الأصفر الوحيد. الآن دعونا ننتقل مرة أخرى إلى الخريطة: إلى اليمين، أي إلى شرق الطريق العام، تمتد ساحة كبيرة، مرسومة عليها بقع، هذا يعني غابة، تقع فيها تلك البحيرة الصغيرة، على طول الشاطئ الغربي منها، مثل ورق قمار صففت على هيئة مروحة يدوية، وهناك حوالي ١٢ قطعة، تم بيع واحدة منها فقط لأردواليون. (وحتى هذه بصورة افتراضية) نحن نقترب من النقطة الأكثر إثارة للاهتمام.

ذكرنا في البداية محطة ايخينبرج، التي تأتي بعد كوينغسدروف إلى الشرق. وهكذا، فإن السؤال هو: هل من الممكن السير على الأقدام من بحيرة أردواليون الصغيرة إلى ايخينبرج؟ ممكن. ويجب أن يدور المرء حول البحيرة من الجانب الجنوبي والمضي قدما إلى شرق الغابة مباشرة. وإذ سرنا مسافة أربع كيلومترات عبر الغابة، وصلنا إلى طريق قروي، يؤدي أحد فرعيه، من غير المهم معرفة إلى أين، إلى القرى التي لا نحتاج إليها، بينما يؤدي الطرف الآخر إلى إيخينبرغ.

حياتي مشوهة ومشوشة، وها أنا انشغل بالأوصاف البهيجة، بهذه التوصيفات المرحة وحديث الشخص المتكلم بصيغة الجمع، نحن، وهذه الوصف للسواح وللمصطافين في الصيف، ومحبي حساء الخضروات. لكن كن صبوراً أيها القارئ ليس عبثاً أقودك في نزهة، وأرجو أن تتحلى بالصبر، فليس هناك حاجة الآن لأن اشرح لك بالتفصيل ستفهم لاحقاً كل شيء، ولذا سأقطع الحديث عن الموضوع مثلما يقطع ممثل المنولوج الذي يتحدث به على خشبة المسرح ويقول منبها عندما يسمع وقع أقدام: صه انهم قادمون.

نزهة... نزلت من الحافلة عند العمود الأصفر. ابتعدتْ الحافلة، بقيت فيها ثلاث نساء مسنات في بدلات سود منقطة، ورجل بصدرية مخملية، معه منجل ملفوف بقطعة قماش، وفتاة بجانبها حزمة كبيرة، وسيد في بالطو بربطة عنق انزلقت تلقائيا إلى جانب، وعلى ركبتيه حقيبة منتفخة كبطن أمرة حامل... على الأرجح انه طبيب بيطري. كانت هناك اثأر إطارات سيارات في نباتات الفربيون وذيل الحصان. عندما جئت وليدا وأردليون، قفزت السيارة بنا على المطبات. كنت أرتدي سروال الجولف، أو، بالألمانية، كنيكيربوكيراخ. ولجت الغابة. توقفت في المكان الذي انتظرت فيه أنا وزوجتي ذات مرة أردليون. دخنتُ سيجارة هناك. نظرتُ إلى الدخان، الذي امتد ببطء، ومن ثم تحول إلى طية شفافة ذابت في الهواء. شعرتُ بتشنج في حلقي. ذهبت إلى البحيرة ولاحظت وجود قطعة ورق سوداء تميل إلى اللون البرتقالي مجعدة ملقية على الرمال (كانت ليدا قد التقطت صوّرة لنا في هذا المكان). قمتُ بدورة حول البحيرة على الجانب الجنوبي منها، وتوجهتُ شرقاً عبر غابة الصنوبر الكثيفة. وخرجتُ بعد ساعة إلى الطريق العام. سرتُ على طوله ووصلت بعد ساعة إلى آيخينبرغ. ومن هناك ركبتُ قطار الضواحي. وقفلتُ عائداً إلى برلين.

نزهة. لقد قمت بهذه النزهة الرتيبة عدة مرات، ولم ألتق أبداً بشخص في الغابة. مكان موحش وسكون. لم يكن هناك مشترون لقطع الأرض بالقرب من البحيرة، وكان المشروع بأكمله في حالة تدهور. عندما ذهبنا نحن الثلاثة إلى هناك، كنا لوحدنا تماماً طوال اليوم، حتى أنه يتسنى للمرء السباحة عارياً، بالمناسبة، أتذكر كيف أن ليدا، ذات مرة، وبناء على طلبي، خلعت كل شيء، وضحكت بلطف شديد وخجل، وفجأة استاء أردااليون، لسبب ما، ـ ربما من انعدام موهبته ـ توقف عن الرسم، وذهب للبحث عن الفِطر الأبيض. واستمر في رسم صورة لي بعناد. واستمر بالرسم طوال شهر أغسطس/ آب. وإذ لم يكن بوسعه رسم الخطوط الحادة بالفحم العنود... ولسبب ما تحول إلى الباستيل المخاتل.... حددت لنفسي له موعداً محدداً للانتهاء من رسم البورتريه. وفي نهاية المطاف، فاحت من اللوحة رائحة طلاء حلوة، وتم تأطيرها، وأعطت ليدا أردااليون عشرين ماركا، وضعتها له في مظروف لإضفاء الاحتفالية على الحدث. بالمناسبة جاء ضيوف لن بينهم وكيل شركة التأمين أورلوفيوس، وقفنا جميعاً ورحنا نتفرس، في ماذا؟ في البورتريه الفظيع مع وجهي الوردي. لا أعرف لماذا أضفى على خَدّي ظلال فاكهة، اللتين في الواقع كانتا شاحبتين مثل الموت. وبشكل عام، لم يكن هناك أي شبه بي. على سبيل المثال، النقطة الحمراء الساطعة في زاوية الأنف من العين، أو لمعان الأسنان من أسفل شفة منفرجة معوجة. تم وضع كل هذا على خلفية زاهية، توحي إما بشكل هندسي أو بمشنقة. اقترب أورلوفيوس، الذي كان يعاني من قصر النظر إلى حد الغباء، من البورتريه، ورفع نظارته على جبهته (لماذا يلبسها؟ لقد كانت تعوقه وحسب)، تسمر أمام اللوحة وفمه نصف مفتوح، طفق يتنفس على البورتريه، كما لو كان استعد لأكله. وقال أخيراً باشمئزاز «أسلوب

حداثي»، وانتقل إلى صورة أخرى، وبدأ يتفحصها بضمير حي، رغم أنها طباعة عادية على حجر: جزيرة الموتى.

والآن عزيزي القارئ لنتخيل مبنى بلا سمات، فيه غرفة مكتبي الصغيرة في الطابق السادس. غادرت كاتبة الطابعة المكتب، وبقيت لوحدي. لاحت من خلال النافذة ـ سماء غائمة. وعلى الحائط تقويم برز منه رقم ضخم أسود «تسعة»، تشبه لسان الثور: التاسع من سبتمبر/ أيلول. وكانت على الطاولة أمور جديدة غير مريحة لي في شكل خطابات من الدائنين، وعلبة شوكولاتة فارغة رمزية مع سيدة بنفسجية خدعتني. ليس ثمة أحد في المكتب. الآلة الكاتبة مفتوحة. وقد خيم الصمت. وثمة عنوان على صفحة دفتر ملاحظاتي. بخط شخص نصف أمي. من خلاله أرى جبيناً شمعياً مائلاً، وأذنا قذرة، ووردة بنفسج تدلى رأسها من عروة قميص، وإصبع بظفر أسود يضغط على قلمي الفضي.

أتذكر أنني نفضت عني حالة الذهول، ووضعت الدفتر في جيبي، وأخرجت المفاتيح، وكنت على وشك أن أغلق كل شيء، وأغادر، كدت أغادر، لكنني توقفت في الممر بقلب ينبض بقوة... من المستحيل أن أغادر... عدتُ، وقفتُ عند النافذة، أنظر إلى المنزل المقابل. كانت المصابيح مضاءة هناك، تضيء خزائن المكتب، وسيد في بدلة سوداء، يقطع الغرفة إلى الأمام والخلف، وإحدى يديه خلف ظهره، على ما يبدو كان يملي نصا على كاتبة غير مرئية لي. ظهرَ ثم توارى، وحتى إنه توقف مرة عند النافذة، يفكر في شيء ما، ثم استدار مرة أخرى، يملي، ويملي، ويملي من دون هوادة! أشعلتُ الضوء وجلستُ وضغطتُ على صدغي. وفجأة ارتج الهاتف غاضبا، اتضح أن ليس لي: أخطأوا، خلطوا بين الأرقام. ثم ساد الصمت مرة أخرى، وترامى فقط صوت المطر الخفيف الذي عجّلَ بحلول الليل.

الفصل IV

عزيزي فيليكس، لقد وجدتُ لك فرصة عمل. ولكن بادئ ذي بدء، من الضروري مناقشة أحد الأمور وجهاً لوجه. سأكون بمهمة عمل في ساكسونيا، وأقترح أن تقابلني في تارنيسا، إنها ليس بعيدة عنك. وإذا وافقت من حيث المبدأ أجب على الفور. ثم سأحدد لكَ اليوم والساعة والمكان بالضبط، وسأرسل لك نفقات السفر. ونظراً لأنني دائماً على سفر وليس لدي شقة دائمة، اكتب الرد على اسم «أرداليون» «تُحفَظ في البريد» (وجاء بعد ذلك عنوان أحد مكاتب البريد في برلين). وداعا، أنتظر. (من دون توقيع).

ها هي أمامي، هذه الرسالة المؤرخة في ٩ سبتمبر/ أيلول ١٩٣٠، على ورق جيد سماوي مع رسم مائي لفرقاط، لكن الورقة الآن مجعدة، وعليها بصمات غير واضحة في الزوايا، ربما من أصابعه. يبدو أنني مستلم هذه الرسالة، ولستُ مرسلها، وفي النهاية يجب أن يكون الأمر كذلك: لقد غيرنا الأدوار...

لدي رسالتان إضافيتان على ورق من ذلك النوع، لكن تم إتلاف جميع الإجابات عليها. لو كانت لديّ، لو كانت لدي على سبيل المثال، تلك الرسالة السخيفة، التي أظهرتها لأورلوفيوس في عدم اكتراث مصطنع (وبعد ذلك صفيتها أيضاً)، لكان بوسعي الانتقال إلى شكل

الرواية الرسائلي. وهو شكل سرد روائي محترم، ذو تقاليد عريقة، وإنجازات روائية كبيرة في الماضي.

وعادة ما يُبنى هذا الشكل من السرد الروائي على تبادل رسائل مثلاً من «أكس» إلى «إيجريك»: وتبدأ الرسالة بـ «عزيزي إكس»، وحتما يُكتب تاريخها في الأعلى. ويستمر تبادل الرسائل بين شخصيتين أو أكثر، إنها مثل كرة تطير فوق الشبكة ذهاباً وإياباً. وسرعان ما يكف القارئ عن الالتفات إلى التاريخ، وفي الواقع، ما الذي يهمه سواء كانت الرسالة مكتوبة في التاسع من سبتمبر/ أيلول أو في السادس عشر، لكن هذه التواريخ ضرورية للحفاظ على استدامة إيهام القارئ، بأن الحدث واقعي. لذلك يواصل «إكس» الكتابة إلى «إيجريك»، و«إيجريك» إلى «إكس» في غضون صفحات كثيرة. وأحياناً يتدخل شخص آخر ليكن «زت»، ليقدم قسطه في المراسلة (دون النظر إليه، وإبقاءه مهمشا) ولكن فقط من اجل أن يوضح ويفسر للقارئ الحدث الذي ليس بوسع «إكس» ولا «إيجريك» توضيحه في الرسالة دون الحاق الضرر بواقعتيها، أو لسبب آخر. نعم، وهم لا يكتبون من دون النظر إلى الماضي، بعبارات مثل «هل تتذكر حينذاك، وهناك...» (يتبع ذلك ذكريات مفصلة) وتُقدم ليس من أجل إنعاش ذاكرة المرسل له، ولكن من أجل تزويد القارئ بمعلومات ضرورية، وعلى العموم تتكون صورة كوميدية تماماً، وأكرر لا سيما بسبب هذه التواريخ المضحكة غير الضرورية، الفائضة، المكتوبة بدقة، وحيث يشق «زت» طريقه فجأة في النهاية ليكتب إلى الشخصية التي يتراسل معها (ففي مثل هذ النمط الروائي يُسجل كل شيء على الإطلاق) عن وفاة «إكس» و«إيجريك»، أو عن اتحادهما السعيد، وحينها يشعر القارئ فجأة بأنه كان يفضل على كل هذا قراءة رسالة اعتيادية جداً من مفتش الضرائب. وبشكل عام، لقد كنتُ دائماً امتلك

سمة السخرية، التي ترتبط بها موهبة الخيال، وويل لذلك الخيال الذي لا تصاحبه السخرية.

رفقاً لا تتعجل أيها القارئ. لقد استنسخت الرسالة، بيد إنها اختفت في مكان ما. يمكنني الاستمرار، إنها انزلقت تحت الطاولة.

بعد أسبوع تلقيت ردّاً على رسالتي (ذهبت إلى مكتب البريد خمس مرات وكنت متوتراً للغاية). أبلغني فيليكس أنه يوافق على عرضي بامتنان. وكما يحدث غالباً مع أنصاف الأميين، فإن نغمة رسالته لم تتوافق على الإطلاق مع نغمة محادثته المعتادة: كان في صوته في الحياة اليومية طبقة «بآس» مغرور بنبرة تعليمية، وفي الرسالة كان «فالستو» مرتعش مع بحة متلونة الطبقات، كتبت له مرة أخرى، ووضعت في الرسالة عشر ماركات وحدّدت موعداً معه في الأول من أكتوبر/ تشرين الأول عند الساعة الخامسة مساءً عند تمثال فارس برونزي يقع في نهاية الجادة المتجه إلى يسار ساحة محطة السكك الحديد في تارنيسا. لم أتذكر اسم الفارس (دوق ما) ولا اسم الجادة، أعرفها لأني ذات مرة سافرت بالسيارة مع أحد معارفي من التجار عبر ساكسونيا، وعلقتُ في تارنيسا لساعتين، إذ احتاج رفيقي في السفر فجأة في منتصف الطريق التحدث على الهاتف مع مدينة درسدن. وعلى هذا النحو وبحكم امتلاكي ذاكرة فوتوغرافية، تذكرت الشارع والتمثال وتفاصيل أخرى. هذه صورة صغيرة، ولكن كنت أعرف طريقة لتكبيرها، وبوسعي قراءة حتى اللافتات، لأن جهازي ممتاز.

كتبتُ خطابا في السادس عشر من سبتمبر/ أيلول، بخط يدي في مكتب البريد، فبعد أن تلقيت إجابة على خطابي الذي أرسلته في التاسع منه، اضطربت للغاية، لدرجة لم أستطع تأجيله حتى أن تتاح لي فرصة كتابته على الآلة الطابعة. وليس ثمة أسباب تدعوني للخجل من خطوطي

(لدى العديد من الخطوط) وكنت أعرف أنني سأكون في النهاية المتلقي له. عندما أرسلته، شعرتُ بما لا بد من أن تشعر به ورقة نصف ميتة، ريثما تسقط ببطء على سطح الماء.

ذات مرة، عشية الأول من أكتوبر/ تشرين الأول، كنت أنا وزوجتي في صباح أحد الأيام، نمر من خلال متنزه تيرغارتين وتوقفنا على الجسر، متكئين على الدرابزين. عكس الماء الراكد أبهة نسيج أوراق الشجر البنية والحمراء، ولون السماء الأزرق الزجاجي، والخطوط العريضة الداكنة للدرابزين، ووجوهنا المنحنية. عندما سقطت ورقة، طار نحوها من أعماق المياه المظللة شبيه لها ليس بوسعها تجنبه. التقيا بصمت. سقطت ورقة واندفعت وهي تدور باتجاه انعكاسها الدقيق. لم أستطع أن أرفع عيني عن هذه اللقاءات الحتمية. قالت ليدا وتنهدت:

ـ لنذهب. الخريف، الخريف ـ وأضافت بعد لأي ـ الخريف. نعم، إنه الخريف.

كانت في معطف فرو يحاكي جلد النمر. تباطأتُ في السير خلفها، وثقبت في طريقي الأوراق المتساقطة بعصاي.

قالت:

ـ ما ألطف الأجواء في روسيا الآن (قالت ذات العبارة في أوائل الربيع، وفي أيام الشتاء الصافية، ولكن لم يؤثر الطقس الصيفي وحده بخيالها).

ـ «لكن هناك سلام وحرية، حلمت بنصيب سعيد، منذ زمن بعيد» كما قال بوشكين، أنا عبدٌ مرهق...

ـ لنذهب، أيها العبد المرهق. يجب أن نتناول الغداء اليوم في وقت باكر.

.... خططتُ للهروب. خططتُ. أنا. اهرب. ليدا، هل ستشعرين بالملل، من دون برلين، من دون بذاءات أردواليون؟

ـ لا يوجد شيء ممل. أنا أيضاً أرغب بشدة أن أذهب إلى مكان ما، حيث الشمس، والأمواج. من أجل الاستمتاع بالحياة بهدوء. لا أفهم لماذا تنتقده كثيراً.

ـ «حلمت بنصيب سعيد منذ زمن بعيد...» آه، أنا لا أنتقده. بالمناسبة، ماذا أفعل بهذا البورتريه المريع، لا يمكنني رؤيته. لفترة طويلة، عبد مرهق...

ـ انظر، جيرمان، فرسان. إن هذه العمة بينهم تعتقد أنها جميلة جداً. هيا بنا لنذهب. أنت لا تزال تتخلف في المشي، مثل طفل صغير. لا أعرف، أنا أحبه كثيراً. كنت أحلم بمنحه النقود حتى يتمكن من السفر إلى إيطاليا.

ـ حلم. «أحلم بنصيبي من السعادة». في عصرنا لا يحتاج فنان متوسط المستوى السفر إلى إيطاليا. كان الأمر على هذا النحو منذ زمن مديد. «منذ زمن بعيد احلم بنصيب سعيد...».

ـ أنت نعسان نوعاً ما، جيرمان. دعنا نذهب أسرع قليلاً، من فضلك.

سأكون صريحاً تماماً. لم أشعر بأي حاجة للراحة. لكن في الآونة الأخيرة، بدأت أنا وزوجتي، نتحدث عن الراحة حالما ما نجد أنفسنا بمفردنا، ووجهتُ الحديث بعناد غبي نحو «دار السلام والحرية». في هذه الأثناء، كنت أعد الأيام بفارغ الصبر. أجلتُ اللقاء مع فيليكس المحدد في الأول من أكتوبر/ تشرين الأول لأثوب إلى رشدي وأتراجع عن مخططي. يبدو لي الآن أنه لو غيرت رأيي، ولم أذهب إلى تارنيسا، لظل فيليكس إلى الآن يتجول حول تمثال الدوق البرونزي، ويجلس أحياناً على مسطبة، ويرسم بعصاه أقواس قزح ترابية من اليسار إلى

اليمين، ومن اليمين إلى اليسار، والتي يخططها كل من لديه عصا مشي وأوقات الفراغ، عادتنا الأبدية نحو استكمال الدائرة التي نحن محاصرون بها جميعاً. نعم، لجلس هكذا حتى اليوم، وسأتذكر كل شيء عنه، بشوق شديد وعاطفة تقضني مثل سن يؤلم وليس ثمة أداة لقلعه، أو امرأة لا يمكن امتلاكها، أو مكان ما لا يمكن الوصول له بسبب التضاريس المروعة.

في مساء الثلاثين، عشية رحلتي، صفف أرداليون أوراق القمار لقراءة الطالع، وتجولت أنا في غرف شقتنا، ونظرت في جميع المرايا. في ذلك الوقت كنت ما أزال على عِلاقة جيدة بالمرايا. في غضون أسبوعين أطلقت شاربي لتنمو، وغيّر هذا مظهري إلى الأسوأ: حيث على فمي الشاحب، نفش شعر خشن قصير أشقر داكن، ببقعة صلعاء قبيحة في المنتصف. وتملكني شعور بأن هذه الشعيرات كانت ملتصقة، وبدت لي أحياناً أنها حيوان صغير. وأن حيواناً صلباً كان جالساً على شفتي. وفي الليل، عندما كنت شبه نائم، تفقدت وجهي، ولم تتعرف عليه كفي. أعني، تجولتُ في الغرف، دخنت، ونظر إليّ من جميع المرايا، شخص كما لو وضع المكياج على وجهه في عجلة، بعيون خائفة وجادة. وكان أرداليون في قميص أزرق مع ربطة عنق أسكتلندية، صفق ورق شدة القمار، كما لو كان في حانة. وجلست ليدا إلى جانب المنضدة، ساقاها متقاطعتان، وارتفعت تنورتها حتى ركبتاها، وأطلقتْ دخان السجائر لأعلى، ودفعت شْفتها السفلية بقوة ولم ترفع عينيها عن الورق الموضوع على الطاولة. كانت ليلة حالكة الظلام عاصفة، وفي كل بضع ثوان يمر بشكل خاطف شعاع برج الراديو الباهت فوق الأسطح، كما لو للكشاف ضوئي الهادئ المجنون اختلاج ضوئي. وترامى من إحدى النوافذ في الفناء، عبر نافذة الحمام الضيقة المفتوحة، صوت مُدَّرَب بصورة جيدة من جهاز راديو. وفي غرفة الطعام سلط المصباح

ضوءه على صورتي الفظيعة. كان أردالیون في قميصه الأزرق يصفق البطاقات، وكانت ليدا تتكئ على الطاولة، ومنفضة السجائر ترسل الدخان. خرجتُ إلى الشرفة. جاء صوت ليدا من غرفة الطعام:

ـ أغلق الباب، الريح تهب.

ومضت نجوم الخريف واختفت من شدة الريح. عدتُ إلى الغرفة.

ومن غير المعروف يخاطب مَن، سأل أردالیون

ـ إلى أين يذهب رجلنا الوسيم.

أجابت ليدا:

ـ إلى دريسدن.

كانا يلعبان لعبة «الحمقى» الآن.

قال أردالیون:

ـ بلغ تحياتي للوحة سيستين مادونا ـ لرافائيل سانتي في متحف درسدن. لا أعتقد أنني أستطيع تغطية هذا. هذا، على ما يبدو... هكذا، ومن ثم على هذا النحو، لكني قبلت هذا.

قالت ليدا:

ـ من الأفضل له أن يذهب إلى الفراش، إنه متعب. اسمع، ليس لديك الحق في إلقاء نظرة خاطفة على شدة ورق اللعب المتبقية، هذا غير نزيه.

فأوضح أردالیون لها:

ـ أنا نظرت تلقائيا. لا تغضبي يا عزيزتي. وهل سيسافر لفترة طويلة؟

ـ وهذا أيضاً، يا أردالیون، هذا أيضاً، من فضلك لا تغطيه.

استمرا على هذا النحو لفترة طويلة، تحدثا أولاً عن الورق، ثم عني، كما لو لم أكن في الغرفة، كما لو كنت ظلاً أو كائناً أخرساً ـ

وعادتهما المضحكة هذه، التي لم أبالِ بها سابقاً، بدت لي الآن مفعمة بالمغزى، كما لو أنني حاضر فقط كانعكاس، أما جسدي فبعيد.

في اليوم التالي، حوالي الرابعة، ترجلت من عربة القطار إلى تارنيتسا. كانت معي حقيبة صغيرة، أعاقت حريتي في الحركة، أنا أنتمي إلى نمط الرجال الذين يكرهون حمل أي شيء في أيديهم: أرتدي قفازات جلدية باهظة الثمن، وأحب أن تتأرجح ذراعاي بحرية في المشي وأنفش بأصابعي حتى تنتشر، هذا هو أسلوبي في الطريق، وأنا أمشي بشكل جيد، وساقي ترمي بقدمي بعيداً عن بعضهما البعض. قدمي صغيرة الحجم بالنسبة لطولي، في حذاء نظيف تماماً ولامع، وبجوارب تغطية الساقيين بلون رمادي، إن جوارب تغطية الساقين على غرار القفازات، تضفي على الرجل أناقة عالية الجودة، وببصمات خاصة، كما تفضي عليه إكسسوارات سفر ذات نوعية عالية، أحب المتاجر التي تُباع فيها الحقائب الجلدية، وخشخشتها ورائحتها، وعذرية جلد الخنزير تحت الغطاء. لكني خرجت عن الموضوع، ربما أريد أن أخرج عن الموضوع، ومع ذلك امضي في الحديث قدما، إذن قررت أن أترك حقيبة السفر في الفندق أولاً: في أي فندق؟ عبرت، عبرت الساحة، نظرت حولي، ليس فقط بهدف العثور على فندق، ولكن أيضاً أحاول أن أتعرف على الساحة، فبعد كل شيء، كنت قد مررت من هنا، ها هو، الشارع ومكتب البريد...وقبل أن ذاكرتي الوقت اللازم للتمرن، ظهرتْ أمام عيني لافتة الفندق. كانت شجرتان كبيرتان في أحواض على كل جانب من بابه، ظهر أن هذا الوعد بالرفاهية خادعاً، فرائحة المطبخ الكريهة تذهل على الفور كل من يدخل الصالة، كان رجلان بشوارب ثخينة، من عامة الناس يحتسيان الجعة عند منصة البوفيه، وخادم عجوز، يجلس القرفصاء ويهز نهاية منديل مضغوط تحت ذراعه لجرو مُكْرِش راح يهز ذيله أَيضا. طلبت غُرفة، وحذرت ربما أن أخي قد

يقضي الليل معي، قادوني إلى غرفة واسعة إلى حد ما، بسريرين، مع دورق مليء بالماء الميت على مائدة مستديرة، كما هو الحال في الصيدلية. ذهب الخادم، وبقيت لوحدي في الغرفة، وشعرت بطنين في إذني، وانتابتني دهشة غريبة. من المحتمل أن يكون شبيهي موجوداً في نفس المدينة التي أقيم فيها، وربما مثلي ينتظر. وأنا هنا مُمَثلْ في شخصين. ولو لم يكن شاربي، والاختلاف معه في الملابس، فإن موظفي الفندق... أو ربما (واصلت التفكير، متنقلاً من فكرة إلى أخرى) قد تغير ولم يعد يشبهني، وقد أتيت إلى هنا عبثا. قلتُ بقوة: «لا سامح الرب»، وبنفسي لم أفهم لماذا قلت ذلك، فإن المعنى الكامل لحياتي الآن انحصر في أن لي انعكاساً حيّاً، فلماذا أذكر اسم الرب، لماذا؟ ولماذا اشتعل في داخلي أمل أحمق في أن انعكاسي قد تشوه؟

اقتربتُ من النافذة، كان هناك فناء مسدود، ووقف هناك رجل تتري محدودب الظهر في طاقية، يعرض بساطاً على أمراه حافية القدمين، عرفتُ المرأة، وعرفتُ التتري أيضاً والارقيطيون الذي نمى في إحدى زوايا الفناء، وحفرة الغبار وهبوب الريح الناعم، والسماء الشاحبة الرمادية. في هذه اللحظة طرق أحدهم الباب، دخلت عاملة الفندق تحمل أغطية سرير النوم. ولما نظرتُ مرة أخرى من النافذة لم يكن التتري هناك، بل وقف مكانه صعلوك محلي يبيع الحمالات، وعلى العموم ليس ثمة امرأة، ولكن وفيما أنا أواصل النظر راحت كل هذه الصور تتوحد وتصطف وتؤلف شريطاً من الذكريات: تنامت هذه الذكريات واتضحت، وظهر فيها نبات الارقيطون متراصا مثلما في زاوية الفناء، والمرأة التي لمست البساط هي خريستينا فروسمان الشقراء، وتطايرت الرمال أيضا: ولم أستطع أن فهم ما النواة التي ألتفت كل هذه والأشكال حولها، وما كان بالضبط الباعث الذي جعلها تتمخض الآن. وبغتة نظرتُ إلى الدورق مع الماء الميت فقال لي «لقد اقتربتَ من إيجاد

الباعث لتلك الذكريات» وكان هذا على غرار لعبة الأطفال الروس «ساخن وبارد» حيث يتم إخفاء شيء ما، ويروح اللاعب الرئيس في البحث عنه في أرجاء الغرفة، ورحت انقب عنه، وربما أني وجدتُ في نهاية المطاف ذلك الشيء البسيط المخفي أي الباعث، وأكون قد لاحظته ولم أعيه، وقمت على الفور بتشغيل آلة الذاكرة، وربما لم أستطع إيجاده، بيد أن كل ما احتوته غرفة فندق ألماني محلي والمنظر من النافذة كان الباعث في إيقاظ ذكرياتي ورسم تلك الصور، إذ إنه كان شبيه لحد ما وبصورة غامضة وقبيحة، بما قد شاهدته في روسيا منذ زمن قديم. ومع ذلك، تذكرت فجأة أن الوقت قد حان للذهاب إلى اللقاء، فسحبت قفازاتي، وغادرت على عجل.

استدرت إلى المتنزه العام، ومررت بمكتب البريد. هبت الريح فتطايرت الأوراق على طول الشارع. وعلى الرغم من نفاد صبري، وبقوة ملاحظتي المألوفة، لاحظت وجوه المارة، وعربات الترام التي بدت لي على صغرها كأنها حافلات ألعاب بعد برلين، والمحالّ التجارية، وأسطوانة عملاقة مرسومة على جدار مقشر، ولافتات، واسم فوق المخبز، «سبش كارل»، الذي ذكرني بشخص اسمه سبش كارل، عرفته في إحدى قرى حوض الفولجا، وباع أيضاً أرغفة الخبز. وأخيرا، في أعماق الجادة، نهض حصان من البرونز منتصباً، مستنداً على ذيله مثل طير نقار الخشب، ولو مد الدوق يده بقوة أكبر، لأصبح في ضوء المساء الخافت، شبيه بالنصب التذكاري لفارس بطرسبورغ: بطرس العظيم. جلس رجل عجوزاً على أحد المقاعد وهو يتناول عنبا من كيس ورقي، وعلى المقعد الآخر استقرت عجوزتان، وامرأة مسنة ضخمة الحجم تتكئ على كرسي متحرك للمقعدين وتستمع إلى حديثهن، وتنظر إليهن بعين مدورة. تجولتُ حول النصب مرتين، ثلاث، لاحظت في أسفله ثعبانا سحقه حافر الفرس، ونقش لاتيني، وحذاء عسكري طويل

بنجمة سوداء. وفي الواقع لم يكن هناك ثعبان، لقد خُيلَ لي. ثم جلستُ على مقعد فارغ. لم يكن هناك سوى نصف دزينة من هذه المقاعد. ونظرت إلى ساعتي. كانت تشير إلى الخامسة وثلاث دقائق. نطت العصافير على العشب. وتوردت في جنينة زهور منحنية مغالى في زخرفتها، نجمة الزهر، أكثر الورود شناعة في العالم. مرت عشر دقائق. لم يعد بوسعي الانتظار أكثر جالساً وأنا في مثل هذا الاضطراب والقلق، فضلاً عن ذلك نفذت سجائري، رغبتُ في التدخين لدرجة الجنون. استدرتُ من المتنزه العام إلى شارع جانبي بمحاذاة كنيسة كالحة اللون كما لو أنها أثر قديم، عثرت على متجر للتبغ، ودلفتُ، استمر الجرس الأوتوماتيكي على الباب في الرنين، لم أغلق الباب، فتوجهت المرأة ذات النظارات،

ـ من فضلك،

عدتُ للوراء، وغلقت الباب.

وكانت خلفها لوحة طبيعة صامتة بريشة أردواليون: أنبوب على قطعة قماش خضراء، وزهرتين.

ـ كيف حصلتهم على هذه...؟

سألت ضاحكاً. ولم تفهم المرأة قصدي على الفور، لكنها عندما فهمت، أجابت:

ـ إن ابنة أخي رسمتها. لقد ماتت مؤخرا.

أمر غريب فكرتُ في ذاتي، رأيت لديه شيئاً مشابهاً جداً، إن لم تكن هي نفسها تماماً، يا لها من لعبة...

قلت بصوت عال،

ـ طيب، طيب. أعطني... ـ سميت نوع السجائر التي أدخنها، ودفعت الثمن وغادرت المتجر.

الساعة الخامسة وعشرون دقيقة.

لا أشعر فيه بأي شيء، لا بكدر ولا باطمئنان أو براحة، مشيت على طول الشارع لفترة طويلة، مبتعداً عن النصب التذكاري، وتوقف من وقت لآخر محاولا إشعال سيجارة، فحالت الريح دون ذلك، وأخيراً لبدتُ في مدخل أحد المباني، فاحتلتُ على الريح، يا له من تلاعب بالكلمات! ورحت وأنا واقف في المدخل، أراقب فتاتين تلعبان بالقرب مني، يتناوبن إلقاء كرة زجاجية بداخلها شرارة قزحية اللون مرة، ومرة وهن جالسات القرفصاء يحركن الكرة بأصابعهن، أو يضغطن عليها بين قدميهما ويقفزن، لكي تدخل الكرة في حفرة مضغوطة في الأرض تحت شجرة بتولا ذات جذع متشعب. وإذ كنت أنظر إلى هذه اللعبة المركزة والصامتة والمضنية، وفكرتُ لسبب ما بأن فيليكس لم يستطع المجيء لسبب بسيط هو إنني اختلقته بنفسي، خلقته مخيلتي المتعطشة للانعكاس والتكرار والأقنعة، وأن وجودي هنا، في هذه المدينة النائية، لا يعدو غير غباء، بل فضاعه.

أتذكر الآن، هذه المدينة، في حيرة غريبة: هل يجب أن أعطيكم المزيد من الأمثلة عن تلك التفاصيل التي تجاوبت بصورة كريهة جداً مع التفاصيل التي رأيتها في مكان ما، وفي زمن ما؟ حتى خُيل لي أنها شُيدت من نفايات ماضيي، لأنني وجدت فيها أشياء مهمة وبشكل لا يفسر قريبة جداً مني: منزل أزرق ضارب للشحوب صغير وواطئ، هو توأم المنزل الذي رأيته على نهر «أوختا» في بطرسبورغ، ومتجر خردة هو نفس المتجر الذي عُلقت فيه أزياء الموتى الذين كنت أعرفهم، ونفس عمود المصباح (دائماً أرصد أرقام أعمدة المصابيح)، نفس المصباح الذي كان قائما أمام المنزل الذي عشت فيه بموسكو، وبالقرب منه نفس شجرة البتولا الجرداء ذات الجذع المتشعب. وبميسوري إعطاء العديد من الأمثلة الأخرى، بعضها دقيق للغاية، لذا أود أن أقول إنها

أمثلة تجريدية وشخصية، لا يمكن أن يفهمها القارئ الذي أعتني به مثل اعتناء مربية بتلميذها. بالإضافة إلى ذلك، لست متأكداً تماماً من أن هذه الظواهر حصرية أو استثنائية. إن أي شخص موهوب ذي بصيرة حادة يعرف ظاهرة إعادة مشاهد من ماضيه في مخيلته، ولا يعرف الباعث لها، وامتزاج التفاصيل التي تبدو بريئة، ولكنها تشي برائحة مقرفة لنص منتحل. لنتركها لضمير قدرها ونعود بفارغ الصبر بشوق وتردد إلى النصب التذكاري في نهاية الجادة.

انتهى الرجل العجوز من تناول العنب وبارح المنتزه، ودحرجوا عربة المقعدين التي جلست فيها المرأة التي تموت من الاستسقاء. لم يكن هناك أحد، باستثناء شخص كان جالساً على المَقْعَد حيث كنت جالساً قبل قليل، يميل بعض الشيء إلى الأمام، يفرد ركبتيه، ويطعم العصافير بالفتات. بدأت عصاه، التي كانت تتكئ على مقعد المصطبة، في أثناء ملاحظتي لها تتحرك ببطء، وانزلقت، وسقطت على الحصى. رفرفت العصافير، وكونت قوسا، واستقرت على الشجيرات المحيطة. وشعرت أن الرجل استدار إليّ...

نعم أيها القارئ لم تخطئ

الفصل V

وفيما أنا أنظر إلى الأرض صافحت يده اليمنى يدي اليسرى، وفي نفس الوقت التقطتُ عصاه التي سقطت، وجلست بجانبه على المقعد.

قلت دون إن أنظر إليه:

ـ لقد تأخرت عن الموعد.

فضحك. وإذ واصلت عدم النظر إليه، قمت بفك أزار معطفي، وخلعت قبعتي، ومسحت رأسي بيدي، لسبب ما شعرت بالحر.

قال بنبرة مخاتلة غبية:

ـ لقد تعرفت عليك على الفور.

والآن نظرت إلى عصاه التي كانت في يدي: كانت عصا سميكة، مدبوغة، صُنعت من شجر الزيزفون، مثقوبة على هيئة عين في إحدى الجوانب، وكتب عليها اسم صاحبها بعناية كيا بالنار ـ فيليكس كذا وكذا ـ وتحت الاسم ـ العام واسم القرية. وضعتها على الأرض، وأنا أفكر للحظة أنه محتال جاء سيراً على الأقدام.

في النهاية اتخذت قراري، فالتفتُ إليه. بيد أني لم أنظر إلى وجهه دفعة واحدة. بدأت من القدمين، كما يحدث في السينما، عندما يتفنن المصور. أولاً: الأحذية المتربة، والجوارب السميكة، وغير الملائمة، ثم سروال أزرق لامع (ثم كانت قطيفة ـ ربما تكون متعفنة) ويد تحمل

خبزاً جافاً. ثم سترة زرقاء وتحتها صدرية بلون غريب، محبوكة. ما زالت في الأعلى الياقة التي اعرفها، وكانت الآن نظيفة نِسْبِيّاً. توقفت هنا. اتركهُ بلا رأس أم استمرُ في بنائه؟ نظرتُ بلمحة بصر إلى وجهه.

للحظة، اعتقدت أن كل شيء كان خدعة، وهلوسة، وأنه ليس شبيهي، هذا الأحمق الذي رفع حاجبيه، وابتسم ابتسامة عريضة، دون أن يعرف تماماً ما هو التعبير الذي يجب أن تتخذه ملامحه، لهذا، وعلى كل حال من الأحوال، رفع حاجبيه. وللحظة بدا إنه شبيهي كما كان شبيهاً في اللقاء الأول. ولكن صرف انتباهه أحد العصافير التي عادت وهدأت، إذ قفز قريباً جداً منا. وعادت ملامحه إلى مكانها، ورأيت مرة أخرى الأعجوبة التي ظهرت لي قبل خمسة أشهر.

ألقى حفنة من الفتات إلى العصافير. نقر أحدها بشكل محموم، وقفزت اِلْفُتَات والتقطها الآخر وطار بعيداً. استدار فيليكس إليّ مرة أخرى، وقد ارتسم على وجهه تعبير الانتظار، والاستعداد.

قلت، وأنا أشير بإصبعي إلى العصفور، الذي وقف جانبا، يرفرف بمنقاره بلا حول ولا قوة:

ـ لقد ذهبت إلى الآخر...

قال فيليكس

ـ إنه فتي، انظر، لا يوجد له ذيل تقريباً حتى الآن ـ أضاف وقد أمال رأسه بحلاوة مفرطة ـ أنا أحب الطيور.

وبادرتهُ، وتنحنحت عدة مرات متتالية لتنظيف حلقي، فقد كان صوتي أَجَشّ.

ـ هل شاركت في الحرب؟

أجاب:

ـ نعم، ولكن لماذا؟

ـ لا شيء.

ـ حقاً كنت خَائِفاً للغاية من أن يقتلوني.

ثم غمز، واستطرد بغموض:

ـ لكل فأر منزل خاص به، ولكن لا يخرج كل فأر من هناك.

لقد لاحظت أنه يحب النكات المبتذلة، ويرويها بكلام مقفى، ولا يستحق الأمر أن يقدح المرء زناد عقله لإدراك الفكرة التي يريد في الواقع التعبير عنها.

التفتَ عرضا إلى العصافير، واستطرد:

ـ لقد طارت جميعها، أحب السناجب أيضاً ـ غمز مرة أخرى ـ من المستحسن أن تكون الكثير من السناجب في الغابة. أنا أحبها لأنها ضد ملاك الأراضي. وَالْخِلْدَانِ أيضاً.

وسألته بلطف:

ـ والعصافير كيف؟ هل هي ضد ملاك الأراضي؟

وكرر مرة أخرى:

ـ العصفور بين الطيور فقير جداً، الأكثر فقراً بين الطيور، مُعدم.

يبدو أنه عد نفسه رجلاً حصيفا، وفطنا، وسريع البديهة للغاية. ومع ذلك فهو لم يكن أحمق وحسب، بل كان أَحْمَق سوداويا. فترت شفتاه عن ابتسامة مملة، تثير الشعور بالقرف. ومع ذلك نظرتُ له بتعطش، وقد شغلني جداً كيف أن حركات جسمه غير الطبيعية أخلَتْ بتشابهنا المدهش. فكرتُ، لو عاش حتى سن الشيخوخة، فسيختفي التشابه بيننا تماماً، وهو الآن تشابه في أوج عنفوانه. فرددت ساخراً منه:

ـ أنت، كما أرى، فيلسوفا.

بدا لي أنه شعر قليلاً بالإهانة، فاعترض بقناعة عميقة:

ـ الفلسفة من اختراع الأغنياء، وبشكل عام، كل هذا خيال فارغ: الدين، والشعر...ولا اصدق في الحب، حين يولول العاشق: آه، يا فتاة، كيف أعاني، يا قلبي المسكين... الصداقة مسألة أخرى. الصداقة والموسيقى.

التفت إليّ فجأة وقال بلهفة وحماس:

ـ أتعرف ماذا، أود أن يكون لدي صديق، صديق مخلص، يكون دائماً على استعداد لمشاركة قطعة الخبز معي، وسيترك لي بعض الأرض، ومنزلا صغيرا. نعم، أود صديقاً حقيقياً، أعمل لديه كبستاني، ثم تصبح حديقته ملكاً لي، وسأتذكره دائماً بعد وفاته بدموع الامتنان. وأيضاً أعزف على الكمان معه، أو على الناي، أنا أعزف على المندولين. وأما ما يتعلق بالنساء... طيب، قل لي، هل هناك زوجة لم تخن؟

ـ كل هذا صحيح جداً. صحيح جداً. من الممتع التحدث معك. هل درست في المدرسة؟

ـ ليس لوقت طويل. ما الذي بوسع المرء أن يتعلمه في المدرسة؟ لا شيء. إذا كان الشخص ذكياً، فماذا ستعلمه المدرسة؟ الشيء الرئيس هو الطبيعة. والسياسة، على سبيل المثال، لا تهمني. وعلى العموم وكما تعرف إن العالم دنيء.

قلت:

ـ الاستنتاج صحيح لا غبار عليه، بلى لا غبار عليه. ببساطة دُهِشتْ. اسمع أنتَ أيها الذكي أعطني فوراً قلمي.

بهذا حاصرته تماماً، وجعلته في الحالة المزاجية التي أحتاجها.

تمتم في حيرة:

ـ لقد نسيته على العشب. لم أعرف هل سأراك مرة أخرى...

فصرختُ به:

ـ سرقته، وبعته، حتى وسخته.

كانت إجابته رائعة: في البداية هز رأسه، مما يعني «لم أسرق»، وحالا أومأ برأسه، بمعنى «قد بعته». يبدو لي جُمعت فيه باقة كاملة من الغباء البشري.

قلت:

ـ ليأخذك الشيطان، كن مُحترساً أكثر في المرة القادمة. طيب. خذ سيجارة.

تراخى، وتهلل وجهه، عندما رأى إنني لست غاضبا، وأنشأ يشكرني:

ـ شكراً، شكراً... في الواقع، كم نحن متشابهين، كم نحن متشابهين... تظن أن والدي قد ارتكب الفاحشة مع والدتك!

وضحك متملقاً، ومبسوطاً جداً بنكاته.

باغته بالقول، متظاهراً بأنني في غاية الجد:

ـ إلى صلب الموضوع، لم أدعُك إلى هنا حديث مُجرَّد مهما كان ممتعا. لقد كتبت لك عن المساعدة التي استعد أن أقدمها لك، بصدد العمل الذي وجدته لك. ولكن أولاً وقبل كل شيء، أود أن أطرح عليك سؤالاً. أجب عليه بدقة وصدق. من أنا برأيك؟

تطلع فيليكس بي، واستدار وهز كتفه.

ـ أنا لم القِ احجيه ـ واصلت بصبر ـ أفهم جيداً لا يمكنك معرفة من أكون أنا في الواقع. وعلى كل حال دعنا نضع جانبا إمكانية ما ذكرته بحدة. إن دماءنا يا فيليكس، مختلفة، مختلفة يا عزيزي. لقد ولدتُ على

بعد ألف ميل من مهدك، وشرف والديّ، كما آمل وشرف والديّك لا تشوبه شائبة. أنت الابن الوحيد لوالديك وأنا كذلك. لذلك لا يمكن أن يوجد أخ غامض لي ولا لك، الذي، كما يقولون، عندما كان طفلا قد سرقه الغجر. نحن لسنا ملزمين بأي روابط، وليس لدي أي التزامات تجاهك، عليك تذكر هذا وإلى الأبد، لا توجد التزامات، كلما سأفعله من أجلك سأفعله بمحض إرادتي. تَذَكَرْ كل هذا من فضلك. الآن أسألك مرة أخرى، من أكون، برأيك، ما أبدو لك فلابد أن تكون قد بلورت رأيا عني، أليس كذلك؟

قال فيليكس غير واثق:

ـ قد تكون ممثلاً.

ـ إذا كنت أفهمك بشكل صحيح، يا صديقي، فهذا يعني أنك في لقائنا الأول فكرت في شيء مثل هذا: نعم، ربما يمثل في المسرح، إنه رجل ذو طبع ثقيل، وغريب الأطوار ومتأنق، ربما من المشاهير. وماذا بعد؟

تطلع فيليكس في حذائه الذي كان يصطدم بالحصى، واتخذ وجهه تعبيراً متوتراً إلى حد ما.

وقال متعكراً:

ـ لم أفكر في أي شيء. أرى فقط أنك سيد تبدي الاهتمام بي، وهكذا. هل تتقاضون رواتب جيدة، يا معشر الممثلون؟

ملاحظة: الفكرة التي قدمها لي بدت مرنة وقررتُ استعمالها. لقد تلامست مع خطتي الرئيسية في منعطف مثير للفضول.

صرخت:

ـ لقد خمنت، لقد خمنت. نعم أنا ممثل. بتعبير أدق، ممثل سينمائي.

نعم هذا صحيح. قلت بروعة. طيب. وما يمكنك أن تقول عني بعد ذلك؟

عندها لاحظت أن مسحة كآبة رانت على وجهه. لابد إن مهنتي خيبت آماله. جلس عابساً ممسكاً بعقب سيجارة بين إبهامه والسبابة. وبغتة رفع رأسه، وضيق عينيه... وسأل من دون تملقه الرقيق السابق:

ـ ما الوظيفة التي تريد أن تعرضها عليّ؟

ـ مَهلا، مَهلا. كل شيء سيأتي في الوقت المناسب. سألتك: ما رأيك بي. طيب، أجب على سؤالي من فضلك.

ـ كيف أعرف؟ تحب السفر والتجوال، هذا ما أعرفه ولا أعرف أي شيء آخر.

في هذه الأثناء تأخر الوقت، اختفت العصافير منذ مدة طويلة، وكان الفارس قد أصبح غامقاً ونما بطريقة ما. ومن خلف شجرة طلع القمر مكفهر بلا ضوضاء، قاتماً، رصيناً. وغطته سحابة، والقت عليه وهي في طريقها قناعا، وبقي فقط ذقنه مرئيا بالكامل.

ـ انظر، فيليكس، المكان هنا مظلم وغير مريح. ربما أنت جائع. دعنا نذهب لتناول الطعام في مكان ما، ونواصل حديثنا على كأس من البيرة. تمام؟

أجاب بشيء من الحماس:

ـ حسن ـ وأضاف متأملا ـ يمكن القول للمعدة الفارغة وحدها (أترجم حرفياً، كل ذلك جاء باللغة الألمانية في كلام مقفى).

نهضنا وسرنا باتجاه أنوار المنتزه الصفراء. وفي ظل الظلام الدامس لم أشعر تقريباً بتشابهنا. سار فيليكس بجانبي، كما لو أنه استغرق في تأمل ما، كانت مشيته بليدة مثلما كان هو.

سألته:

ـ ألم تأتِ سابقاً إلى تارنيتسا؟

أجاب:

ـ كلا، أنا لا أحب المدن. أشعر بالملل في المدينة.

لاحت لافتة حانة. ثمة بِرميل في النافذة وعلى الجانبين صورة لقزمين ملتحيين. طيب، ليكن هنا. دلفنا وشغلنا طاولة في الخلف. خلعت القفاز من يدي الممدودة، وألقيتُ نظرة فاحصة على الحاضرين. لم يكن هناك سوى ثلاثة زبائن، لكنهم لم يعيروا الاهتمام بنا.

جاء النادل وهو رجل صغير شاحب يرتدي نظارة بينس نيز، هذه ليست المرة الأولى التي أرى فيها نادلا في نظارة بينس نيز لكنني لم أستطع أن أتذكر أين صادفت شبيه النادل من قبل، وبينما كان ينتظر منا الطلب، رمقني ثم رمق فيليكس، لم يلفت تشابهنا نظره بالطبع، بسبب شاربي. وفي الواقع إني أطلقته حتى لا يلفت ظهوري مع فيليكس النظر. في مكان لدى باسكال عبارة ذكية مفادها أن شخصين متشابهان مع بعضهما البعض لا يثيران الاهتمام عندما يكونان منفصلين، ولكن ظهورهما معاً لفترة قصيرة يكون حدثا مثيرا. أنا لم أقرأ باسكال بنفسي، ولا أتذكر من أين انتحلت هذه العبارة ونسبتها إلى باسكال. عندما كنت صغيراً كنت مولعاً بهذه الأشياء. بيد أن المشكلة تنحصر في أنني لست الوحيد الذي تباهي بفكرة منتحلة. ذات مرة قمت بزيارة إلى سان بطرسبرج، وكنت قي ضيافة إحدى العوائل وقلت: «هناك مشاعر، كما قال تورغينيف، لا يمكن التعبير عنها إلا بالموسيقى». وعقب بضع دقائق ظهر ضيف آخر، وفي أثناء الحديث، ردد ذات العبارة ونسبها لأديب آخر. بالطبع لست أنا، بل هو أصبح في موقف مضحك، وجعلتني نظرات الآخرين اشعر بالحرج، وقررت ألا أهزأ بعد الآن. كل هذا

انسحاب عن الموضوع، انسحاب بالمعنى الأدبي بالطبع وليس بأي حال من الأحوال في المعنى العسكري. أنا لست خائفاً من أي شيء، سأروي لكم كل شيء. يجب أن أعترف: بأنني لم أسيطر على نفسي بصورة كاملة وحسب، بل سيطرتُ على الأسلوب أيضاً. كتبت عدداً من الروايات في شبابي، كتبتها عندما توفرت الفرص، وبدون أدنى نية لنشرها. مقولة أخرى: المخطوطة المنشورة، كما قال سويفت، تصبح مثل المرأة العامة. ذات مرة، بينما كنت في روسيا، أعطيت ليدا نصّاً صغيراً لتقرأه، مخطوطة، قائلاً لها أن أحد الأصدقاء ألفه، فوجدته ليدا أنه ممل، ولم تقرأه إلى النهاية، ولحد الآن لا تعرف أن لدي خمسة وعشرون خطاً، أفضلها، أي تلك التي أستخدمها عن طيب خاطر، هي التالية: دائري ـ بحروف غليظة مريحة فاخرة، كل كلمة كما لو قطعة حلوى، ثم، مائل، مدبب، حتى ليس خط عادي، بل خط يتسم باللطافة، ناعم، نزق، مع تقليصات وبدون الحرف القاس في الأبجدية، وأخيراً، الخط الذي أقدره بوجه خاص: كبير وواضح ومتين وعديم الشخصية تماماً، كما لو كتبته يدا تجريدية في كُم تخطيطي، اليد التي يجري عادة تصوريها في كتب الفيزياء المدرسية، وعلى أعمدة إشارات المرور. وقد شرعت بكتابة القصة المطروحة على القارئ في هذا الخط، ولكن سرعان ما تشوش عليّ الأمر، وكُتبت هذه القصة بجميع خطوط اليد الخمسة والعشرين، بالتناوب، لذا فان عامل تنضيد الحروف في المطبعة، أو الفتاة الطبّاعة التي لا اعرفها، أو في نهاية المطاف الشخص الذي اختاره بنفسي لتقويم الرواية، ذلك الكاتب الروسي، الذي سأسلمه مخطوطتي عندما يحين الوقت. لهذا قد يعتقدون أن عدة أشخاص شاركوا في كتابة قصتي، ومن الممكن أيضاً أن يرى خبير شبيهً بفأر، ذي وجه ماكر، في هذا الخط الرديء الفخم، على انه مؤشر على الشذوذ. كلما كان هذا أفض لي.

لذلك ذكرتك، يا من ستكون أول قارئ لي، يا كاتب الروايات النفسية الشهير ـ لقد تصفحتها ـ إن أسلوبها متكلف للغاية فيه الكثير من الصنعة، لكنها مصممة بشكل جيد. بماذا ستشعر، أيها الكاتب ـ القارئ، عندما تشرع بقراءة هذه المخطوطة؟ بالبهجة؟ بالحسد؟ أو حتى ـ من يدري؟ ـ ستستخدم غيابي، الذي سيكون إلى أجل غير مسمى، وتزعم أن روايتي من تألفيك، كثمرة من ثمر مهارتك، التي لا أشك فيها، وخبرتك وخيالك، وسأبقى أنا من دون شيء؟ ولن يكون من الصعب عليّ اتخاذ إجراءات مسبقة ضد مثل هذه السرقة الوقحة. سأتخذها أم لا هذا سؤال آخر.. ربما إن سرقتك للعمل ستسرني. السرقة أفضل مديح يمكن القيام به للعمل. وهل تعرف ما هو الشيء الذي يشغلني أكثر؟ هو إنك لو تقرر القيام بالسرقة الممتعة لي، فأنك ستزيل تلك السطور التي تسئ لمكانتك وتعرضك للهوان. نعم وفضلاً عن ذلك ستعيد كتابة بعض الأشياء على طريقتك الخاصة (هذا بالفعل أقل متعة)، مثل لص، يعيد صبغ سيارة سرقها بلون مختلف. وفي هذه المناسبة، دعني أحكي لك قصة قصيرة، أطرف قصة عرفتها على الإطلاق:

قبل أسبوع ونصف، أي حوالي ١٠ مارس/ آذار ١٩٣١، عثر شخص (أو أشخاص) سائر (أو سائرون) على طول الطريق العام، أو عبر الغابة (على الأرجح ـ يجري التحقيق في المسألة)، في حافة الغابة على سيارة زرقاء صغيرة من علامة تجارية كهذه وكذا وكذا (لقد أغفلت التفاصيل الفنية). وسرقوها. هذا في الواقع، كل شيء.

أنا لا أزعم أن هذه النكتة ستكون مضحكة لكل شخص: فجوهرها غير واضح، ولكنه جعلني أضحك لحد تدفق الدموع فقط لأنني أعرف مكنونها وخلفيتها. وأضيف أنني لم أسمعها من أي شخص، ولم أقرأها في أي مكان، لكنني استنتجتها بشكل منطقي تماماً من حقيقة اختفاء

سيارتي، وهي حقيقة أساءت الصحف تفسيرها تماماً. إلى الوراء، يا رافعة الوقت!

عندما لم يلاحظ النادل أي شيء لافت للنظر فينا، ووضع قدحين من الجعة أمامنا وغمس فيليكس شفته في الرغوة الكثيفة، باغتهُ بالسؤال:

ـ هل تستطيع قيادة سيارة؟

ورد عليّ بسؤال وهو يتنحنح بلطافة:

ـ ماذا أو ما الأمر؟

ـ أسأل: هل تعرف كيف تقود السيارة؟

أجاب باعتدال:

ـ ولكن كيف لا أستطيع. كان صديقي سائقا، خدم عند أحد ملاكي الأراضي في منطقتنا. لقد سحقنا خنزير مرة. فصرخ عاليا...

أحضر النادل طبق طعام مؤلف من مكونات غذائية بكمية كبيرة مثل الخضار واللحوم مع المرقة وبطاطا مهروسة. أين سبق وأن رأيت نظارة بينس نيز على أنف نادل؟ تذكرت الآن وأنا أكتب: في مطعم روسي رديء في برلين ـ وكان ذلك النادل يشبه هذا تماماً، كذلك صغير، ومتجهم، وأشقر...

ـ طيب، يا فيليكس، لقد شربنا، وأكلنا، وسنتحدث الآن. لقد وضعتَ بعض الافتراضات عني، والافتراضات صحيحة. وقبل الشروع في عملنا، أود أن أرسم لك بشكل عام مظهري وحياتي. ستفهم قريباً سبب ضرورة ذلك. وهكذا...

تناولت رشفة من البيرة وأردفت:

ـ ولدتُ في عائلة غنية. كان لدينا منزل وحديقة، أوه، يا لها من

حديقة، يا فيليكس! تخيل غابة ورود، غابة كاملة من الورود، ورود من جميع الأصناف، كل مجموعة مع لوح عليه اسم للوردة: ويعطون لكل وردة اسم رنان كما يعطوا اسما لخيول السباق. وإلى جانب الورود، نمت العديد من النباتات الأخرى في حديقتنا، وعندما يرش الندى في الصباح كل هذا، يتألف منظر سحري يا فيليكس. كنت صبيا وأحببت حديقتنا، وعرفت كيف أعتني بها، وكان لدي إبريق للري صغير، يا فيليكس، ومعزقة صغيرة، وجلس والداي في ظل شجرة كرز قديمة زرعها جدي، ونظرا بحنان لأني صغير وعملي، تخيل، تخيل هذه الصورة، انتزعُ اليرقات من الورود وأسحقها، كان لدينا جميع أنواع الحيوانات الأليفة، كانت الأرانب أكثر الحيوانات بياضا، إذا كنت تفهم ما أردت أن أقول، والديوك الرومية الغاضبة، وماعز جميلة، وهكذا دواليك. ومن ثم أفلس والديّ، وانتقلا إلى العالم الآخر، واختفت الحديقة الرائعة مثل الحلم. ويبدو لي الآن أن السعادة تومض مرة أخرى. واستطعت مؤخراً الحصول على قطعة أرض على شاطئ البحيرة، وأزرع حديقة جديدة هناك، حتى أفضل من الحديقة القديمة. كان شبابي مفعماً بعبق الأزهار المحيطة بي، وألقت الغابة المجاورة الكثيفة والكثة على روحي ظلال الكآبة الرومانسية. كنت على الدوام وحيداً يا فيليكس، وأنا الآن وحيد. النساء... وما بوسعي أن أقول عن هذه المخلوقات الفاسدة المتقلبة... سافرتُ كثيرا، ومثلك أحب أن أتجول بحقيبة على الظهر، على الرغم من أن تجولاي أجمل من تجوالك، بحكم بعض الأسباب التي أشجبها تماماً. لا أحب أن أتفلسف، لكن مع ذلك يتعين عليّ الاعتراف بأن نظام العالم غير عادل. إنه شيء مدهش، هل تسنى لك التفكير بهذا من قبل؟ اقصد أن شخصين، متساويين في الفقر، ويعيشان بطريق مختلفة، أحدهما دعنا نقول بصراحة أنت، متشرد ميؤوس منه، والآخر، أنا أيضاً فقير بيد أني أعيش أسلوب حياة مختلف تماماً: أرتدي

ملابس لائقة، بلا هموم، متخم، أدور بين الأغنياء الظرفاء، لماذا الأمر على هذا النحو؟ لأننا يا فيليكس، ننتمي إلى طبقات اجتماعية مختلفة، وإذا بدأنا بالفعل الحديث عن الطبقات، فتخيل أحد الأشخاص، وهو أنت، يركب في عربة قطار في الدرجة الرابعة من دون تذكرة متخفيا كأرنب، وآخر أي أنا، يركب من دون تذكرة في الدرجة الأولى. الأول في مقعد قاسي والآخر ناعم، وفي الوقت نفسه، كلاهما يمتلك محفظة فارغة، أو بالأحرى أحدهما يمتلك محفظة، دعها فارغة، وليس لدى لآخر مثلها، ببساطة كانت بطانة سترته مثقوبة. أقول كل هذا لكي تفهم الفرق بيننا: أنا ممثل أعيش بلا دخل ثابت، ولكن لدي دائماً آمال كبيرة بالمستقبل وبوسعي إن أمددها إلى ما لا نهاية ـ ليس لديك هذا أيضاً ـ ستظل دائماً متشرداً إن لم تحدث معجزة، والمعجزة حدثت: أنها لقاءنا. لا يوجد شي يا فيليكس لا نستطيع استغلاله. سأقول لك أكثر: لا يوجد شيء لا نستطيع استغلاله لفترة طويلة جداً وبنجاح كبير. ربما تحلم في أكثر أحلامك صلافة بقطعة نقدية ذات رقمين، وهي منتهى أحلامك. الآن نحن نتحدث على الفور، فوراً ومن دون مقدمات، عن عملة نقدية ذات ثلاثة أرقام ـ وهذا، بالطبع، ليس من السهل على خيالك استيعابه، والعملة بعشرة أرقام غير معقولة لك تماماً، والآن كما لو استدرنا خلف زاوية اللانهاية وهناك تضيء ورقة نقدية من فئة مئة مارك، وخلفها أخرى ومن يدري، ربما تظهر أخرى، ورابعة، إشارة تجعل الراس يشعر بالدوار، والروع، والدغدغة، لكن هذا حقيقي، حقيقي. هل ترى، أنت معتاد جداً على مصيرك البائس، لدرجة أنك الآن بالكاد تستطيع أن تدرك أفكاري. تتصور إن كلامي غير مفهوم وغريب، وتتخيل أن فيما ما بعد غير مفهوم أكثر وأكثر غرابة.

لقد تحدثت بهذه الروح لفترة طويلة. رمقني بتوجس: ربما خُيل له إني أسخر منه. فالأشخاص أمثاله ذوو طبيعة طيبة، ولكن إلى حدود

معينة فقط. وما أن يظنوا أن أحدهم يريد خدعهم، حتى تطير منهم كل الطيبة، وتكتسب أعينهم صبغة زجاجية غير سارة، ويستولي عليهم الغضب. تحدثت بغموض، لكن لم يكن هدفي إثارة حنقه، بل على العكس، أردت أن أكسبه وأستميله، وأربكه، ولكن في نفس الوقت أجذبه في غموض واغرس لديه بشكل مقنع صورة شخص مشابه له في كثير من النواحي، ومع ذلك، فقد أدى خيالي دوراً سيئاً وثقيلاً، مثل سيدة عجوز، شربت أكثر من اللازم، وراحت تتغنج. قمت بتقييم الانطباع الذي تركته عليه، فتوقفت لوهلة، وأسفت لأنني أثرت خوفه، لكنني شعرت على الفور ببعض المتعة من قدرتي على جعل المستمع يشعر بانه على غير ما يرام. ابتسمتُ وواصلت على النحو التالي:

ـ سامحني، يا فيليكس، لقد استرسلتُ في الكلام، فنادراً ما يتوجب عليّ الإفراج عن همومي. بالإضافة إلى ذلك، أنا في عجلة من أمري لعرض نفسي لك من جميع الجوانب، كي تتكون لديك صورة كاملة عن الشخص الذي سيتعين عليك العمل معه، لا سيما وأن هذا العمل يقوم بالذات على استعمال مباشر لشبهنا أنا وإياك. أخبرني، هل تعرف مَن هو الممثل البديل؟

هز رأسه، وتدلت شفته، ولاحظت لفترة طويلة أنه غالباً ما يتنفس من خلال فمه، وربما كان أنفه مسدودا.

ـ أنت لا تعرف، لذا سأشرح لك. تخيل أن مدير شركة أفلام، هل ذهبت إلى دار السينما؟

ـ حدث.

ـ عال، تخيل، إذن، إن هذا المخرج... آسف يا صديقي، هل تريد أن تقول شيئاً؟

ـ ذهبت إلى السينما، ولكن نادرا، ولكن إذا كان المرء يريد صرف نقوده، فليصرفها على شيء أفضل.

ـ أوافق، ولكن ليس الجميع يفكرون مثلك، وإلا لما كانت حرفة مثل حرفتي، أليس كذلك؟ وهكذا فقد عرض عليّ مديري مبلغا صغيرا، حوالي عشرة آلاف، هذا، بالطبع، لا شيء، التمثيل في فيلم بطل قصته موسيقار. وبالمناسبة، أنا أحب الموسيقى، أعزف على العديد من الآلات. أحياناً، في أمسية صيفية، آخذ كماني، وأذهب إلى الغابة المجاورة... طيب، فيليكس الممثل البديل هو الشخص الذي بوسعه، إذا لزم الأمر، استبدال هذا الممثل.

الممثل يؤدي دوره، وتصوره الكاميرا، ويبقى لاستكمال الفيلم تصوير مشهد تافه، على سبيل المثال، يجب أن يقود البطل سيارة، ثم فجأة يتمرض الممثل الرئيس، لكن الوقت لا يرحم. في هذه الحالة يأتي دور الممثل البديل لممارسة عمله ليقود هذه السيارة بالذات فإنك تعرف قيادة السيارة، وعندما يشاهد المشاهد الفيلم، لن يخطر بباله انه كان هناك بديل للمثل. وكلما كان التشابه مثالياً كلما زاد تقديره، حتى أن هناك منظمات خاصة تنشط في البحث عن نظراء للمشاهير. وحياة الشبيه رائعة، إذ يتلقى راتبا محددا، وعليه أن يعمل فقط من حين لآخر، وما هي الوظيفة: يرتدي ملابس تشبه تماماً زي البطل، ويظهر بشكل خاطف، بدلاً من البطل في سيارة أنيقة، وهذا كل شيء. طبعاً عليه ألا يتشدق عن خدمته. فماذا سيحدث لو أشاع منافس أو صحفي عملية التزوير واكتشف الجمهور أنه تم استبدال محبوبهم الممثل في أحد المشاهد. أنت تفهم الآن لماذا ابتهجت كثيراً على هذا النحو، واضطربت، عندما وجدت فيك نسخة طبق الأصل لوجهي. لقد حلمت باستدامة بهذا، ففكِر في مدى أهمية ذلك لي، لاسيما الآن، عندما

يجري التصوير وأنا بصفتي شخصا في حالة صحية ضعيفة، أؤدي الدور الرئيسي. في هذه الحالة سيتصلون بك على الفور، وتأتي...

قاطعني فيليكس:

ـ لن يتصل بي أحد، ولن أذهب إلى أي مكان.

سألته بعتاب لطيف:

ـ لماذا تقول ذلك يا عزيزي؟

أجاب فيليكس:

ـ لأنه ليس من الجيد أن تظلل شخص مسكين. لقد صدقتك. اعتقدت أنك ستعرض عليّ عملاً شريفاً. جئت إلى هنا من مكان بعيد. انظر إلى حذائي في أي شكل أصبح... لكن بدلاً من العمل... لا، هذا لا يناسبني.

قلت بهدوء:

ـ هناك سوء فهم هنا. أنا لا أعرض عليك شيئاً مهيناً أو صعباً للغاية. سنعقد اتفاقاً. وستحصل بموجبه مني على مئة مارك كل شهر. أكرر أن العمل سهل للغاية، تماماً مثل عمل للأطفال، كما يرتدي الأطفال في لعبهم لتصوير الجنود والأشباح والطيارين. فكر في الأمر، إنك ستحصل على مئة مارك شهريا، فقط على أنك سترتدي من حين لآخر ربما مرة واحدة في السنة مثل هذه البدلة التي عليّ الآن. أتعرف ما سنفعله: هيا لنتفق على لقاء في وقت ما، ونتدرب على مشهد ما، وسنرى ما يسفر عنه.

رد فيليكس بخشونة:

ـ لم أسمع ولم أعرف أي شيء عن مثل هذه الأشياء. كان لعمتي ابن قام بالتهريج في المعارض، هذا كل ما أعرفه، كان سكيراً وفاسقاً،

وفقدت عمتي نظرها من البكاء بسببه، حتى أن ترضرض حتى الموت والحمد للرب، بعد أن سقط من الأرجوحة، هذه هي السينما والسيرك...

هل كان كل شيء على هذا النحو؟ هل أتبعتُ ذاكرتي بصورة صحيحة، أم أن قلمي الذي عطب يرقص على هواه؟ ويظهر مما دبجته كما لو أن محادثتنا جرت إلى حد كبير بلغة أدبية، ولاحت كأنها من نمط محادثات خجولة في حانات مختلفة تحمل اسم دوستويفسكي، وبعد قليل سيظهر لدي «السيد»، وحتى بصيغة مخاطبة كاملة «سيادة السيد» ـ وبعبارة مضطربة معروفة: «حتما من كل بد، حتماً من كل بد...»، وهناك كل مُجَمِّلات العالم الغرائبي السحري لكاتبنا الذي يقلد أسلوب المحقق والجاسوس الأمريكي الآن بينكرتون. إن الفكرة التي تعذبني لحد ما، وحتى لا تعذبني، بل تربكني تماماً، وربما تهلكني، هي أنني عقدت الآمال الكبيرة على قلمي... هل تتعرفون نبرة هذه العبارة؟ نعم بالضبط إنها لبطل رواية» الشبيه» لدوستويفسكي. ويبدو لي أيضاً أن محادثتنا كما أتذكر كانت ممتازة بكل ظلالها، وبكل بواطنها (هنا مرة أخرى ـ العبارة المفضلة لكاتبنا المتخصص في الحمى النفسية وانحرافات الكرامة الإنسانية، «البواطن» أكتُبها بخط مائل). نعم، أتذكر هذه المحادثة، لكن ليس بميسوري نقلها بدقة، هناك شعور ما يعوقني، حارق، لا يطاق، دنيء، لا يمكنني التخلص منه، إنه عالق بي، على حد السواء مثلما لو في الظلمة يصطدم المرء بورق لاصق الحشرات والأدهى من ذلك إنه لا يعرف أين يشعل النور للتخلص منه.

كلا، لم تكن محادثتنا كما رويتها، بمعنى ربما أن الكلمات هي هي بالضبط (هنا مرة أخرى)، لكنني لم أفلح، أو لم أجرؤ على نقل مختلف أشكال الضجيج المميز التي صاحبته، كانت انقطاعات في الحديث،

وزوال الصوت، وثم من جديد غمغمة وتهامس، وفجأة بصوت قوي وواضح أقول:

ـ هيا يا فيليكس، لنشرب مرة أخرى جعة.

كانت جدران الحانة مكسوة بورق مزدان بزهور بنية، وعلقت عليها لافتة توضح بانزعاج، أن الحانة ليست مسؤولة عن فقدان الأشياء، وعلى المائدة قطع من ورق مقوى مدورة تستعمل كقاعدة لأقداح الجعة، كُتبَ بعجل على إحداها الحساب بخط مائل لقلم رَصاص، ومقصف بعيد عنا، جلس بالقرب منه رجلا يحتسي الجعة محاطاً بالدخان وهو يلوي ساقيه على هيئة كعكة بريزال كرينجا. كل هذه التعليقات على محادثتنا سخيفة للغاية، على أي حال مثل الملاحظات المكتوبة على هوامش كتب ليدا البذيئة. لو أن أولئك الثلاثة الذين جلسوا بعيداً عنا عند الستارة المغبرة الحمراء المنسدله، لو أن فراشات التبغ الثلاث الهادئون والحزانى هؤلاء، استداروا نحونا فسوف يرون: أخ ميسور وآخر سيئ الحظ، فاشل، أخ له شارب ولمعان على شعره، وأخ، حليق لكن لم يقص شعره منذ فترة طويلة، وما يشبه عِرف الديك على رقبته الرفيعة. جالسون مقابل أحدنا الآخر، واضعين مرافقنا على الطاولة، وعلى حد السواء أسندا ذقنين على كفينا. بهذا الشكل ظهرتنا مرآة قاتمة على ما يبدو غير طبيعية لحد ما مقعرة وحادة، وعلى الأرجح ستتصدع على الفور إذا انعكس فيها وجه بشري أصيل. هكذا جلسنا، وواصلتُ الغمغمة لإقناعه، وعموماً أقول بصعوبة إن ذلك الكلام الذي يبدو أنني أعيده حرفيا، لم يجرِ هكذا بسلاسة كما يجري الآن، ومن المستحيل أن أنقل على الورق تلعثم لساني المعقود وتكرار الكلمات، والتعثر، والجمل غير التامة الغبية، التي ظلت طريقها وفقدت بوصلتها، وكل تلك الأصوات الفائضة التي تمنح الكلمات دعامة، أو على العكس ثغرة، والكلام غير واضح. لكن فكرتي عملتْ بتناسق، وتوجهت نحو

الهدف المطلوب بخطوة مدروسة وثابتة، بحيث إن الانطباع الذي احتفظت به من مجرى كلماتي ليس سيئاً أو مشوشاً أو غير متسق، بل على العكس. مع ذلك كان الهدف حينها ما زال بعيد المنال. كان لا بد، بطريقة ما كسر مقاومة فيليكس، مقاومة رجل ضيّق الأفق وحذر. وبعد أن أغراني الموضوع الطبيعي الرشيق، لم آخذ بنظر الاعتبار إن موضوعَ بديلُ الممثل هذا، الذي جذبني، قد يخيفه ولا يحظى بإعجابه. لا يعني ذلك أنه كان لدي، ولو أدنى درجة من التعلق بخشبة المسرح والتمثيل، فالمرة الوحيدة التي مارست التمثيل فيها، كانت منذ حوالي عشرين عاما، حين تم تنظيم عرض منزلي في عزبة مالك الأرض الذي خدم فيه والدي، وانحصر دوري بأن أقول بضع كلمات فقط:

ـ لقد قالوا لي يا صاحب السعادة إن أبلغكم بأن معالي الأمير قادم، سيدي... نعم، إنه قادم.

وبدلاً من ذلك، وببعض السرور والبهجة والارتجاف الذي شمل بدني بأسره، قلت على نحو آخر:

ـ يا صاحب السعادة إن معالي الأمير لا يستطيع المجيء فقد جرح نفسه بشفرة حلاقة.

وفي هذه الأثناء ظهر الممثل الهاوي الذي لعب دور الأمير المنتظر في بنطال أبيض، ورانت ابتسامة على وجهه الذي لَوَنه المكياج، فعَلقَ كل شيء، وعلى الفور تم قطع الطريق على مسيرة العالم، وما زلت أتذكر كيف استنشقت بعمق أوزون الكوارث الوحشية المدوي العجيب هذا. وعلى الرغم من ذلك فإنني ممثل بالمعنى الواسع للكلمة، وكنت طيلة حياتي أحمل معي كما لو مسرح صغير قابل للطي، وأديت أكثر من دور، وأديت بشكل ممتاز، وإذا كنتم تعتقدون أن «المنفعة» هو اسم مُلقني، فأنتم مخطئون تماماً ـ كل هذا أيها السادة ليس بهذه البساطة.

وتبين لي أن لعبتي مع فيليكس كانت مضيعة للوقت. وأدركتُ فجأة أنه إذا أطلتُ المونولوج عن السينما، فسوف ينهض فيليكس ويغادر، ويعيد لي العشر ماركات ـ كلا لن يعيدها، أستطيع أن أؤكد، ـ فكلمة «نقود» باللغة الألمانية لها وزن كبير («المال» بالألمانية ذهب، وبالفرنسية ـ فضة، وبالروسية ـ نحاس)، لقد نطقها باحترام غير عادي وحتى بشغف. لكنه كان سيغادرني بالتأكيد، وحتى بهيئة المُهان... أقول الحقيقة ما زلتُ لا أفهم تماماً، لماذا كان كل شيء مرتبط بالسينما والمسرح يثير اشمئزازه بشكل لا يطاق، لنفترض، دعونا نقل، مقرفة له؟ دعونا نحاول شرح ذلك من خلال تخلف عامة الناس، الفلاح الألماني من نمط قديم وخجول، جرب أن تتجول في القرية مرتدي سراويل الاستحمام ـ لقد حاولتُ ـ وسترى ما سيحدث: سيصاب الرجال بالذهول، وستضحك النساء ضحكة ساخرة في كفوفهن، مثل الخادمات في كوميديا العالم القديم.

اعتصمت بالصمت. وكان فيليكس صامتاً أيضاً، حرك إصبعه على الطاولة. ربما كان يعتقد أنني سأعرض عليه وظيفة بستاني أو سائق، وهو الآن غاضب وخائب الأمل. استدعيت النادل ودفعت الحساب. صرنا في الشارع مرة أخرى. كان الليل كالحا، صحراويا. وانزلق القمر الساطع المسطح في الغيوم الشبيهة بالفراء الأسود، وكان، يختبئ خلفها كل دقيقة.

ـ اسمع يا فيليكس. لم ننته من حديثنا. لن أترك الأمر على هذا النحو. لدي غرفة في الفندق، دعنا نذهب وتمضي الليلة معي.

لقد أخذها كأمر مسلم به. وعلى الرغم من غبائه، فقد فهم أنني بحاجة إليه، وأنه لن يكون من الحكمة قطع علاقاتنا دون الاتفاق على شيء ما. مررنا بمحاذاة نظير الفارس البرونزي مرة أخرى. ولم نلتق في

المنتزه بإيما كان. لم يكن هناك نور في أي من نوافذ البيوت. وإذا لاحظتُ نافذة مضاءة، واحدة على الأقل، فسأعتقد أن شخصاً ما شنق نفسه هناك تاركاً المصباح مشتعلا، لذا فإن أي ضوء سيبدو غير متوقع وغير قانوني. وصلنا صامتين إلى الفندق. سمح لنا مناوب ناعس بسترة من دون ياقة، بالدخول. عندما دخلنا الغرفة، كان لدي مرة أخرى شعور مألوف للغاية، لكن شيئاً آخر شغل أفكاري. «اجلس»، جلس على كرسي، واسدل يديه على ركبتيه، بفم نصف مفتوح. خلعتُ سترتي، ووضعت يدي في جيوب سروالي، ارتطمت بنقود معدنية صغيرة، ورحتُ أقطع الغرفة جيئة وذهوبا. وبالمناسبة، كنت أرتدي ربطة عنق رمادية منقطة بنقاط سوداء، والتي طارت قليلاً عندما استدرت على كعب الحذاء. ران الصمت لبعض الوقت، قطعته خطواتي، والنسيم. أسقط فيليكس رأسه بغتة كما لو كان ميتا، وأنشأ يحل أربطة حذائه. نظرت إلى رقبته التي لا حول لها ولا قوة، وإلى التعبير الحزين لفقرات العنق، وبدا لي أنه من الغريب أن أنام مع شبيهي في غرفة واحدة، تقريباً في سرير واحد ـ كانت الأسرّة قريبة من بعضها البعض. وفي الوقت نفسه، انتابتني فكرة مروعة في أن يوجد لديه عيب جسدي، أو بقعة حمراء لمرض جلدي أو وشم ـ طالبت من جسده ادني حد للتشابه مع جسدي. كنت هادئاً بشأن وجهه.

قلت له، وأنا استمر في المشي.

ـ هيا، هيا، اخلع ملابسك.

رفع رأسه وهو يمسك بيده بحذاء البال. وقال مبتسما (لا تظهر لثتك، أيها الأحمق):

ـ لم أنم في سرير منذ وقت طويل، في سرير حقيقي.

قلت بفارغ الصبر:

ـ اخلع كل شيء. ربما تكون قذراً، متربا. سأعطيك قميصاً لتنام فيه. واغتسل.

خلع ملابسه وهو يبتسم ويتنحنح، كما لو كان خجلاً بعض الشيء مني، وبدأ يغسل إبطه منحنيا فوق حوض مغسلة على خزانة ذات أدراج. فحصتُ بشراهة وبنظرات ثاقبة، هذا الرجل العاري تماماً. كان نحيفاً وأبيض، أكثر بياضاً من وجهه، لذا بدا وجهي، الذي احتفظ بسمرة صيفية، وكأنه وضع على جسده الشاحب، حتى أنه كان هناك خط ملحوظ على الرقبة حيث وضع الرأس. شعرتُ بارتياح غير عادي من هذا الفحص، اطمأننت، ولم تكن هناك علامات لا يمكن إصلاحها.

عندما ارتدى قميصا نظيفا، أعطيته إياه من الحقيبة، استلقى في السرير، وجلستُ عند قدميه وتفرست فيه بابتسامة ساخرة صريحة. لا أعرف بماذا كان يفكر، ولكن في الوقت الذي استرخى من النظافة غير العادية، ضرب ذراعي بحركة خجولة وعاطفية وحتى لطيفة وقال، أترجم حرفياً: «أنت رجل طيب. رحت اهتزمن شدة الضحك من دون أن أكشر عن أسناني، ومن ثم ربما رأى شيئاً غريباً في تعبير وجهي، ارتفعت حاجبيه، وأدار رأسه مثل طائر. وفيما ضحكت بصورة مكشوفة قمت بدس سيجارة في فمه، وكاد يغص بها.

وصرختُ به، وانا اربت على ركبته.

ـ أوه، أنت يا بليد، يا ترى لم تدرك أنني دعوتك من أجل مسألة مهمة، مهمة للغاية.

وسحبتُ من المحفظة ورقة نقدية من فئة الألف مارك، وواصلت الضحك، وقربتها جداً من وجه الأحمق.

سأل، وأسقط السيجارة، ومن الواضح أن أصابعه انفصلت عن غير إرادته، استعداداً للإمساك بالورقة النقدية:

ـ أهذه لي؟

وقلت له من خلال الضحك:

ـ ستحرق الملاءة. هناك، عند المرفق. أرى أنك اضطربت. نعم، ستكون هذه النقود مُلكك، وستستلمها مسبقاً إذا وافقت على تنفيذ العمل الذي سأعرضه عليك. يا ترى لم تدرك أنني تحدثت عن السينما بهذه الطريقة، بمثابة اختبار لك، وأنني لست ممثلاً على الإطلاق، ولكنني رجل أعمال فطن وأريب. باختصار، المسألة تنحصر في أني أعتزم القيام بعملية محددة، وأخطط ليكون هناك احتمال ضئيل في أن يتوصل البوليس إلى أني وراءها. ولكي تتبدد الشكوك بي، وتزول على الفور، فعلي البرهنة بانني في يوم وساعة هذه العملية، كنت بعيداً عن مكان وقوعها. سأل فيليكس، ولاح شيء ما على وجهه، ارتياحا غريبا...

ـ أسرقه؟

واصلتُ، وخفضتُ صوتي إلى الهمس:

ـ أرى أنك لست بهذا الغباء. يبدو أنك شككت بان ثمة شيء سيئ، والان مرتاح، لكونك لم تخطأ، ،مثلما يرتاح كل من يقتنع بصحة ما خمنه، كلانا يطمع بالأشياء الفضية، لقد فكرت على هذا المنوال، أليس كذلك؟ أو ربما يطيب لك أنني لست غريب الأطوار، ولا حالم بشذوذ، ولكني شخص عملي.

سألني فيليكس مرة أخرى، ناظراً إليّ بعيون متحركة:

ـ أسرقه؟

ـ على أي حال العملية غير قانونية. ستعرف التفاصيل لاحقاً. اسمح لي أولاً أن أشرح لك ما العمل الذي ستؤديه. ستركب سيارتي مرتدياً

بدلتي وتقودها على طول الطريق الذي أحددها لك. وهذا كل ما في الأمر. ولقاء ذلك ستحصل على ألف مارك.

ردد فيليكس بعدي:

ـ ألف، ومتى تعطيني إياها؟

ـ سيحدث ذلك بشكل طبيعي يا صديقي. عندما ترتدي سترتي، ستجد محفظتي فيها، وفي المحفظة نقود.

ـ ماذا عليّ أن أفعل بعد ذلك؟

ـ لقد شرحت لك. بان عملك ينحصر في أنك ستقوم بنزهة في سيارتي. دعنا نقول: سوف أقوم بإعدادك، وفي اليوم التالي، عندما أكون بعيداً، تذهب في نزهة بالسيارة، سيرونك أهالي المنطقة ويتصورنك أنا، وتعود، بينما أكون أنا قد قمت بالعملية، ستمر من خلال قرية يعرفوني فيها بالوجه فقط، ولن يتعين عليك التحدث مع أي شخص، وسيستمر ذلك لبضع دقائق، ولكن سأدفع لك مَبلغاً باهظاً مقابل هذه الدقائق القليلة، نظراً لأنها ستمنحني فرصة ذهبية لأكون في آن واحد في مكانين.

قال فيليكس:

ـ سيلقون القبض عليك متلبساً، وبعد ذلك سيصلون إلي. وسيجري الكشف عن كل شيء في المحاكمة، وسوف تخونني.

ضحكت مرة أخرى:

ـ هل تعرف، يعجبني يا صديقي تأليفك حالاً فكرة أنني محتال.

واعترض عليّ قائلاً إنه لا يحب السجون، وأن الشباب يذوى في السجون، وأنه لا يوجد شيء أفضل من الحرية وغناء العصافير. قال هذا بخمول، بدون أي كراهية لي. ثم استغرق في التفكير، متكئاً على الوسادة. خيم علينا سكون خانق. تثاءبت، واستلقيت على ظهري في

السرير دون خلع ملابسي. انتابتني فكرة مضحكة من أن فيليكس سيقتلني في منتصف الليل ويسرقني. مددت ساقي إلى الجانب، وكشطت نعلي بالحائط، ولمست زر المصباح الكهربائي بإصبع قدمي، ولكن محاولتي باءت بالفشل، وتمددت أكثر وأطفأت الضوء بركلة من كعب نعلي.

تعالى صوته الغبي في السكون:

ـ ربما كل هذا كذب؟ ربما لا أصدقك...

لم أتحرك.

وكرر بعد دقيقة:

ـ كذب، كلام فارغ.

لم أتحرك، لكن بعد فترة بدأت أتنفس بإيقاع رزين للنوم.

يبدو أنه يستمع. تنصتُ إلى كيف إنه يتنصت، وأصاخ هو بسمعه إلى كيف أتنصتُ أنا إلى تنصته. انكسر شيء ما، لاحظت أنني لم أكن أفكر فيما اعتقدت أنني أفكر به، حاولت أن اقتنص وعيي على حين غرة، لكني ارتبكت ولم اعد أميز بين الأمور.

راودني حلم مقرف. حلمت بكلب، ولكن ليس بكلب عادي، بل شبيه بكلب صغير له عيون سوداء ليرقة خنفساء ذات لون ابيض تماماً، باردة وغير مفهوم إن كانت من لحم أم لا، بل على الأصح من شحم أو مهلبية فرنسية، أو بالأحرى لحم يرقة خنفساء بيضاء متموجة ذات نقوش، كما الكبش ـ الدمية، التي تُصنع من الشحم في عيد الفصح. هذا المخلوق الذي خلقته الطبيعة بشكل كلب مع ذيل وقوائم وكل شيء لديه كما يجب، هو في الواقع محاكاة بشعة، كائن بارد الدم.

بين الحين والآخر كان ذلك الكائن يزحف تحت ذراعي، وكان من المتعذر التخلص منه، وعندما لمسني، كان هذا أشبه بتفريغ كهربائي. استيقظتُ. كان الكائن البشع الشبيه بالكلب مستلقياً على ملاءة السرير

المجاور، ملتفا بهيئة فطيرة بيضاء باردة، وبالمناسبة أن خنفساء اليرقات تلتف على هذا النحو. تأوهت من الاشمئزاز، واستيقظت تماماً.

وكانت الظلال تطفو في كل مكان، والسرير المجاور فارغاً، ونبات الأرقطيون العريض الفضي، ينمو بسبب الرطوبة من حوض السرير. ولاحت بقع مريبة على الأوراق، مثل مادة مخاطية، تفرست بها: جلست بين الأوراق صغيرة لزقة متشبثة بالساق اللين، ذات عيون سوداء كأزرار... ولكني استيقظت في هذه اللحظة بشكل حقيقي.

غرقت الغرفة بالضوء. توقفت ساعتي. لابد أن الساعة كانت الخامسة والنصف. نام فيليكس ملتفا بحشية ريش، وظهره نحوي، رأيت فقط يافوخه. استيقاظ غريب، فجر غريب. تذكرت محادثتنا، تذكرت أنني فشلت في إقناعه، وامتلكتني فكرة جديدة أكثر إمتاعاً. أيها القارئ، شعرت بنفسي غضا مثل طفل بعد نوم قصير، وكما لو تم تطهير روحي، ففي نهاية المطاف كنت في السادسة والثلاثين من عمري فقط، ويمكن تكريس بقية حياتي السخية لشيء آخر وليس لأمل بغيض. في الواقع، يا لها من فكرة مسلية، يا لها من فكرة جديدة ورائعة: لآخذ بنصيحة القدر، والآن، وفي هذه اللحظة بالذات، اترك هذه الغرفة، أُغادر إلى الأبد، أنسى شبيهي إلى الأبد، نعم، ربما هو لا يشبهني البتة، رأيت فقط يافوخه، كان غارقاً في النوم وقد أدار ظهره نحوي. مثلما يقول فتى لنفسه، بقوة ووضوح غير عاديين بعد صراع مستميت مع رذيلة مخجلة: لقد انتهت، لن تكون ابداً مرة أخرى، من هذه اللحظة سأعيش حياة النقاء، سعادة النقاء. على هذا النحو قلت بالأمس لنفسي كل شيء لقد اختبرت كل شيء مقدما، وفي الوقت الذي كنت فيه متعباً ومتمتعاً على أكمل وجه، كنت على استعداد بدافع وسواس داخلي، للتخلي عن الإغراء إلى الأبد. أصبح كل شيء بسيطاً للغاية: كان شخص مشرد ينام على السرير المجاور، احتضنته عن طريق الخطأ، وكان حذائه المسكين

على الأرض مترب، والجوارب في داخله، ومعطفه مطوياً على الكرسي بدقة بروليتارية. ما الذي كنت أفعله في غرفة فندق المقاطعة هذه، وما هو الهدف من المكوث هنا بعد الآن؟ وهذه الرائحة القوية النفاثة، لعرق شخص غريب، وهذه السماء الرمادية الباهتة التي تلوح من النافذة، والذبابة السوداء الكبيرة التي تجثم على الدورق. كل شيء قال لي: ابتعد، انهض وانطلق بعيداً.

وضعت قدمي على السجادة المنطوية، ورجلت شعري وفودي للخلف بمشط كان في جيبي، وسرتُ بصمت من خلال الغرفة، ارتديت سترتي، ومعطفي، واعتمرت القبعة، وأخذت حقيبتي وخرجتُ، وأغلقتُ الباب خلفي بلا ضوضاء. وفكرتُ، حتى لو ألقيت نظرة على وجه شبيهي النائم من غير قصد، فمع ذلك لذهبت، لكنني لم أشعر بدافع للنظر، مثل ذلك الفتى الذي ذكرته أعلاه للتو، فالصورة التي أسكرتني في الليل، لم تعد تستحق النظر لها في الصباح.

هبطت السلم بخطوات سريعة، وانتابني دوار قليل، ودفعت ثمن الغرفة، وخرجتُ إلى الشارع، تشيعني نظرة الخدم الناعسة. وبعد نصف ساعة كنت جالساً في عربة القطار، ابتهجت روحي من الجشأة التي سببها الكونياك، وفي زوايا فمي كانت هناك آثار مالحة للبيض المخفوق، الذي تناولته على عجل في بوفيه المحطة. وعلى هذا النحو، ينتهي هذا الفصل الغامض على نوتة خافتة للمريء.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل VI

من السهل إثبات عدم وجود الرب[1]، على سبيل المثال، لا يجوز القبول بأن «أبدى أزلي الوجود» جاد، وجبار وحكيم يمكن أن يمارس قضية فارغة، مثل اللعب في الأنسان ـ زد على ذلك ـ وهذا يمكن أن يكون مناف للعقل تماماً، في الوقت الذي حصر لعبته بقوانين الميكانيكا، والكيمياء، والرياضيات المبتذلة تماماً، فإنه كما تعرفون لم يكشف عن وجهه، ربما فقط قال، خلسة وبموارية وبصورة لصوصية ومن خلف ظهر هستيري رقيق، حقائق مثيرة للجدل.

كل هذه اللاهوتية، كما أفترض تعد خدعة عظيمة، بالتأكيد لا يلام القسس عليها، فالقسس أنفسهم ضحاياها. لقد ابتكر عبقري مكسال فكرة الرب في فجر التاريخ. ولحد ما تفوح منها رائحة بشرية مما يجعل من ألصعب على المرء الأيمان بأصلها اللازوردي، لا أقصد أنها وليدة الجهل، أن هذا المكسال الذي أتحدث عنه مُلم في التعدين، والقانون، ولا اعرف أي خيار للجنة هو الأفضل: التصفيق الباهر للملائكة متعددة

---

(١) يضع الكاتب هذه العبارة على لسان بطله الذي يصفه بالدنيء والمجرم. وعلى هذا النحو يحاول جيرمان ـ الراوي تبرير ارتكابه جرائمه بنفي وجود الرب، لأن كما قال فيودور دوستويفسكي، الذي نتلمس ضلاله على الرواية: إذا كان الرب غير موجود فكلّ شيء مباح، ويتمحور كلامه عن المسيحية.

العيون بأجنحتها، أم المرآة المقعرة التي يذهب فيها أستاذ الفيزياء المغرور، ليتضاءل إلى ما نهاية. هناك سبب آخر يجعلني لا أستطيع ولا أروم في الإيمان بالرب: لأن الأسطورة الخيالية عنه ـ ليست أسطورتي ـ إنها غريبة عني، أسطورة عامة، مشبعة بالأبخرة النتنة لملايين الأرواح البشرية الأخرى، التي دارت في العالم وانفجرت. تعج فيها المخاوف البدائية، وتدوي فيها أصوات لا حصر لها تداخلت بعضها ببعض وتحاول كل واحدة أن تغطي بصراخها على صراخ غيرها، فيها لهاث عميق لأرغن، وزئير شماس أرثوذكسي، وترانيم كانتور، ونحيب زنوج، وبلاغة واعظ بروتستانتي متفوه، وصنوج، ورعود، وتشنجات نساء مصابات بالصرع، وتظهر فيها صفحات شاحبة لجميع الفلسفات، مثل زبد أمواج متكسرة منذ زمن طويل، إنها غريبة عني، وبغيضة وعديمة الفائدة على الإطلاق.

ما دمتُ سيد نفسي، وطاغية عالمي الخاص، فإن أي منطق، واي نشوة روحانية من أي مصدر كانت، لن تبدد قناعتي في استحالة غباء وضعي، وضع عبد الرب، ولا حتى عبد، بل لا أكثر من عود ثقاب يشعله طفل فضولي عبثا ومن ثم يخمده، معرضاً دُمياته للخطر. لكن ليس ثمة ما يدعو للقلق، لا يوجد رب، تماماً كما لا يوجد خلود. يمكن القضاء على هذا الوحش الثاني، بنفس سهولة القضاء على الأول. وفي الواقع، تخيل أنك متَّ واستيقظتَ في الجنة، حيث يقابلك الموتى الأعزاء عليك بابتسامات. وعلى هذا النحو دعنا نقول: ما الذي يضمن لنا أن هؤلاء موتى حقيقيون، وأن هذه هي فعلا المرحومةَ أمك، وليست شيطاناً مشعوذاً، يصور ويؤدي دور والدتك بفن رفيع وقريب جداً من الحقيقة. وهنا تكمن العقدة، وهذا هو الرعب، لأن أمد اللعبة سيكون طويل لا نهاية له، أبداً، أبداً، إن الروح في العالم الآخر لن تكون على يقين من أن النفوس الوديعة التي أحاطت بها ليست شياطين مقنعة،

وستبقى الروح إلى الأبد، إلى الأبد، إلى الأبد، في حالة شك، تنتظر حدوث تغيير رهيب ومضحك في وجه الحبيب الذي تميل له. لذلك، سأقبل كل شي. فليكون الجلاد ذو القبعة العالية، مديد القامة، وبعد ذلك الأزيز السرمدي للعدم، ولكن فقط لا أريد عذاب الحياة الأبدية، ولا هذه الكلاب الباردة البيضاء ـ شكراً ـ لن أتحمل أدنى درجة من الملاطفة، أحذركم، نظراً لأن كل هذا ـ خداع، كل شيء خدعة بشعة، لا أثق بأي شيء ولا بأي أحد. وعندما يلتقي بي في العالم الآخر أقرب الناس لي، ويقترب مني ويمد يد معروفة لي، سأصرخ من شدة الرعب، وأسقطُ على أرض الجنة، سينتابني الذعر، ولا أعرف ما سأفعل ـ كلا، أغلقوا أمام الغرباء الباب إلى منطقة النعيم.

ولكن، وعلى الرغم من عدم إيماني، فأنا بحكم طبيعتي غير شرير ولا مكتئب. عندما عدت إلى برلين من تارنيتسيا وقمت بجرد ممتلكاتي الروحية، فرحتُ مثل طفل بالثروة المتواضعة التي بحوزتي، وشعرت أنني، متجدد، ومنتعش، ومتحرر، وأدخل، كما يقولون، في منطقة جديدة للحياة. كانت لدي زوجة غبية، ولكنها جميلة وتطيعني، وشقة جميلة، وجهاز هضم ممتاز، وسيارة زرقاء. شعرتُ بأني أتمتع بموهبة شعرية وأدبية، علاوة على ذلك، بقدرات تجارية عظيمة، على الرغم من أن أموري لم تسر على ما يرام. بدا لي شبيهي فيليكس، ظريف غير مؤذ، وفي تلك الأيام ربما كنت سأخبر صديقاً عنه، لو كان لدي مثل هذا الصديق. خطر ببالي بأن عليّ أن أتخلى عن بزنس الشوكولاتة وأن أمارس شيء آخر ـ على سبيل المثال، نشر كتب فاخرة الطباعة، باهظة الثمن مكرسة للتغطية الشاملة للأيروس ـ في الأدب والفن والطب... بشكل عام، استيقظت طاقة متوقدة في داخلي، لم أكن أعرف ما أين أوظفها.

أتذكر بشكل خاص إحدى الأمسيات: عندما عدت إلى المنزل من

المكتب، لم أجد زوجتي، تركتْ رسالة مفادها أنها ذهبت إلى السينما للدور الأول. لم أعرف بماذا أتشاغل، تجولت في الغرف وانا أطقطق بأصابعي، ثم جلست إلى المكتب، فكرتُ في كتابة عمل إبداعي، لكنني لوثت قلمي وسقطت قطرات حبر على الورق، نهضتُ وخرجت، يعذبني التعطش للتواصل مع العالم، لم أطق مجتمعي، لقد أثارني كثيراً، وأثارني عبثاً. ذهبت إلى أرداليون، إنه رجل له روح مهرج، ويعيش حياة ممتلئة، ويستحق الاحتقار. عندما فتح الباب أخيراً لي (أغلق باب شقته بمفتاح خوفاً من الدائنين)، استغربتُ من نفسي: لماذا جئت له.

قال وهو يمضغ شيئاً ما(اتضح فيما بعد: علكة):

ـ ليدا عندي، السيدة مريضة، تفضلوا.

كانت ليدا مستلقية على سرير أرداليون، بنصف ملابسها، أي بدون حذاء، وفي رداء أخضر مجعد، وكانت تدخن.

وبادرتني:

ـ أوه، جيرمان، حسناً خمنت بالمجيء، اشعر بألم في معدتي. اجلس قربي. الآن أنا أفضل، لكن الأمر كان سيئاً حقاً في السينما.

ـ لم نشاهد الفيلم حتى النهاية وهو من أفلام العنف ـ اشتكى أرداليون، وهو ينقب غليونه ويسكب الرماد الأسود على الأرض ـ وظلت مستلقية مدة نصف ساعة. كل هذه ألاعيب نسائية، إنها تتمتع بصحة جيدة كبقرة.

قالت ليدا:

ـ اطلب منه أن يصمت.

ـ اسمعْ ـ التفتُ إلى أرداليون ـ ألديك لوحة طبيعة صامتة: غليون ووردتان، أم أنا مخطئ،

أصدر أردليون في الرد عليّ الصوت الذي لا يصوره الروائيون الذين لم يتقنوا التقنيات بـ «جم».

ـ كلا، أنت ربما تخلط، يا سنيور.

وقالت ليدا وهي مستلقية وعيناها مغمضتان وهي تمتحن ارادليون بان يحزر الكلمة التي ضمرتها:

ـ ماهي الكلمة مقطعها الأول يعني مجموعة كبيرة وغير سارة من الناس، والثاني، الثاني...: الوحش بالفرنسية، وبالكامل تكون ـ هذا الرسام.

قال أردالیون:

ـ لا تلتفت إليها. ما يتعلق بالغليون والورد، كلا لا أتذكر ومع ذلك انظر بنفسك.

كانت لوحاته معلقة على الجدران، وملقاة على الطاولة، وتكدست في الزاوية، وفي محافظ مغبرة. وبشكل عام كان كل شيء مغطى بطبقة رمادية من الغبار. نظرتُ إلى البقع الأرجوانية المتسخة للألوان المائية، وفرزت بتقزز عدة أوراق دهنية ملقاة على كرسي ملفوف.

قال أردالیون متوجهاً لليلدا:

ـ أولاً، «الفرنسية «مكتوبة» من خلال «غ» لا تنطيقها بـ بحرف «ر».

غادرتُ الغرفة وذهبت إلى ربة المنزل، صاحبة المطعم، وهي امرأة عجوز تشبه البومة، وجدتها جالسة بجانب النافذة على كرسي قوطي بذراعين، على ارتفاع عن الأرض بدرجة سلم، وهي ترفأ جوربا وقد وضعت جسم كروي صغير داخله.

قلت:

ـ سألقي بنظرة على اللوحات.

أجابت بلطف:

ـ تفضل.

عُلقتْ على يمين البوفيه، اللوحة التي كنت أبحث عنها، لكن اتضح ليست وردتين، وليس أنبوبا، ولكن خوختين كبيرتين ومنفضة سجائر زجاجية.

عدتُ مهتاجا للغاية.

سألني أردالیون:

ـ طيب، هل وجدتها؟

هززت رأسي. كانت ليدا قد ارتدت ثوبها، وطفقت بترجيل شعرها أمام المرآة بفرشاة وسخة للغاية لأردا ليون.

قالت وهي تضيق أنفها على عادتها:

ـ الشيء الرئيس هو أنني لم آكل أي شيء ثقيل على المعدة.

وعلق أردالیون قائلاً:

ـ إنها مجرد غازات. انتظروا أيها السادة سأذهب معكما، فقط ارتدي ملابسي، استديري يا ليدا.

كان في رداء طويل فضفاض مرقع وملطخ بالطلاء حتى كعب قدمه تقريباً. خلعه. كان تحته سروال، ولا شيء غيره. أنا أكره الإهمال والقذارة. وحق الرب، إن فيليكس يبدو أنظف منه. نظرت ليدا من النافذة وغنتْ، ونطقت الكلمات الألمانية بشكل سيئ، ورددت أغنية خرجت عن الموضة. جاب أردالیون أرجاء الغرف، وراح يرتدي ملابسه كلما وجد منها قطعة في أماكن غير متوقعة تماماً.

فجأة صرخ قائلاً:

ـ آخ! مَن يكون أكثر ابتذالاً من الرسام المسكين؟ لو أن أحداً ما ساعدني في تنظيم معرض، لا صبحت فوراً مشهوراً وثريّاً.

تناول العشاء معنا، ثم لعب جولة مع ليدا في لعبة الورق المسماة «الأحمق»، وغادرنا بعد منتصف الليل. أعطي كل هذا كمثال على أمسية ممتعة ومثمرة. نعم، كان كل شيء على ما يرام، كل شيء كان ممتازاً، شعرتُ كأنني شخص مختلفُ منتعش ومتجدد ومتحرر، وما إلى ذلك. لدي شقة، وزوجة، وأصدقاء مرحون، وبرد ممتع، برد برلين القارس الجاف النافذ حتى العظام، وهكذا دواليك. لا يمكنني الامتناع عن إعطاء مثال لتلك المحاولات المسلية الأدبية التي بدأت أنغمس فيها، تدريب لا واعي، بلا شك، قبل عكوفي الحالي على كتابة هذه القصة المرهقة. لقد قمتُ بتصفية ما كتبته في ذلك الشتاء منذ فترة طويلة، لكن أحداها ظلت عالقة وحية في ذاكرتي. كم هو جيد، كم هو جديد... موسيقى، تفضلوا بقراءتها! :

كان يا ما كان رجل ضعيف الشخصية، خاوي وخامل، لكنه ثري يدعى إيجريك إيكسوفيتش. أَحبَّ شابة فاتنة غنية، والتي ويا يا للأسف لم تعره اهتماماً. وذات يوم رأى هذا الرجل الممل، أثناء رحلة سياحية على شاطئ البحر صياداً شاباً اسمه ديك، مبتهجا، لوحته الشمس، قويا، وفي نفس الوقت، ـ ويا لها من أعجوبة ـ! يشبهه بشكل لا يصدق. ونشأت لديه فكرة طريفة: دعا الشابة للذهاب معه إلى البحر. نزلا في فندقين مختلفين. وفي أول صباح ذهبتْ فيه الفتاة في نزهة، رأت الصياد على الجرف واعتقدت انه ايجريك ايكسوفيتش؟؟ لم تفكر سابقاً بانه بهذا الجمال! وقف بالأسفل على الرمال، مبتهجاً، وقد لوحته الشمس، بقميص مقلم وبأذرع قوية عارية (لم تفطن إنه في الحقيقة الصياد ديك). رجعتْ الشابة إلى الفندق وراحت تنتظره، مليئة بالخوف والرعدة. خال لها أن الدقائق تمر طويلة كالساعات. وكان ايجريك

ايكسوفيتش الحقيقي قد رءاها وهو يقف يراقبها خلف شجيرة عندما كانت تنظر من الجرف إلى ديك، شبيههُ، والآن وهو في انتظار أن ينضج قلبها أخيراً، راح يتسكع هو مضطرب في القرية بزي رجل مدينة، في ربطة عنق أرجوانية وحذاء أبيض. وفجأة نادت عليه فتاة سمراء، ذات عيون براقة، ترتدي تنورة حمراء من عتبة كوخ، ورفعت له يديها:

ـ إنك بملابس رائعة يا ديك! اعتقدتُ أنك ليس أكثر من صياد فظ، مثل كل شبابنا، ولم أحبك، لكن الآن، الآن...

جذبته إلى الكوخ. همسات، رائحة السمك، المداعبات المحرقة... مرت الساعات...

ـ لقد فتحتُ عيني، لقد غمر نور الفجر مخدعي...

وأخيراً، ذهب إيجريك إيكسوفيتش إلى الفندق، حيث كانت بانتظاره تلك الرقيقة التي أحبها حبا جما. وصرخت فور دخوله:

ـ كنتُ عمياء! لقد عاد إلي بصري عندما رأيتك على الشاطئ المشمس وأنت عاري وقد لوحت جسدك الشمس، نعم أنا احبك، اعمل معي ما تريد.

همسة؟ مداعبات ملتهبة؟ مر الوقت... كلا، يا للأسف كلا، كلا ثم كلا. كان الرجل المسكين منهك القوى من الترفيه الذي مارسه قبل قليل، وللأسف، جلس مكتئباً، يفكر في كيفية إنه خان نفسه بحماقة، وحول خطته الأكثر عبقرية إلى لا شيء...

هذا النص الأدبي غير ذا شأن، أعرف ذلك بنفسي. عندما كنت اكتبه، بدا لي أن ما كتبته كان ذكيّاً، ماهراً، كما يحدث في الأحلام، حين يتحدث المرء بشكل رائع، وبذكاء، ولكن عندما يستيقظ، يتذكر أن ما قاله هراء لا معنى له. من ناحية أخرى، إن هذه الحكاية، التي كانت بروح حكايات أوسكار وايلد، مناسبة تماماً للنشر في إحدى الصحف،

فالمحررون شغوفون بتغذية القراء بأربعين سطراً، لرواة متصنعين وقحين بعض الشيء وغير متكلفين، بكلام منمق ومع ما يسميه الجهلاء، مفارقة (كانت محادثته مليئة بالمفارقات). نعم، هراء، عبث قلم، ولكن كم ستتفاجؤون الآن عندما أخبركم بأنني كتبت هذه الخساسة في معاناة، وبرعب وصرير أسنان، كنت أروم التخفيف عن نفسي بعنف، ومع ذلك أدركت أن هذا لم ليس تخفيف على الإطلاق، لكنه تعذيب ذاتي ظريف، وبهذه الطريقة لم أتحرر من أي شيء، بل اجلب الكدر لنفسي أكثر.

تقريباً في هذه الحالة المزاجية استقبلت العام الجديد. أتذكر عباءة الليلة الحالكة، هذه الليلة لغبية، التي حبست أنفاسها في انتظار دقات الساعة في الموعد المقدس. كنت أنا وليدا وأردليون وأورلوفيوس جالسون حول الطاولة بلا حراك وجديين، نحاكي الحيوانات المرسومة على الشعارات: ليدا تضع مرفقها على الطاولة وقد رفعت إصبعها بحذر، عارية الكتفين، في فستان ملون يشبه برقشة ظهر ورقة قمار، وأردليون، الذي لف نفسه في بطانية (كان باب الشرفة مفتوح)، وقد غطى لمعان أحمر وجهه السمين الشبيه بوجه الأسد، وأورلوفيوس، في سترة سوداء، ونظارات متلألئة، بياقة مطوية تغطي على حواف ربطة عنق سوداء صغيرة، وأنا رجل ـ البرق، الذي سلط الضوء على هذه الصورة. حان الوقت. من دون ريب أسمح لكم بالتحرك، أسرعوا بجلب الزجاجة، الآن ستدق الساعة. صب أردليون الشمبانيا في الأقداح، وتجمد الجميع مرة أخرى. نظر اورلوفيوس من فوق نظارته جانبا إلى الساعة الفضية القديمة التي وضعها على مفرش المائدة: ما زالت دقيقتين. في الشارع لم يستطع أحدهم تمالك نفسه ـ فأطلق ألعاب نارية ـ ثم مرة أخرى ساد صمت متوتر. وفي الوقت الذي ركز أورلوفيوس

انتباهه على الساعة، مد ببطء يده العجوز التي تشبه مخالب الفتخاء، إلى الزجاجة.

وفجأة، تمزقت أوصال الليل، وتعالت في الشارع صرخات التهاني بالعام الجديد، وخرجنا كما يفعل الملوك إلى الشرفة مع الأقداح. صعدت الألعاب النارية منطلقة بسرعة فوق الشارع، وانفجرت وتناثرت مع تنهدات ملونة، واحتشد الناس يصرخون بالكلمات البهيجة المتشابهة، التي لا معنى لها، في جميع النوافذ، وفي جميع الشرفات، وفي المسارات الضوئية التي اتخذت شكل أسفين ومربعات الضوء الاحتفالي.

قرعنا نحن الأربع كؤوسنا، وأخذتُ رشفة.

سألتْ ليدا أردليون.

ـ أي نخب يشرب جيرمان؟

فرد عليها أردليون:

ـ من أين لي أن أعرف؟ على أي حال، سيتم قطع رأسه هذا العام، عقاباً على إخفائه الدخل عن الضرائب.

قال أورلوفيوس:

ـ اللعنة يا له من كلام سيء. أنا أشرب من أجل صحة الجميع.

قلت له:

ـ بطبيعة الحال.

بعد عدة أيام، في صباح يوم أحد، بينما كنت أغتسل في الحمام، طرقت الخادمة الباب عليّ ـ قالت شيئاً ما طغى عليه ضجيج الماء الذي ينهمر، فصرختُ بها:

ـ ما الأمر؟ ما تريدين؟

لكن صرختي وانهمار الماء غلبت على ما كانت تقوله إيلزا، وكلما بدأتْ هي في الحديث مرة أخرى، أصرخ أنا في نفس الوقت ثانية، مثلما يصطدم في بعض الأحيان شخصان أحدهما بالآخر على رصيف عريض فارغ. لكنني أخيراً فطنت فغلقت الصنبور، ذهبتُ إلى الباب، وفتحته بمقدار بوصة، وأخبرتني إلزا بوضوح في وسط الصمت الذي خيم بشكل مفاجئ:

ـ هناك شخص يريد أن يراك.

سألتُها:

ـ أي شخص؟

كررت إلزا:

ـ شخص غريب.

سألتها، وشعرت بنفسي أتعرق من الرأس إلى أخمص القدمين

ـ ما يريد؟

ـ يقول إنه جاء في مسألة، وأنك تعرف ما هي المسألة.

سألتها بصعوبة:

ـ كيف يبدو مظهره؟

ـ قالت إلزا:

إنه ينتظر في الردهة.

ـ أسال كيف يبدو مظهره.

ـ يبدو من مظهره أنه فقير، بحقيبة ظهر.

ـ إذن اذهبي به إلى الجحيم! ـ صرختُ ـ دعيه ينصرف على الفور، لستُ في المنزل، لستُ في برلين، ولستُ في الدنيا!..

أغلقتُ الباب، ونقرت على المزلاج. مرت ربما نصف دقيقة وبعدها

نط قلبي حتى حلقي... لا أعرف ما حدث لي، لكنني صرختُ، وفجأة فتحت الباب، خرجتُ من الحمام نصف عاري، والتقيت بإلزا التي كانت تسير في الممر إلى المطبخ. صرختٌ بها:

ـ امسكي به. أين هو؟ لينتظر!

ـ ذهب، لم يقل أي شيء وذهب.

ـ من قال لك...،

رحت أوبخها، ومن دون أن أختم كلامي، هرعتُ إلى غرفة النوم، وارتديت ملابسي، وهرولت هابطاً على الدرج إلى الشارع. ليس ثمة أحداً... ولا أحد. بلغتُ زاوية الشارع، ووقفت التفت حولي، وعدت إلى المنزل.

لم تكن ليدا حينها في المنزل فقد ذهبت في الصباح الباكر إلى صديقة لها. وعندما عادت، أخبرتها أنني على غير ما يرام ولن أذهب معها إلى المطعم، كما اتفقنا.

قالت:

ـ مسكين. استلقي في السرير، خذ دواء ما، لدينا ساليبيرين. أنا، كما تعرف، سأذهب إلى المطعم وحدي.

ذهبت. كما غادرت الخادمة. ورحت أتنصت إلى الباب متعذب، في انتظار الجرس. «يا له من بليد «وكررت» يا له من بليد لم يسبق له مثيلاً!» كنت في حالة قلق واضطراب فظيعة موجعة ولا تطاق، لم أعرف ما العمل، كنت على استعداد للصلاة للرب المحجوب، حتى يُدَق الجرس. ولم أشعل الضوء عندما حل الظلام، لكنني واصلت الاستلقاء على الأريكة والتنصت، والتنصت، ربما سيأتي قبل إغلاق الباب الخارجي للمبني السكني، وإذا لم يكن الأمر كذلك، فحتما غداً أو بعد

غد، على الأرجح سأموت إذا لم يأتِ، لابد من أن يأتي. رن الجرس أخيراً في حوالي الساعة الثامنة. ركضتُ إلى الرواق.

قالت ليدا بأسلوب منزلي، وخلعت قبعتها وهي تمشي وعدلتّ شعرها.

ـ آه، أنا متعبة!

كانت برفقة أردليون. ذهبتُ معه إلى غرفة الضيوف، وذهبت زوجتي إلى المطبخ.

قال أردليون وهو يسخن كفيه بجوار المدفئة:

ـ برد، المتشرد جائع ويشعر بالبرد.

لذنا لفترة في الصمت.

قاطعه قائلاً وهو ينظر في صورتي التي رسمها، وقد ضيق عينيه،

ـ لكن مع ذلك، تشبهك جداً، تشبهك بشكل ملحوظ. إنه أمر غير متواضع، لكنها تعجبني في كل مرة انظر لها. يا سيدي لقد أبليتَ بلاءً حسناً لأنك حلقت شاربك مرة أخرى.

قالت ليدا بلطف وهي تفتح الباب:

ـ تعالا من فضلكما لتناول الطعام.

لم أستطع تناول الطعام، واصلت التصنت للباب، رغم أن الأوان قد فات الآن.

قال أردليون وهو يطوي طبقات من لحم الخنزير، كما يفعلون مع الفطائر، ويمضغ الطعم بصوت مسموع بكثافة:

ـ حلمان.. حلمان سماويان لدي: معرض ورحلة إلى إيطاليا.

شرحت لي ليدا:

ـ كما تعرف انه لم يشرب الكحول لأكثر من شهر.

سأل أردالیون.

ـ أوه، بالمناسبة، هل جاء لك بيريبرودوف؟

وضعت ليندا يدها على فمها. قالت بأصابعها:

ـ نسيت. نسيت تماماً.

ـ يا لك من «ساهية!» طلبت منها أن تحذركَ. وتخبرك عن فاسكا بيريبرودوف الفنان التعيس الذي جاء من دانزيغ سيراً على الأقدام، في الأقل يقول جاء من دانزيغ مشيا على الأقدام. يبيع علب سجائر مزخرفة. أرسلته لك، وقالت ليدا أنكم ستساعدونه.

أجبته:

ـ لقد جاء، لقد جاء، بالطبع، وأرسلته إلى الجحيم، سأكون ممتناً جداً لك لو لم ترسل لي أي محتالا. يمكنك أن تخبر زميلك ألا يزعجني بالمجيء ثانية. هذا غريب حقاً. قد تعتقد أنني فاعل خير. اذهب إلى الجحيم مع بيريبرودوف، أنا ببساطة أمنعك إرسال مثل هذه النماذج إلي!

قالت ليدا بهدوء.

ـ جيرمان، جيرمان.

عفطُ أردالیون بشفتيه، تعبيراً عن فشل مساعيه. وقال

ـ حكاية محزنة.

واصلت لبعض الوقت بتوبيخه، لا أتذكر الكلمات التي تلفظت بها بالضبط، لكن هذا لا يهم.

قال أردالیون وهو يسترق النظر إلى ليدا:

ـ في الواقع، أعتقد أنني ارتكبت خطأً. مذنب.

صمتُ فجأة، واستغرقت في التفكير، ورحت أحرك الشاي، الذي كنت قد حركته بملعقة، وبعد فترة قلت بصوت عالٍ:

- يا لي من غبي.

قال أردالیون بلطف:

- حسناً، لماذا المغالاة هكذا، دفعة واحدة.

جعلني غبائي مرحا، كيف لم يخطر ببالي أنه إذا ظهر فعلا (وسيكون ظهوره بحد ذاته معجزة، لأنه لا يعرف حتى اسمي)، ستنصعق الخادمة حتماً من أن شبيهي وقف أمامها! الآن تخيلت بوضوح كيف ستصرخ، وكيف ستهرع لي، وكيف ستتكلم لاهثة في سرعة وحماس، وتزعق بصدد التشابه... كنت سأشرح لها أن هذا أخي، وصل بشكل غير متوقع من روسيا... لقد أمضيت يوماً طويلاً وحيداً في معاناة عقيمة، وبدلاً من أن استغرب من ظهوره ومجيئه لي، حاولت أن افهم ما سيحدث بعد أن غادر دون أن التقي به: هل ذهب إلى الأبد، أم سيظهر مرة أخرى، وما كان يدور في خلده، وهل من الممكن الآن تجسيد حلمي الذي لم يبارحني تماماً، حلمي الغريب والرائع، أم أن العشرين شخصا الذين يعرفونني بالوجه رأوه في الشارع، وذهب كل شيء هباءً ومن دون جدوى. وإذ فكرت في حماقتي وبالخطر الذي تبدد بسهولة، خامرني الشعور، كما قلت، بتدفق المرح، وطيبة القلب.

- أنا اليوم متوتر. آسف. لأكون صادقا، ببساطة أنني لم أرَ صديقكما اللطيف بيريبرودوف. لقد جاء في وقت غير مناسب، إذ كنت أغتسل، وأخبرته إلزا أنني غير موجود في المنزل. هاك أعطه هذه الماركات الثلاثة عندما تراه، لا تجود يد إلا بما تجد، لكن أخبره أنني غير قادر على منحه المزيد، دعه يلجأ، على سبيل المثال، إلى دافيدوف فلاديمير إيزاكوفيتش.

سارع أردالیون بالقول:

- هذه فكرة. أنا بنفسي استدين من هناك، بالمناسبة إن فاسا

بيريبرودوف هذا يشرب مثل الحيوان، اسألوا عن ذلك عمتي تلك التي تزوجت من مزارع فرنسي ـ لقد سبق وان حدثتكم عنها ـ امرأة حيوية، ولكنها بخيلة للغاية، كانت لديها ضيعة بالقرب من منطقة فيودوسيا على البحر الأسود، في العام العشرين شربنا أنا وفاسكا كل زجاجات الخمر المخزونة في قبو ضيعتها.

قلت مبتسما:

ـ سنتحدث عن إيطاليا لاحقاً، نعم، نعم، سنتحدث.

لاحظت ليدا أن:

ـ جيرمان له قلب من ذهب.

قلت بابتسامة واحدة:

ـ ناوليني السجق، يا عزيزتي.

في ذلك الوقت، لم أكن أفهم تماماً ما كان يحدث لي، لكنني الآن أفهم: تعاظم في داخلي من جديد وبشكل لا يُردع، مثل صوت خافت، ولكنه تصاعد بثقة، الاشتياق إلى شبيهي. بادئ ذي بدء، تم التعبير عن ذلك بأن ظهر لي مكان غامض في برلين، الذي قمت حوله بلا وعي تقريباً بدورات كاملة دفعني قوة محركة غامضة، صندوق وعموماً أخذ كل شيء مرتبط بالبريد يمارس بمعنى ما الضغط علي، وتأثير لا يمكن مقاومته: بريد كثيف الزرقة، سيارة صفراء ذات إطارات ثخينة، مع شعار طرازها الذي يحاكي نسر أسود تحت شبكة مبرد السيارة، ساعي بريد بحقيبة تتدلى على بطنه يسير ببطء في الشارع، بذلك البطء الخاص الذي يتمتع به العمال الحاذقون ذوي الخبرة، وآلة طوابع، كما لو ضيقت عينيها، زرقاء اللون بالقرب من المحطة، وحتى حانوت، حيث تراكمت، في ظروف شفافة، طوابع مختلطة مغرية وشهية لجميع البلدان. وأتذكر إنني وجدت نفسي ذات مرة، وتقريباً مثل شخص يسير أثناء

نومه، في زقاق مألوف، اقتربت من ذلك المكان الغامض والجذاب الذي أصبح مركز وجودي، لكنني عدت إلى رشدي، وقفلت راجعا، وبعد فترة، بعد بضع دقائق أو ربما في غضون أيام قليلة، لاحظت أنني مرة أخرى، دخلت ذلك الزقاق، ولكن من الجانب الآخر، وقد سار سعاة البريد ببدلاتهم ألزرقاء باتجاهي بلا مبالاة، وعند الزاوية تفرقوا كل إلى وجهته. استدرتُ راجعا، وانا اقضم أظافري، هززت رأسي، وقاومت نفسي مرة أخرى. الشيء الرئيس: كنت أعرف، بغريزة وبلا لبس، أن هناك رسالة لي، أنها كانت تنتظر طلبي، وعرفتُ أنني عاجلاً أم آجلاً سأستسلم للإغراء.

الفصل VII

بادئ ذي بدء: اقتبس عبارة من أحد الكتب، غير مكرسة لهذا الفصل وحسب، بل بشكل عام: الأدب هو حب الناس. والآن دعونا نكمل.

كان مكتب البريد معتماً تقريباً. وقف عند النوافذ اثنان أو ثلاثة أشخاص، اغلبهم من النساء. وفي كل نافذة، يمكن للمرء أن يرى وجه موظف مثل صورة قاتمة. وهناك نافذ رقم تسعة. لم أقرر المضي نحوها مباشرة... ذهبت أولاً إلى طاولة قائمة في منتصف الغرفة ـ طاولة فُصلت بحواجز فتحولت إلى مكتب، تظاهرت أمام نفسي أنني بحاجة إلى كتابة شيء ما، ووجدتُ ورقة فاتورة قديمة في جيبي، وشرعتُ ادبج في ظهرها أول كلمات خطرت على بالي. كان قلم البريد الموضوع الطاولة يصر بشكل مزعج، أدخلته في فوهة المحبرة، في الحبر الأسود الشبيه بالبصاق، وكانت قطعة القماش التي وضعت فوق الطاولة للكتابة عليها مليئة بآثار مختلف سطور كتبها الزوار الآخرين، وقد أنشأت زخرفة لسطور غير مفهومة، تقاطعت بين بعضها الآخر بخطوط غدت معكوسة من اليمين إلى اليسار، مما يذكرني دائماً بالمرآة، سالب على سالب يعطي زائد.

لقد خطر لي أن فيليكس، أيضاً هو أنا في وضع معكوس لي، سالب. فكرة ذات أهمية مذهلة، التي من العبث إنني حينئذ لم أفكر فيها

حتى النهاية. كان القلم الرفيع قد سطر هذه الكلمات العشوائية: «لا، لا أريد، أريد، فين، أريد، لا تفعل، الجحيم.» دعكتُ الورقة في قبضتي، في هذه الأثناء حشرت امرأة سمينة بمعطف من فرو أستراخان، نفسها في الطاولة التي اجلس خلفها، وأمسكتْ بالقلم الذي تركتهُ، ووجهت لي ضربة بعجيزتها الثخينة. وجدتُ نفسي فجأة أمام النافذة رقم تسعة. نظر إليّ وجه كبير بشارب شاحب، متسائلا. همستُ له بكلمة السر. مدت لي يد، بكيس صغير اسود على إصبع السبابة، ثلاث رسائل. بدا لي أن كل هذا حدث في طرفة عين. وفي غضون هنيه كنت أسير في الشارع، ضاغطاً الرسائل بيدي على صدري. وما أن وصلت إلى أقرب مقعد، حتى جلستّ وفضضت الرسائل بنهم.

انصبوا يا معشر البشر تمثالا حيث قرأت الرسائل، ليكن على سبيل المثال، عموداً أصفر، دعوه يكون علامة فاصلة مادية لحدود هذه اللحظة. جلستُ وباشرت القراءة، وفجأة كدت اختنق من ضحك مفاجئ لم أتمكن من مقاومته. أيها السادة، أن هذه الرسائل كانت ذات طبيعة استفزازية. تخيلوا ابتزاز في رسالة ربما لن يأتي أحد لاستلامها، إنها لمفارقة مجنونة باعثة على الضحك، كتابة رسالة ابتزاز تُرسل ليتم استلامها حسب الطلب، ومرهونة برمز، وهذا يعني إقرار صريح بأن المرسل لا يعرف عنوان أو اسم المستلم. كان الابتزاز خفي في الرسالة الأولى من هذه الرسائل (أرسلت بتاريخ منتصف شهر نوفمبر / تشرين الثاني). فاحت بالاستياء، وطالبتني بتقديم توضيح، كما لو رفع كاتب الرسالة حاجبيه متعجبا، ولكنه مستعد ليبتسم، إنه لم يفهم، وأراد أن يفهم حقاً، لماذا تصرفتُ بهذا الشكل الغامض، ولم اشرح له للنهاية، واختفيت في منتصف الليل... ومع ذلك كانت لديه بعض الشكوك، بيد أنه لم يرغب بعد في الحديث بعلانية عن شكوكه، وهو على استعداد لإخفاء هذه الشكوك عن العالم، إذا ما تصرفتُ كما يجب. وعبر بكرامة

عن استغرابه، وانتظر الجواب بكرامة. إلى جانب ذلك كُتب هذا الابتزاز تماماً بلا مهارة، وفي نفس الوقت بتكلف. كان هذا المزيج هو أسلوبه. وفي الرسالة التالية المؤرخة في نهاية ديسمبر/ كانون الأول (يا له من صبر: انتظر شهراً) سُمعت نغمة الابتزاز بشكل أكثر وضوحا. وكان جليا لماذا على العموم كتب لي. لقد عذبت روحه ذكرى الورقة النقدية من فئة ألف مارك، الشبح الرمادي الضارب للزرقة، الذي ومض أمام انفه وتوارى فجأة. لقد هيجتُ أطماعه لأقصى حد، كما لعق شفتيه الجافة، ولم يستطع أن يغفر لنفسه السماح لي بالخروج ومعي الحفيف المغري الذي حك أطراف أصابعه. كتب أنه مستعد لمقابلتي مرة أخرى، وانه فكر كثيراً خلال هذه الفترة، وإذا ما تهربت، أو ببساطة لن أرد على رسائله فسيضطر... وهنا بقعة حبر ضخمة بين السطور، وضعها النذل عمداً ـ بهدف إثارة اهتمامي ـ نظراً لأنه تماماً لم يعرف، أي تهديد يعلن بالذات ـ وأخيراً الرسالة الثالثة، مؤرخة بتاريخ شهر نوفمبر/ تشرين الثاني، كانت بالنسبة لفيليكس تحفة حقيقية. أتذكر تفاصيلها أكثر من الأخريات، نظراً لأنها بقيت بحوزتي لفترة أطول من الأخريات... «إن عدم تلقي إجابة على رسائلي السابقة، جعلني أفكر بأن الوقت قد حان لاتخاذ التدابير المعروفة، لكني أمنحك شهراً آخر للتفكير، الذي سأتوجه بعده إلى مكان حيث سيجري تقييم ممارساتك بشكل كامل وتام، وإذا لم أجد تعاطفا هناك، نظراً لأن هناك أيضاً أشخاص فاسدون، فسألجأ إلى التأثير بطرق أخرى، التي أترك لك تماماً أن تتخيلها، لأنني أعتقد أنه عندما لا تريد السلطات، معاقبة المحتالين، فمن واجب كل مواطن نزيه إثارة فضيحة وصخب حوله، لتضطر الدولة بشكل لا إرادي القيام برد فعل, ولكن، لتفهمي وضعك الشخصي، ولأسباب تتعلق بالطيبة واللطف والالتزام، فأنا مستعد، للتخلي عن نواياي ولن أقوم بأي ضجة بشرط أن ترسل لي، من فضلك، مبلغاً كبيراً

إلى حد ما خلال هذا الشهر لتغطية جميع أشكال القلق والاضطراب التي تحملتها، والذي أترك تحديد مقداره لحضرتك». التوقيع: «العصفور»، وأدناه عنوان مكتب بريد المقاطعة.

لقد استمتعت لفترة طويلة بهذه الرسالة الأخيرة، التي من الصعوبة إيصال جمالها من طريق ترجمتي لها. لقد أعجبت بكل ما جاء فيها: التدفق المهيب للكلمات غير المقيدة بنقطة أو فارزة واحدة، والدناءة الغبية التافهة لهذا الرجل بريء المظهر، والموافقة الضمنية على أي من مقترحاتي مهما كانت بشعة، فقط أن يدخل المبلغ سيئ السمعة في جيبه. لكن الشيء الرئيس الذي أمتعني بقوة وامتلاء وكان من الصعب حمله، هو أن فيليكس بدأ يظهر مجدداً بإرادته، من دون أي إكراه مني، ويقدم لي خدماته. إضافة إلى ذلك، أجبرني على قبول هذه الخدمات وفْعِل ما أريده، وفي نفس الوقت، كما لو إنه أعفاني من كل مسؤولية عن التسلسل القاتل للأحداث.

رحت أرتجُ من شدة الضحك، وأنا جالس على ذلك المقعد. أوه، أقيموا نصبا تذكارياً هناك ـ عمود أصفر ـ ارفعوه بكل المقاييس! فهل تخيل هذا الأحمق أن رسائله ستبلغني عن خبر وصولها للبريد بطريقة ما، بتوارد خواطر؟ وسوف أقرأها بأعجوبة، وبأعجوبة سآخذ على محمل الجِد تهديده الفارغ. والمدهش أنني شعرت حقاً بوجود رسائله في النافذة رقْم تسعة، وكنت سأرد عليها حقاً، كما لو كنت خائفاً فعلا من تهديداته، أي جرى تنفيذ كل شيء على وفق افتراضه هو، وغبائه الوقح الذي لم يُسمع بمثله من قبل. وبينما كنت جالساً على المقعد وأنا أمسك بهذه الرسائل في أحضاني الدافئة، شعرتُ أن معالم خطتي تحددت بشكل نهائي، وأن كل شيء غدى جاهزا، أو جاهزاً تقريباً، فقط كنت بحاجة لوضع لمستين أو ثلاث، ولن ينطوي وضعها على أيما صعوبة. وما هو الجهد والعناء في هذا المجال؟ فمنذ اللحظة الأولى التي

رأيت فيها فيليكس، أُنجز كل شيء بتلقائية دون تدخلي، وتدفق كل شيء وامتزج بسلاسة، واتخذ أشكالاً حتمية، أوه، فهل يمكن للمرء أن يتحدث عن الجهد والعناء، عندما يتعلق الأمر بتناغم الكميات الرياضية، وعن حركة الكواكب، وعن قوانين الطبيعة النظامية. لقد شُيد المبنى الرائع من دون مشاركتي، كما يجب أن يكون، بصرف النظر عني. نعم، لقد كان كل شيء منذ البداية ملائما لي. وعندما سألت نفسي حينئذ ما الذي سأكتبه إلى فيليكس، أدركت من دون مفاجأة أن هذه الرسالة كانت موجودة بالفعل في ذهني، جاهزة مثل برقيات التهنئة، ذات الرسم الصغير، التي بوسع المرء إرسالها بتكلفة بسيطة إلى المتزوجين حديثا. يتعين فقط وضع التاريخ في النموذج النهائي، وهذا كل شيء.

دعونا نتحدث عن الجريمة، وعن فن الجريمة، عن حيل الورق، أنا مهتاج جداً الآن. يا كانون دويل! كم كان بميسورك أن تكمل إبداعك بطريقة رائعة، عندما ساورك الشعور بالملل من أبطالك! يا لها من فرصة سانحة أتيحت لك، أي موضوع أضعته! فقد كان بوسعك كتابة قصة أخيرة، تختم بها ملحمة شيرلوك هولمز برمتها، قصة تتوج كل قصصك السابقة: يجب ألا يكون القاتل فيها المحاسب الأعرج ولا تشينغ الصيني ولا المرأة في الأحمر، بل مدون السجل الجنائي برمته: الدكتور واطسون نفسه، حتى يكون واطسون، إذا جاز التعبير: «المتهم واطسون»... ستثير لدى القارئ دهشة غير متناهية! ليس كونان دويل، بل فيودور دوستويفسكي، وموريس لوبين، وإدغار والآس، كل الروائيين العظماء الذين كتبوا عن المجرمين الأذكياء، وكل المجرمين العظماء الذين لم يقرأوا الروائيين الأذكياء! كلهم جهلة مقارنة بي. وكما يحدث مع المخترعين العباقرة، من دون ريب، فقد ساعدتني المصادفة (اللقاء مع فيليكس)، لكن هذه الحالة وقعت فقط في القالب الذي أعددته مسبقا، لقد لاحظتُ هذه الحالة واستعملتها، ولو كان أي شخص آخر

في مكاني لما لاحظها. إن إبداعي يشبه لعبة سولتير أُعدت سلفاً: لقد بسطتُ البطاقات المفتوحة بحيث تتوافق بينها، وجمعتُها ثانية كما يجبْ، وأعطيتُ شدة ورق اللعب المعدة سلفاً، للآخرين وطلبتُ منهم بسطها. أضمن أن الحظ سيكون حليفهم! كان خطأ أسلافي من كتاب القصص البوليسية ومنفذي جرائم القتل الذين لا حصر لهم، هو أنهم عدّوا الفعل نفسه هو الشيء الرئيس، وأولوا جل الاهتمام لكيفية إزالة آثار الجريمة بعد تنفيذها، أكثر مِن الاهتمام بالذات بكيفية إيصال القضية إلى الفعل بطريقة طبيعية، نظراً لأن الفعل سلسلة واحدة، قطعة واحدة، سطر واحد، ولابد أن ينجم طبيعيا من كل مما كان قبله، وهذه مِيزة وخاصية جميع الفنون. إذا تم تصور الفعل وجرى تنفيذه بشكل صحيح، قوة الفن تتجلى في أنه لو ظهر المجرم في اليوم التالي واعترف بجريمته، فلن يصدقه أحد، إن خيال الفن أكثر صدقاً من حقيقة الحياة.

أتذكر أن كل هذا ومض في رأسي عندما كنت جالساً على المقعد وفي يدي الرسائل، ولكن كان تلك حالة، والآن أصبحت حالة أخرى، أود الآن أن أجري تصحيحا طفيفا، وهو كما يحدث بالضبط مع الحكايات الفنية السحرية، التي لا تعترف الغوغاء بها لفترة طويلة، ولا يفهمونها، لأن جاذبية السحر والفتنة لا تغويهم، وهذا ما يحدث مع الجريمة التي جرى رسم خطة كاملة لها بإحكام بعبقرية: لا يعترفون بعبقرياتها، ولا يندهشون بها، لكنهم يبحثون على الفور عن شيء للنقد والتنديد لمؤلفها، ويبحثون عن أكثر الوسائل إيلاما لإيذاء المؤلف، ويلوح لهم أنهم اكتشفوا الزلة المرجوة بعمله، لذا فهم يسخرون، ولكنهم هم المخطئون وليس المؤلف، إذ ليس لديهم ذلك النظر العجيب الثاقب الذي يتمتع فيه المؤلف، ولا يرون شيئاً غريبا، حيث يرى المؤلف أعجوبة.

بعد أن ضحكتُ، هدأت، وفكرت بوضوح في خطواتي التالية،

وضعت الرسالة الثالثة الأكثر مشاكسة، في محفظتي، ومزقت الاثنين الآخرين إلى قطع صغيرة، وألقيت بهما في شجيرات حديقة مجاورة، وفي هذه الأثناء حلقت عدة عصافير، معتقدة أنها فتات. ومن ثَم، عند عودتي إلى مكتبي، طبعت خطاباً إلى فيليكس مع تعليمات مفصلة حول أين ومتى عليه أن يظهر، وأرفقتُ عشرين ماركا، وخرجت مرة أخرى. كان من الصعب عليّ دائماً أن فك أصابعي التي تمسك بالرسالة فوق فتحة صندوق البريد، إنه مثل القفز في الماء البارد أو في الهواء بمظلة، والآن على وجه الخصوص كان من الصعب عليّ إنزال الرسالة في الصندوق. أتذكر، إنني شعرت بالغثيان، سرت في الشارع، ماسكاً الرسالة بيدي، وتوقفت عند الصندوق التالي وتكررت نفس القصة مشيت قدما للأمام وانا مثقل بالخطاب، كما لو كنت منحنيا تحت عبء هذا الحمل الأبيض الضخم، ورأيت عبر حارة مرة أخرى صندوقا. لقد سئمت بالفعل من ترددي الذي لا سبب ولا معنى له تماماً، في ضوء صلابة نواياي، ربما لا يعدو غير تردد جسدي أو ميكانيكي، أو عدم رغبة عضلات يدي في الاسترخاء وترك الرسالة تنزل في الصندوق، أو أي شيء آخر، كما يقول المعلق الماركسي (والماركسية تقترب اكثر من أيما فلسفة أخرى من الحقيقة المطلقة، نعم يا سادتي)، إنه تردد البرجوازي صاحب الملكية الخاصة، الذي لا يستطيع التخلي عن ملكيته الخاصة، وهذا تقليد طبقي يسري في عروقه، في دماءه، وفي هذه الحالة، قستُ ملكيتي الخاصة ليس فقط بالنقود التي أرسلتها، ولكن بجزء من روحي التي وضعتُها في سطور الرسالة. ومهما كان الأمر، فقد تغلبت على ترددي عندما اقتربت من صندوق البريد الرابع أو الخامس، وعرفت بنفس اليقين الذي أعرفه الآن أنني سأكتب هذه العبارة، أنني حتماً سأُنزل الخطاب في الصندوق، وحتى سأقوم بعد ذلك بإشارة ما، بصفق راحتي يدي، كما لو أن بعض جزيئات الغبار قد لصقت في

القفازات من هذه الرسالة التي أنزلتها بالفعل ولم تعد ملكي، وبالتالي فإن الغبار الناتج عنها ليس كذلك من عملي، وتم إنجاز المهمة، وكل شيء نظيف، وانتهى كل شيء، ولكني لم أرمِ الخطاب بعد في الصندوق، تسمرتُ، وما زلت اشعر بوطيء الحملِ، استرقتُ النظر إلى فتاتين تلعبان بالقرب مني على اللوح: تناوبن على رمي كرة قوس قزح زجاجية، مستهدفات الفتحة التي يحدها اللوح على الأرض. اخترت الصغرى، النحيفة، ذات الشعر الداكن، كانت في فستان خفيف، وتساءلت بذاتي كيف لا تشعر بالبرد في يوم فبراير/ شباط القارس هذا؟ وربَّتُ على رأسها قائلاً لها:

ـ اسمعي، يا حبيبتي، لا أستطيع أن أرى جيدا، أنا قصير النظر للغاية، أخشى ألا أُنزل الخطاب في فجوة الصندوق، ضعي الرسالة بدلا مني في هذا الصندوق.

نظرتْ لي، ونهضت من جلستها القرفصاء، كان وجهها صغيراً، شاحباً بشكل واضح وجميل بشكل غير عادي، أخذتْ الخطاب، وابتسمت بشكل رائع، ورفرفت رموشها الطويلة، وركضت إلى الصندوق. لم أر البقية، بيد أني عبرت الشارع، محدقاً (يجب ملاحظة ذلك)، كما لو أنني أعاني من قصر النظر فعلا، وكان هذا فناً من أجل الفن، لأنني قد أصبحت بعيدا. ودلفت في زاوية الساحة التالية، إلى كشك للاتصالات ذي واجهة زجاجية واتصلت بأردليون: كنت بحاجة إلى فعل شيء حياله، لقد قررت منذ فترة طويلة أن رسام اللوحات المُرتاب هذا هو الشخص الوحيد الذي يشكل خطراً عليّ. دع علماء النفس يكتشفون ما إذا كان قصر نظري المزعوم قادني إلى فكرة تحقيق ما كنت قد خططت له منذ فترة طويلة بشأن أردا ليون، أم على العكس من ذلك، دفعتني الذكرى المستمرة لعينيه الخطيرتين إلى الزعم بقصر النظر. أوه، بالمناسبة، بالمناسبة... سوف تكبر، هذه الفتاة، ستكون

جميلة وربما سعيدة، ولن تعرف أبداً في أي عمل غريب ورهيب عملت كوسيط، ولكن، بالمناسبة، هناك ربما شيء آخر: القدر لا يتسامح مع مثل هذه الوساطة غير الواعية والساذجة، القدر الحاسد، الذي يحسن العيش بطريقة جميلة، ويعرف هو نفسه الكثير عن الحيل التافه، سيعاقب هذه الفتاة بشدة على تدخلها، وسوف تتساءل لماذا أنا تعيسة للغاية، ولماذا حل بي هذا المصير، ولن تفهم للنهاية أي شيء. إن ضميري مرتاح. فإنا لم أكتب إلى فيليكس، بل هو الذي كتب لي، ولم أرسل له رد، ولكن طفلة مجهولة أرسلتها له.

دلفتُ إلى مطعم متواضع، ولكنه مريح، حيث تضج الساحة المقابلة في أماسي الصيف، وتدور نافورة كنسيج حريري، مضاءة ببراعة من الأسفل بمصابيح متعددة الألوان (وأصبح الآن كل شيء عار وكابي، فالنافورة الآن فقدت حيويتها). كانت الستائر السميكة في المقهى تمنع تسلل التيارات الهوائية الباردة: يا لي من كاتب ماهر اكتب بصورة جيدة، والأهم من ذلك، أنا هادئ، هادئ تماماً. عندما وصلت المطعم، كان أردالیون يجلس هناك، وما أن رآني، حتى رفع يده بأسلوب روماني. خلعتُ قفازي ووشاحي الحريري الأبيض وجلست بجواره، واضعاً علبة سجائر باهظة الثمن على الطاولة.

سأل أردالیون، الذي كان يتحدث دائماً بنبرة صاخبة.

ـ ما الجديد الذي ستقوله؟

طلبت القهوة وبدأت شيئاً مثل هذا:

ـ لدي شيء لك حقاً. يا صديقي يعذبني مؤخراً الوعي بأنك تحتضر. يبدو لي أنه بسبب الصعوبات المادية وخلفية عفونة حياتك اليومية فأن موهبتك تموت وتذبل، لا تبدو في اقوى صورها، مثلما الآن في الشتاء لا تصخب النافورة الملونة في الساحة المقابلة.

قال أردالیون باستیاء:

ـ أشكرك على المقارنة.

تابعتُ متجاهلا ملاحظته المبتذلة:

ـ لقد ناقشنا أنا وليدا أكثر من مرة وضعك الذي لا تُحسد عليه. يبدو لي أنه يجب عليك تغيير الجو، والانتعاش، واكتساب انطباعات جديدة.

وتساءل أردالیون متجهماً.

ـ ما علاقة الجو هنا.

ـ أعتقد أن الجو المحلي يدمرك، إذن له يد بذلك. هذه الورود والخوخ التي تزين بها مطعم صديقتك، صاحبة الشقة، وهذه الصور لأشخاص محترمين تسعى جاهداً لتناول العشاء معهم...

ـ طيب، أنا أبذل قصارى جهدي...

ـ ربما يكون كل هذا ممتازا، بل وحتى رائعا، ولكن، معذرة للصراحة، إلى حد ما بلا عمق، واضطراري. كان يجب أن تعيش وسط طبيعة أخرى، تحت أشعة الشمس، فالشمس صديقة للفنانين. على ما يبدو أن هذه المحادثة غير ممتعة لك. دعنا نتحدث عن شيء آخر. أخبرني، على سبيل المثال، كيف هو وضع قطعة أرضك؟

ـ الشيطان يعرف. يرسلون لي رسائل باللغة الألمانية، وأود أن أطلب منك ترجمتها، ولكن هذا ممل، وأنا أما أفقد هذه الرسائل أو أمزقها. يبدو أنهم يخطرونني عن إضافات على السعر. في الصيف سأقوم ببناء منزل هناك. وبعد ذلك لن يسحبوا الأرض من تحته. لكنك قلت شيئاً، عزيزي، عن تغيير الجو. تفضل، أنا أصغي.

ـ أوه، لماذا أتحدث، فأنت غير مهتم. أقول أشياء معقولة، فتنزعج منها.

ـ ليسامحك المسيح، لماذا أتضايق؟ بالعكس بالعكس..

ـ لا لماذا، لا؟

ـ أنت، يا عزيزي، جئت على ذكر إيطاليا. تابع الحديث. أحب هذا الموضوع.

قلت بضحكة:

ـ لم أعد أذكرها. ولكن بما أنك نطقت بهذه الكلمة... بالمناسبة هنا مكان مريح جداً. يقولون إنك توقفت مؤقتا...؟

ونقرتُ رقبتي بأصبعي، دلالة على شرب الخمور.

ـ لم أعد أتناولها. ولكن الآن، لو تعرف أود شيئاً ما بصحة الجماعة... مثلاً نبيذ العنب الخفيف «سوسناك»... كلا، أنا أمزح.

ـ نعم، هذا ليس ضروريا، إنه عديم الفائدة، من المستحيل أن أشرب على أي حال، هكذا تبدو الآمور. أوه، لم أنم جيداً اليوم... أوه، أوه، الأرق شيء فظيع ـ تابعتُ وانا أنظر إليه من خلال الدموع ـ أوه... آسف، لقد تثاءبت.

كان أردالیون يبتسم ابتسامة حالمة، وهو يلعب بملعقته. كان وجهه السميك ذو قصبة الأنف الأسدية، مائلاً، وجفونه الحمراء مغطاة برموش ثؤلوليه غطت نصف عينيه اللامعتين بشكل شنيع. فجأة أومض في وجهي وقال:

ـ لو ذهبتُ إلى إيطاليا، كنت سأرسم أشياء فاخرة حقاً. وسأقوم على الفور بسداد ديوني من عائداتها.

سألته باستخفاف:

ـ ديون؟ هل عليك ديون؟

رد، ولأول مرة، على ما يبدو، يناديني باسمي الأول وباسم عائلتي،

ـ حسبك، يا جيرمان كارلوفيتش، أنت تفهم إلى أين أنا ذاهب. أقرضني مئة أو مئتين، وسأصلي من أجلك في كل كنائس فلورنسا.

فقلت له:

ـ ها خذ الآن لإخراج تأشيرتك. فقط استخرجها على الفور وإلا ستنفق المبلغ على المشروبات. اذهب صباح الغد.

قال أردالیون:

ـ أعطني يدك.

لذنا بعض الوقت في الصمت، هو من فيض المشاعر التي لا تهمني كثيراً، وانا من أن العمل قد تم، ولم يكن هناك شيء نتحدث عنه.

هتف أردالیون فجأة:

ـ لدي فكرة، لماذا يا عزيزي، لا تدع ليدا تذهب معي، لأن هنا ملل فظيع، والسيدة بحاجة للترفيه. لتذهب معي لمدة شهر، ما تقول؟

ـ ربما ستلتحق بك لاحقاً، سنأتي معاً، فأنني كنت أحلم منذ فترة طويلة القيام بسفرة سياحية قصيرة. طيب، يجب أن أذهب. كوبان من القهوة، هذا كل شيء، على ما يبدو.

الفصل VIII

ذهبتُ في الصباح الباكر لليوم التالي، ولم تكن الساعة التاسعة بعد، إلى إحدى المحطات المركزية لمترو الأنفاق، واتخذت هناك موقعاً استراتيجياً عند المَخْرَج. تدفقت من الجوف الحجري للخارج بين فترات زمنية متساوية، مجاميع بشرية الواحدة بعد الأخرى، يحملون حقائب، صاعدين السلم، خافقين بأحذيتهم في أثناء السير، ضاربين الأرض بأقدامهم، وأحياناً يصدم حذاء بصلصلة بمعدن إعلان دعائي، وجدت إحدى الشركات أن من المناسب أن تكسو به مقدمة مدرجات السلم المتصاعدة. وظهر على المدرج قبل الأخير، عجوز متململ رث الثياب، ممسكاً بقبعته أمامه وظهره إلى الحائط (مَن كان أول شحاذ بارع وظف قبعته في مهنته؟). وقف أعلى منه باعة صحف صاخبين في قبعات وقد علقوا ملصقات على صدورهم. كان يوماً بائساً قاتماً. وعلى الرغم من أني في جوارب سميكة طويلة فقد تجمدت قدمي. وأخيرا، وبالضبط في التاسعة إلا خمسة دقائق، وكما توقعت، ظهر أورلوفيوس من الأعماق. استدرت على الفور ومشيت ببطء. لحق أورلوفيوس بي، ونظر بوجهي، وكشف عن أسنانه الجميلة، ولكن المزيفة. بدا اللقاء كما لو كان مصادفة، وهذا بالضبط ما احتجت له.

أجبت على سؤاله:

ـ نعم ذاهب في طريقك، أريد أن أذهب إلى المصرف.

قال أورلوفيوس وهو يتخبط بجانبي:

ـ طقس سيئ. كيف حال زوجتك؟

ـ شكراً لك، كل شيء على ما يرام.

وواصل بأدب.

ـ وهل تسير أمورك بخير؟

ـ ليس تماماً. مزاجي عصبي، وينتابني الأرق، كل الأشياء التافهة التي كانت ستسليني من قبل باتت الآن تزعجني.

قال أورلوفيوس:

ـ تناول الليمون.

ـ في السابق كان من الممكن أن تسليني، والآن تزعجني. على سبيل المثال... ـ ضحكتُ وأخرجت رسالة من محفظتي ـ تلقيت خطاب ابتزاز غبي، وقد أثر عليّ بطريقة ما. بالمناسبة، اقرأه، إنه مضحك.

توقف أورلوفيوس ورفع الورقة إلى القرب من نظارته. وبينما كان يقرأ، رحت أتطلع إلى واجهة متجر، عرض في واجهته نموذجين من أحواض الاستحمام والعديد من أدوات الحمام الأخرى بيضاء بطريقة مغرية وغبية، وبجانبه كان هناك متجر توابيت، وكان هناك كل شيء مهيب وغبي أيضاً.

قال أورلوفيوس:

ـ ولكن هل تعرف من كتب هذا؟

أعدت الرسالة إلى محفظتي وأجبته ضاحكا:

ـ نعم بالطبع أعرفه. محتال. كان يعمل عند أحد معارفي. غير طبيعي، حتى ببساطة كائن مختل العقل. رسخ في ذهنه أنني حرمته من

ميراث ما. أنت تعرف كيف يحدث هذا، فكرة ملحاحة، وثابتة لا يمكن للمصاب التخلص منها بأي صورة من الصور.

شرح أورلوفيوس لي بالتفصيل خطر المجانين على المجتمع، وسألني إن كنت سأذهب إلى البوليس.

هززت كتفي.

ـ هذا بوجه عام هراء، ولا يستحق الحديث عنه. ما رأيك في خطاب المستشار هل قرأته؟

واصلنا السير جنباً إلى جنب، وتبادلنا أطراف الحديث بهدوء، عن السياسة الخارجية والداخلية. عند باب مكتبه، ووفقاً لقواعد السلوك الروسية، شرعت في خلع قفازاتي.

قال أورلوفيوس:

ـ أنت عصبي، هذا سيئ. أتضرع إليك، انقل انحنائي تحية لزوجتك.

ـ سأنقلها، سأنحني لها عنك. فقط اعرف، إنني أحسدك لأنك أعزب.

سألني أورلوفيوس:

ـ كيف ذلك؟

ـ هكذا. من الصعب أن أتطرق إلى هذا الموضوع، لكن زواجي تعيس. لدى زوجتي قلب غير ثابت، إن قلبها يهفو لشخص آخر وتضمر المودة له، نعم، إنها مخلوق متقلب وبارد، لذلك لا أعتقد أنها ستبكي لفترة طويلة لو حدث لي... لو أني... اغفر لي، كل هذا حزن شخصي للغاية.

قال أورلوفيوس وهو يهز رأسه بتأمل عميق وحزن:

ـ لقد لاحظت عليها شيئاً من هذا القبيل منذ مدة طويلة.

صافحت يده وهي في القفافيز الصوفية، وافترقنا. لقد تمت العملية بصورة رائعة. من السهل جداً خداع الأشخاص مثل أورلوفيوس، نظراً لأن الاستقامة، مضاف لها رقة العواطف تعني فقط الغباء. انه مستعد للتعاطف مع أي شخص، إنه لم يقف فوراً وحسب إلى جانبي أنا الزوج المحب النبيل عندما شوهتُ سمعة زوجتي المثالية، ولكن قرر عن نفسه أنه «لاحظ» شيئاً ما، على حد تعبيره. يسعدني أن أعرف ما يمكن أن يلاحظه هذا الحمار ضعيف البصر في علاقاتنا الصافية. نعم، تم الآمر بصورة رائعة. وكنت راضياً. ولكانت سعادتي غامرة، لو لم تنشأ مشكلة أمام التأشيرة.

ملءَ أردالیون بمساعدة ليدا، الاستبيانات، ولكن اتضح أنه لن يحصل على تأشيرة قبل أسبوعين. بقي في الأقل حوالي شهر حتى التاسع من مارس/آذار، وكان بإمكاني دائماً أن أكتب إلى فيليكس بصدد تغيير تاريخ اللقاء معه.

حصل أردالیون أخيراً على تأشيرة، كان ذلك في الأيام الأخيرة من شهر فبراير/ شباط، واشترى لنفسه تَذْكِرَة. وأعطيته مائتي مارك أخرى بالإضافة إلى مبلغ التَّذْكِرَة. وقرر السفر لإيطاليا في الأول من مارس/ آذار، ولكن اتضح فجأة أنه أقرض شخصا ما نقود السفر واضطر إلى الانتظار حتى عودته. كان الأمر كما لو أن صديقاً قد جاء إليه، وأمسك بصدغيه وراح يبكي ويقول:

ـ إذا لم أحصل على مائتي مارك بحلول المساء، فسيهلك كل شيء.

حالة غامضة تماماً. وقال أرد ليون إنها كانت» كلمة شرف»، لكن لا أثق بشدة بالأمور الغامضة التي يشرك فيها الشرف، ولاحظوا ليس شرفه رث الثياب، بل دائماً شرف شخص ثالث أو حتى رابع، الذي يبقى اسمه مجهولا. كما لو أن أردالیون سلفة نقود السفر وأقسم ذلك بأنه

سيعيدها في غضون ثلاث أيام، وهي المهلة المألوفة لهؤلاء أحفاد الإقطاعيين. وبانتهاء المهلة ذهب أردليون للبحث عن المستدين، وبالطبع لم يجده في أي مكان. وسألته عن اسمه وأنا في سورة غضب عدوانية، فتردد أردليون وقال:

ـ هل تذكر من جاءك ذات مرة؟

كما يقولون، أظلمت الدنيا في عيني. وبعد أن هدأت. وربما لعوضته الخسارة، لو لم تتعقد المسألة بعدم وجود فائض من النقود لدي، إذ يجب حتماً أن يكون معي مبلغاً محدداً. وقلت له بأن يسافر كما هو، مع التَّذْكِرَة وبعض الماركات في جيبه، ومن ثم سأرسل له مبلغا. فأجاب أنه سيفعل ذلك، لكنه سينتظر يومين آخرين، ربما تُعاد النقود. وأبلغني في الثالث من مارس/ آذار عبر الهاتف أنه استرجع الدين، وأنه سيغادر مساء الغد. وفي الرابع من مارس/ آذار، اتضح أن ليدا، احتفظت لسبب ما بتذكرة أردليون، ولم تستطع الآن تذكر المكان الذي وضعتها فيه. جلس أردليون مغتما في الردهة وكرر:

ـ لا بأس، هذا يعني أن القدر حَكمَ بعدم سفري.

ومن بعيد ترامت طرقات الصناديق، وحفيف الورق المحتدم. كانت هذه ليدا التي تبحث عن التذكرة. وبعد ساعة، لوح أردليون بيده وغادر. جلستْ ليدا على السرير، تبكي بكاءً مراً. وفي صباح اليوم الخامس، عثرتْ على التَّذْكِرَة بين البياضات المتسخة المعدة للغسالة، وفي اليوم السادس ذهبنا لوداع أردليون.

يغادر القطار عادة في الساعة ١٠,١٠. توقف عقرب الساعة، وسدد إلى الدقيقة، وفجأة قفز عليها وصوب إلى التالية. ولم يأت ارادليون للمحطة في الوقت المحدد. وكنا قد انتظرناه عند عربة كُتب عليها «ميلان». تساءلت ليدا»

ـ ما المشكلة؟ لماذا لم يأت، أنا قلقة عليه.

أثارت كل هذه المماطلة الغبية في رحيل أرداليون، استيائي لدرجة أنني خشيت من أن اقطع صمتي واشرع في الكلام، فبخلافه سأصاب بنوبة ما هنا في المحطة.

اقترب منا شخصان من السادة البائسين، أحدهما يرتدي معطف ماكنتوش أزرق والآخر بالطو رُوسِيّ بياقة رثة من جلد الخراف، ومرا بجواري، وتصافحا مع ليدا بأدب.

ـ لماذا لم يأتِ لحد الآن؟ ما رأيكما؟

سألتهما ليدا، وهي تنظر إليهما بعيون تشي بالخوف، ماسكة بباقة من ورود البنفسج، التي وجدت من الضروري أن تشتريها لهذا الحيوان. نشر الماكنتوش يديه، وتحدث بصوت جهير كصوت خروف:

ـ كما يقال باللاتيني نسيموس، أي نحن لا نعرف.

شعرتُ بأن ليس بوسعي التماسك أكثر من ذلك، فاستدرتُ فجأة وذهبتُ نحو بوابة المحطة. لحقت ليدا بي:

ـ إلى أين أنت، انتظر، أنا متيقنة من أنه...

في تلك اللحظة ظهر أرداليون من بعيد. قام رجل كئيب بوجه متوتر بإسناده من مرفقه وحمل حقيبته. كان أرداليون في حالة سكر لدرجة أنه بالكاد يستطيع الوقوف على قدميه، فاحت رائحة الخمر من الكئيب أيضاً. صرخت ليدا:

ـ لا يستطيع السفر وهو بهذه الحالة!

كان أرداليون أحمر، تصببت على جبهته حبات من العرق، مرتبك، يتأرجح، دون معطف (حساب غامض لدفء الجَنُوب)، وراح يُقبل

الجميع. بالكاد تمكنت من الابتعاد عنه. قدَّمَ الرجل الكئيب نفسه لي، وبسط يده المبتلة إليّ:

ـ الفنان كيرن. لقد تشرفتُ بالالتقاء بك في فندق بالقاهرة.

كررت ليدا وهي تشد كمي:

ـ جيرمان، لا يمكننا السماح له بالسفر وهو في هذه الحالة.

في غضون ذلك، انصفقت الأبواب. اندفع أردااليون، وهو يتمايل ويصرخ خلف عربة بائع البسكويت، لكن أصدقاءه قبضوا عليه، وفجأة أمسك بذراع ليدا وأنشأ يقبلها باستمتاع، مرددا:

ـ آويه، أيتها الماعز. وداعا، أيتها الماعز، شكراً لك أيتها الماعز.

قلت بهدوء:

ـ أيها السادة، ساعدوني برفعه إلى العربة.

اخذ القطار يعوم. وظهر أردااليون من النافذة متهللا وصارخا. هرولت ليدا بجانب القطار وصرخت له بشيء. وعندما مرت آخر عربة نظرت منحنية إلى أسفل العجلات ورسمت إشارة الصليب. وواصلت حمل الباقة في يدها. غمرني شعور بالارتياح... أخذت نفساً عميقاً وأطلقت الهواء بصخب. كانت ليدا طوال اليوم قلقة بصمت، ولكن بعد ذلك وصلت برقية، بكلمتين «مرحباً من الطريق»، وهدأت. الآن جاء الشيء الأخير والأكثر مللاً: التحدث معها، لتدريبها.

لسبب ما، لا أتذكر كيف بدأت هذه المحادثة: أتذكر بوضح ذروتها وحسب. جلست ليدا أمامي على الأريكة وهي تتفرس بيّ بذهول صامت. أجلس أنا على طرف الكرسي، وأحياناً، مثل طبيب، ألمس معصمها، وأتحدث بصوت هادئ. قلت لها شيء لم أخبرها عنه بتاتا. أخبرتها عن أخي الأصغر. درس في ألمانيا عندما بدأت الحرب، واستدعيَ للالتحاق بالجيش، قاتل ضد روسيا. أتذكره صبياً هادئاً وكئيباً.

كان والداي يضرباننني، بينما دللاه، لكنه تعامل معهما بقسوة، وعاملني أكثر من أخ بصورة لا تصدق، وتبعني في كل مكان، ونظر في عينيّ، وأحب كلّما تعلق بي، أحب أن يشممني ودعك منديلي، وارتدى قميصي الذي لا يزال دافئا، ونظف أسنانه بفرشاتي. لا، ليس انحرافا، ولكن تعبيراً عملياً عن وحدتنا العضوية التي لا يمكن تفسيرها: لقد كنا متشابهين جداً مع بعضنا البعض لدرجة أن الأقارب المقربين خلطوا بيننا، وعلى مر السنين أصبح هذا التشابه لا تشوبه شائبة. أتذكر عندما ودعته في ألمانيا، لم يمض وقت طويل على إطلاق البوسني جافرلو برينسيب النار على ولي عهد النمسا فرانز فيرنارد، بكى المسكين كثيرا، كما لو كان يتوقع فراقاً طويلاً ومروعاً. تطلعوا لنا في المحطة، تطلعوا إلى هذين الشابين المتشابهين، الممسكين بعضهما بأيدي البعض وهما ينظران في عيون بعضهما البعض ببهجة الحزينة... ثم نشبت الحرب. ولم أسمع شيئاً عن أخي، وعندما كنت قابعاً في الأسر الروسي البعيد، كنت متيقناً، لسبب ما، أنه قُتل. كانت سنوات خانقة، سنوات حداد. ودربت نفسي على ألا أفكر فيه، حتى في وقت لاحق عندما تزوجت لم أخبر ليدا بأي شيء عنه، كان الأمر مؤلما للغاية. وبعد ذلك، بعد مدة وجيزة من وصولي أنا وزوجتي إلى ألمانيا، عرفتُ من قريب ألماني ظهر بصورة خاطفة، للحظة فقط، من أجل خبر واحد، مفاده أن أخي فيليكس حيّ يرزق، ولكنه مَيِّت معنويا وروحياً. لم أعرف أي انهيار روحي بالضبط... لا بد أن نفسيته الرقيقة لم تستطع تحمل محن ميادين القتال، وشوهت حياته فكرة أنني لم أعد حي ارزق (من الغريب إنه كان أيضاً متيقن من وفاة شقيقه)، وأنه لن يرى مرة أخرى محبوبه، بالأحرى النسخة المثالية لشخصيته، ولاح له أنه فقد السند والهدف في الحياة، ومن الآن فصاعداً سيعيش بصعوبة. فانحدر وانحطت أخلاقه. هذا الشخص، الذي كانت لديه روح رقيقة وشفافة مثل آلة الكمان، تورطَ

في السرقة والتزوير وشم الكوكايين، وفي النهاية ارتكب جريمة قتل: سمم المرأة التي احتضنته. عرفتُ عن الحالة الأخيرة من شفتيه. لم يُحَل إلى القضاء أبداً، لقد أخفى الجريمة بحذاقة. والتقيت به بالمصادفة، بصورة غير متوقعة ومؤلمة... إن الاكتئاب الذي لاحظته ليدا علي، كان بالذات نتيجة لذلك اللقاء، وقد جرى لقاءنا في براغ، في أحد المطاعم. أتذكر أنه نهض عندما رآني، وفتح أحضانه، وسقط على ظهره في إغماءه عميقة استمرت ثماني عشرة دقيقة. نعم، كان اللقاء فظيعا. لقد وجدت بدلا من الأخ الصغير الساذج، شخصاً مجنوناً ثرثاراً بحركات جسم حادة،... إن السعادة التي عاشها عندما قابلني، أنا عزيزه جيرمان، وبصورة مفاجئة، وببدلتي الرمادية الأنيقة، وكأني قمت من بين الأموات، ليس لم تعدل شؤونه الروحية وحسب، بل على العكس تماماً، أقنعته بعدم جواز العيش مع جريمة القتل الجاثمة على ضميره واستحالته. جرت محادثة مروعة بيننا، لثم يديّ، إنه ودّعني... وأدركت على الفور أنه ليس بوسع لأحد إقناعه بإعادة النظر في قراره بالانتحار، حتى أنا، الذي كان له مثل ذلك التأثير المثالي عليه. وكانت تلك دقائق شاقة عليّ. وإذ وضعت نفسي في مكانه، تخيلت جيدا، كيف تحولت ذاكرته إلى زنزانة محصنة، وأدركت، وللأسف، أنه لا يوجد له سوى مخرج واحد: الموت. لا قدر الرب لأي شخص معايشة مثل هذه الدقائق، رؤية كيف يموت أخيه، وليس له الحق الأخلاقي أن يحول دون موته... ولكن هنا الصعوبة تنحصر في أن التطلعات الروحانية الغامضة ليست غريبة على روحه، بالتأكيد إنها تعطشت إلى الفداء والتضحية في سبيل قضية، وبدا وكأن إطلاق رصاصة في جبهته غير كافية له. وقال فجأة:

ـ أريد أن أهدي موتي لشخص ما.

وامتلأت عيناه بضوء جنون الماسي لامع، وتابع.

ـ إننا أنا وأنت نشبه بعضنا الآخر أكثر من قبل. أشعر بوجود إرادة ألهيه في هذا التشابه. إن وضع الأيدي على البيانو لا يعني عزف الموسيقى، لكنني أريد الموسيقى. قل لي، هل يكون من المفيد لك أن تختفي من العالم؟

في البداية لم أفهم سؤاله، بدا لي أن فيليكس كان يهذي، لكن اتضح من كلماته الإضافية أن لديه خُطّة ملموسة. وهكذا! فمن جهة، هناك روحه التي تعاني بلا نهاية، ومن جهة أخرى تخطيطه لمشروعات ذات طابع عملي. وفي ضوء العاصفة الرعدية لمصيره المأساوي وبطولاته المتأخرة، لاح لي أن الجزء من خطته المتعلق بي بمنفعتي، وبسعادتي، غبي، بطابع مادي، مثل مانعة صواعق على سطح مبنى مَصْرِف، أضاءها فجأة برق ليلي.

بعد أن بلغت هذه النقطة تقريباً من قصتي، توقفت عن الكلام واستلقيتُ إلى الوراء على ظهر الكرسي، وشبكت ذِراعَيَّ وحدقت بنظرة ثاقبة في ليدا. انزلقتْ هي بطريقة ما من الأريكة على السَّجادة، وزحفت على ركبتيها، وضغطت رأسها على فخذي، وأنشأت تواسيني بصوت خافت:

ـ يا لك من مسكين ـ تمتمت ـ اشعرُ بالألم من أجلك، من أجل أخيك... يا **إلهي** كم هناك من الناس التعساء في الدنيا. ينبغي ألا يموت، يمكن إنقاذ أي إنسان.

أوضحت لها بأسامة مريرة:

ـ لا يمكن إنقاذه. قرر أن يموت في عيد ميلاده في التاسع من مارس/ آذار، أي بعد غد، حتى رئيس الدولة نفسه لا يستطيع الحيلولة دون ذلك. الانتحار جور وظلم. وكل ما يمكن أن نقوم به هو تحقيق نزوة الشهيد، والتخفيف من نصيبه بان يعي بأنه، عندما يموت يعمل

معروفا ويجلب المنفعة، أو بكلمة فظة يعود بمنفعة مادية، ولكنها مع ذلك تبقى منفعة. أمسكت ليدا بساقي وحملقت بي بعيونها الشوكولاتية. وتابعتُ أنا بصوت رتيب:

ـ خطته هي على النحو التالي، إن حياتي كما تعرفين مؤمنة. وسيتم العثور في مكان ما في الغابة على جثته فيعتقدون هو أنها جثتي. وأرملتي، أي أنتِ...

صرخت ليدا وهي تقفز من على السَّجادة.

ـ لا تقل مثل هذه الفظائع، لقد قرأت للتو هذه القصة في مكان ما...الرجاء اخرس.

.... ستحصل أرملتي، أي أنتِ، على النقود من شركة التامين على الحياة إذ سيتصورون إنني المُتوفّى. وبعد مدّة، تغادرين إلى مكان معزول هادئ. ومن ثم سأنضم لكِ متخفيا، وربما أتزوجكِ مرة أخرى باسم مختلف. سيموت اسمي مع أخي. نحن متشابهون معه، لا تقاطعيني، مثل قطرتين من الدَّم، وسيبدو شبيه بي بشكل خاص عندما يكون ميتا.

ـ قف قف! أعتقد أن من الممكن إنقاذه... أوه، جيرمان، ليس هناك ما أسوء من كل هذا... أين هو الآن، هنا في برلين؟

ـ لا، في الضواحي... أنت ترددين مثل حمقاء: أنقذه أنقذه... نسيتِ أنه قاتل وروحاني. من ناحيتي، لا يحق لي أن الامتناع عما يسهل له موته ويزينه. يجب عليك أِن تفهمي أننا هنا ندخل إلى عالم ما فوقاني. وأنا لا لم أقل لكِ إن أموري تسير بشكل سيء، وأنا أواجه الإفلاس، وسئمتُ من كل شيء، وأريد أن أذهب إلى مكان هادئ وأنغمس في التأمل وتربية الدجاج هناك، فدعينا نغتنم فرصة نادرة، لم أقل لكِ كل هذا، مع أنني أحلم بالحياة في حضن الطبيعة، لكني أقول شيئاً آخر، أقول: أنه وبغض النظر عن مدى صعوبة الأمر، ومهما كان مخيفا، لكن

لا يمكنني أن أرفض طلب أخي في احتضاره، وليس بوسعي منعه من فعل الخير، في الأقل مثل هذا الخير... سيموت هو، وسيعتقدون إنني المَيِّت وستدفع شركة التامين لكِ مبلغ التأمين على حياتي وسأعدل حياتي بها.

رمشت ليدا ـ لقد لطختُها تماماً بالبصاق ـ مع إني ألقيت الكلام على عواهنه، وتشبثت بي، وجذبتني، وواصلتُ:

.... إن مثل هذا الرفض خطيئة، ولا أريد تحمل وزر هذه الخطيئة، ولا أريد أن آخذها على عاتق ضميري. هل تظنين أنني لم أعترض عليه، ولم أحاول التفكير معه، هل تعتقدين أنه كان من السهل عليّ الموافقة على اقتراحه، هل تعتقدين أنني نمت كل هذه الليالي. عزيزتي، طوال نصف عام أنا أعاني ولا قَدَّر الرب أن يتعرض لمثل هذه المعاناة حتى ألد أعدائي. أنا حقاً بحاجة إلى الآلاف الماركات هذه! فكيف لي أن أرفض، أخبريني، كيف يمكنني في نهاية المطاف أن أعذبه وأحرمه من آخر بهجة... إيه، ليس بوسعي أن أقول أكثر من ذلك!

أبعدتها عني، وكدت أرميها، وبدأت في قطع الغرفة مجيئاً وذهوبا. ابتلعتُ دموعي، رحت انشج. تحركت ظلال قرمزية لميلودراما.

قالت ليدا بهدوء وهي تفرك يديها (نعم، أيها القارئ، قلت، تفرك يديها):

ـ أنت أذكى مني بمليون مرة، لكن كل هذا مخيف جداً، جديد تماماً، بدا لي أنه يحدث في الكتب فقط... فهذا يعني... أن كل شيء سيتغير تماماً، الحياة كلها... بعد كل شيء...على سبيل المثال، ما سيحدث لأردالیون؟

ـ طيب، ليذهب إلى الجحيم! نحن هنا نتحدث عن أعظم مأساة إنسانية، وأنت تدسين لي...

ـ كلا، لقد سألتُ فقط. لقد باغتني وأذهلتني، ليس بوسعي فهم ما يدور حولي. أفكر بانه سيكون من الممكن رؤيته مستقبلا، وأن نشرح له، جيرمان، ما رأيك؟

أجبتها مرتعشا:

ـ لا تقلقي بشأن هذه التفاهات، سنرى. ولكن في حقيقة الأمر (تحول صوتي فجأة إلى صرخة رقيقة)، أي نمط من الَحمقاوات أنت.

انفجرت ليدا بالبكاء وفجأة أصبحت طرية، رقيق، تشبثت بي مرتجفة: وقالت:

ـ آه، سامحني... أنا حقاً حمقاء. آه، سامحني. لقد امتلكني الرعب... كان كل شيء حتى هذا الصباح، واضحا تماماً، جيد جداً، كالعادة... لقد عانيتَ يا عزيزي، أنا آسفة بجنون لك. سوف افعل ما تريده.

ـ الآن أريد قهوة، حقاً أريدها.

قالت وهي تمسح دموعها:

لنذهب إلى المطبخ، سأقوم بكل شيء. فقط ابقي معي، أنا خائفة.

واصلتُ حديثي في المطبخ، مدت أنفها، لكنها هدأت، وضعت حبوب بن كبيرة في حلق مطحنة القهوة، وعصرتها بين ركبتيها، وأدارت مقبضها. في البداية استدارت المطحنة بعسر، مع طقطقة وفرقعة، ومن ثم أخذت تدور فجأة بسهولة.

قلتُ وأنا جالس على كرسي وَسَاقَيَّ تتدلى:

ـ تصوري يا ليدا، تصوري أن كل ما أخبرتكِ به هو حكاية مختلقة، أنا أوحيت بها لنفسي، وأن هذه قصة مختلقة تماماً أو قرأتها في مكان ما. وإن هذه هي الطريقة الوحيدة كي لا أصاب من الرعب بالجنون. وهكذا المنتحر العملي وشبيهه المؤمِن على حياته... هل تعرفين عندما

يموت حامل بطاقة التأمين منتحراً فإن شركة التأمين غير ملزمة بدفع التأمين.

قالت ليدا:

ـ لقد حَضَرتُ كوبا من القهوة الثقيلة للغاية، سوف تعجبك. نعم، أنا أستمع إليك.

ـ لذلك، فإن على بطل هذه الرواية المثيرة القيام بالإجراءات التالية: يجب تنظيم عملية الانتحار بطريقة بأن تعطي العملية انطباعاً بوقوع جريمة قتل. لا أريد الخوض في التفاصيل الفنية، ولكن باختصار: يكون المسدس متثبتاً بشجرة ويأتي من الزناد حبل، وعندما يستدير المنتحر يسحب الحبل فتنطلق الطلقة، شيء من هذا القبيل.

صاحت ليدا:

ـ آه، مهلة، تذكرت شيئاً: لقد ربط أحدهم مسدساً بالجسر بطريقة ما... كلا، ليس هكذا: لقد رَبْط حجراً بحبل... معذرةً، كيف كان الأمر؟ نعم: في إحدى النهايات حجر كبير وبالثانية مسدس، وأطلق النار على نفسه... وسقط الحجر في الماء، وتبعه الحبل من طريق السور والمسدس كذلك إلى هناك، كلها في الماء... لكنني لا افهم ما الحاجة إلى كل ذلك...

قلت:

ـ باختصار، الأداة في الماء، وهناك رجل مَيِّت على الجسر ليوحي أن أحداً ما قتله. القهوة شيء جيد. كان لدي صداع فظيع، والآن أصبحت حالتي أفضل بكثير. طيب، إذن، أنتِ، إذن، تفهمين كيف يحدث هذا...

شربتُ القهوة النارية في رشفات صغيرة وفكرتُ: إن خيالها لا يساوي قرشا واحدا. بعد يومين، ستتغير الحياة، بحدث لم يُسمع به من

قبل، زلزال... وهي تشرب القهوة معي وتتذكر مغامرات شارلوك هولمز... ومع ذلك، كنت مخطئاً: اختلجت ليدا وقالت، وهي تخفض كأسها ببطء:

ـ جيرمان، إذا كان هذا سيجري قريباً، فأنت بحاجة إلى البَدْء في حزم الأمتعة. وهل تعرف فإن الكثير من الغسيل في الغسالة، وبدلتك السموكن في التنظيف.

ـ في المقام الأول يا عزيزتي، لا أرغب مطلقاً في أن يتم حرقي في بدلة سموكن، ثانياً، انزعيها من رأسك، وَانْسَ تماماً وفوراً أنك بحاجة للقيام بشيء ما، والاستعداد لشيء ما، وما إلى ذلك. ليس عليك فعل أي شيء بسبب أنكِ لا تعرفي أي شيء، لا شيء على الإطلاق، وضعي هذا مثل حلقة في إذنك، تذكريه للأبد. لا تقومي بأي تلميحات غامضة لمعارفك، ولا ضجة ولا تسوق، تذكري ذلك بحزم، وإلا فسيكون ذلك سيئاً للجميع. أكرر: أنت لا تعرفي أي شيء. بعد غد سيذهب زوجك في سيارة ولن يعود. عندها، وعندها فقط سيبدأ عملك. إنه عمل بسيط، لكن عمل مسؤول للغاية. من فضلك استمعي لي بانتباه:

ـ في صباح اليوم العاشر تتصلين هاتفيا بأورلوفيوس وتخبرينه بأنني غادرت إلى مكانٍ ما، ولم امض الليل في المنزل، ولم أعد حتى الآن. وتسألينه ما ينبغي لك القيام به لاحقاً. افعلي ما يوصيكِ به. وعموماً دعيه يأخذ الأمور على عاتقه، يلجأ إلى الشرطة، وما إلى ذلك. والأهم من ذلك، حاولي إقناع نفسكِ بأنني قد مت فعلا. نعم، في النهاية سيكون الأمر كذلك، فأخي جزء من روحي.

قالت:

ـ سأفعل كل شيء. سأفعل كل شيء من أجله ومن أجلك. لكنني بالفعل خائفة للغاية، وكل شيء يختلط عليّ.

ـ لا تدعي الأمور تختلط عليكِ. الشيء الرئيس هو أن يكون حزنك طبيعي. لا تدعيه يكون مريراً للغاية، ولكن من دون تكلف وطبيعي. ولتسهيل مهمتك، ألمحتُ لأورلوفيوس بأنك لم تعد تحبيني منذ فترة طويلة. لذا، فليكن حزناً هادئاً وَمُنْضَبِطاً. تنهدي واصمتي. وعندما ترين جثتي، أي جثة الشخص الذي لا يمكن تمييزه عني، فإنك بالطبع ستصابين بصدمة.

ـ آه يا جيرمان، لا أستطيع. سأموت من الخوف.

ـ سيكون الأمر أسوأ بكثير إذا ظهرتِ في الغرفة الميتة مطلية الوجه بالمساحيق. على أي حال، تمالكي نفسك، لا تصرخي، فبعد الصراخ، سيتعين زيادة حزنك، وسينجم عن ذلك مسرح سيء. والآن ما العمل بعد ذلك. إيداع جسدي للمحرقة، وفقاً للوصية، واستكمال جميع الإجراءات الرسمية، وتستلمين من أورلوفيوس مستحقاتكِ والتصرف بها طبقاً لتوصياته، وتسافرين إلى الخارج، إلى باريس. أين ستنزلين في باريس؟

ـ لا أعرف، يا جيرمان.

ـ لا بأس، هل تذكرين أين وقفنا أنا وأنت عندما كنا في باريس؟

ـ نعم بالطبع أعرف. فندق.

ـ لكن أي فندق؟

ـ جيرمان عندما تنظر إليّ بهذه الصورة، لأستطيع تذكر أي شيء. أقول لك اعرف. فندق أو ما شابه.

ـ سوف أوحي لك: له عَلاَقَة بالعشب. ما العشب باللغة الفرنسية؟

ـ لحظة لأتذكر. إرب. آويه، تذكرتُ: ماليرب.

ـ ولكل الأحوال وفي حالة نسيانك مرة أخرى، إن علامة الفندق ملصقة على الصندوق الأسود. يمكنك دائماً رؤيتها.

ـ حسنْ، كما تعرف يا جيرمان، أنا مع ذلك لست مغفلة، وسآخذ الصندوق الأسود معي.

ـ هناك ستنزلين. وما سيأتي لاحقاً ليس شيئاً مهما للغاية. لكن كرري من جديد.

ـ سأكون حزينة. سأحاول ألا أبكي كثيراً. أورلوفيوس. سأطلب لنفسي فستانين من قماش أسود.

ـ مهلة. ماذا ستفعلين عندما ترين الجثة؟

ـ سأسقط على ركبتي. لن أصرخ.

ـ لا بأس، ترين كيف أن كل شيء يسير بشكل جيد. حسن، وبعد ذلك؟

ـ بعد ذلك، سأدفنه.

ـ أولا، ليس هو، ولكن أنا، من فضلك، لا تخلطين! ثانياً، ليست جِنَازَة، بل محرقة. سيخبر أورلوفيوس القس عن فضائلي الأخلاقية والمدنية والزوجية. وسيلقي القس في كنيسة المحرقة خطبة مؤثرة. وسوف ينزل نعشي بمصاحبة موسيقى الأرغن، بهدوء إلى العالم السفلي. هذا كل شيء. ثم؟

ـ ثم، باريس.،انتظر، أولاً كل أنواع الشكليات التي تخص استلام النقود. أتعرف سوف يزعجني أورلوفيوس أسوأ من مرارة الفُجْل. في باريس، سأنزل في فندق. طيب، كنت أعرف أنني سأنسى اسمه، اعتقدت اسمه، سأنسى، ونسيت. أنت تضايقني بطريقة ما... فندق... فندق... ماليرب! على كل حال هناك الصندوق الأسود.

ـ لذا، الآن الشيء المهم: ما أن تصلي إلى باريس، تخطرينني. كيف يمكنني أن أجعلك تتذكرين العنوان الآن؟

ـ جيرمان من الأفضل تدوينه. رأسي لا يعمل الآن. أنا خائفة بصورة رهيبة من إفساد الأمور.

ـ لا، يا عزيزتي، لن يكون هناك أي شيء مكتوب على ورق. لأنك على كل حال ستفقدين مثل تلك الورقة. سيكون عليكِ تذكر العنوان، تريدين ذلك أم لا. هذا ضروري للغاية. أنا أمنعك بصورة قاطعة تسجيله على ورقة. هل فهمتِ؟

ـ نعم، جيرمان. لكن لا يمكنني تذكره...

كلام فارغ. العنوان بسيط جداً: بوستريستانت.X . (سميَّتُ المدينة).

ـ هل هذا هو المكان الذي كانت تعيش فيه العمة ليزا؟ طيب، نعم، من السهل تذكره. لقد أخبرتك عنه. إنها تعيش الآن بالقرب من نيس. أذهب إلى نيس.

ـ بالضبط. لذلك حفظتِ هاتين الكلمتين. الآن اسم. من أجل البساطة، أقترح عليك كتابة هذا: السيد ماليرب.

ـ ربما ما تزال سمينة وحيوية. كما تعرف، كتب لها أرداليون يطلب المال، لكن بالطبع...

ـ كل هذا ممتع للغاية، لكننا نتحدث عن مسألة مهمة. ما الاسم الذي ستكتبينه لي؟

ـ جيرمان أنت لم تخبرني به بعد.

قلت:

ـ لقد عرضتُ عليك السيد ماليرب.

ـ ولكن كيف يا جيرمان، فبعد كل شيء، هذا فندق.

ـ لكي يكون من الأسهل عليك أن تتذكري الموضوع بالترابط.

ـ آوه، يا جيرمان سأنسى الترابط. ميؤوس منه. من فضلك، لا حاجة للترابط. عموماً، الوقت متأخر للغاية، أنا متعبة.

ـ جيد. ابتكري بنفسك اسم. اسم من المحتمل أن تتذكريه. لا بأس، هل تريدين أردااليون؟

ـ طيب يا جيرمان.

ـ ذلك رائع. السيد أردااليون. بوستريستانت.X . وستكتبين لي هكذا: صديقي العزيز، ربما سمعت عن حزني ولاحقاً بنفس الطريقة. فقط بعض الكلمات. بعض كلمات فقط. وتنزلين الرسالة بنفسك في صندوق البريد، هنالك؟

ـ طيب يا جيرمان.

ـ الآن من فضلك كرري.

ـ أنا، كما تعرف، أموت من التوتر والاضطراب. يا إلهي، الواحدة والنصف. ربما غدا؟

ـ يتعين غداً التكرار أيضاً. طيب، من فضلكِ، أنا أصغي:

ـ فندق ماليرب. أنا وصلت. أنزل الرسالة بنفسي، السيد أردااليون. بوستريستانت.X . وما سيكون لاحقاً بعد أن أكتب؟

ـ هذا لا يعنيك. سيكون واضحا هناك. حسن، ماذا، هل يمكنني التأكد من أنك ستنفذين كل هذا؟

ـ نعم، يا جيرمان. فقط لا تجعلني أكررها مرة أخرى. أنا متعبة حتى الموت.

وقفت في منتصف المطبخ، وسوت كتفيها، وهزت رأسها المائلة إلى الوراء بقوة، وكررت، وهي تنفش شعرها:

ـ أوه، كم أنا متعبة، آه... ـ وتحولت «آه» إلى تثاؤب. ذهبنا إلى الفراش. خلعت ملابسها، ورمت بحركة عشوائية فستانها، وجواربها، وأشياءها المختلفة، وانهارت في السرير وبدأت على الفور في الصفير بأنفها. استلقيت أنا أيضاً وأطفأت النور، لكنني لم أستطع النوم. أتذكر أنها استيقظت فجأة ولمست كتفي.

سألتها وأن أتصنع صوتاً ناعساً.

ـ ماذا تريدين؟

ـ جيرمان ـ تمتمت ـ جيرمان، اسمع، ألا تعتقد أن هذه... عملية احتيال؟

أجبتها:

ـ نامي. هذا ليس من شأنك. مأساة عميقة، وأنتِ تتحدثين عن الهراء. نامي من فضلكِ.

تنهدت بلطف، وانقلبت على جانبها الآخر وصفرت مرة أخرى.

شيء مثير للفضول: مع أنّ أنني لم أخدع نفسي بقدرات زوجتي، غبية، كثيرة النسيان ومتمهلة، لكن لسبب ما كنت هادئاً تماماً، ومتيقّن تماماً من أن إخلاصها سيقودها دون وعي إلى الطريق الصحيح ولن يدعها تتعثر، والأهم من ذلك، يجعلها تحتفظ بسري. لقد تخيلت أن أورلوفيوس، عندما سينظر إلى حزنها المصطنع الساذج، سيهز رأسه مرة أخرى بعمق، والرب يعلم ربما سيفكر: هل قتل عشيقها الزوج المسكين، وسيتذكر على الفور رسالة الابتزاز من مجنون غير معروف التي عرضتها عليه.

جلسنا طوال اليوم التالي في المنزل، ومرة أخرى، بعمل دقيق متعب وإصرار، عبأت زوجتي، وحشوتها بإرادتي، تماماً مثلما يتم بالقوة حشو إوزة بالذرة حتى يتضخم كبدها. بحلول المساء كانت بالكاد تستطيع

المشي. لقد كنت راضيا عن حالتها. وحان الوقت لي بالاستعداد. أتذكر كيف حددت على وجه التقريب بألم في ذلك المساء مقدار المال الذي يجب أن آخذه معي، وكمْ أترك لليدا، كانت لدي نقود قليلة، قليلة جداً. لمعت في خاطري فكرة بأن آخذا لكل الاحتمالات معي شيء صغير ذو قيمة، وطلبت من ليدا:

ـ أعطني دبوسك الذهبي للزينة، الذي جئت به من موسكو.

ـ أوه نعم، الدبوس.

قالت، وخرجت دون إبطاء من الغرفة، لكنها عادت على الفور، واستلقيت على الأريكة وأجهشت في البكاء كما لم تجهش بهذه الصورة من قبل.

ـ ما خطبك أيتها التعيسة؟

لم تجب لفترة طويلة، وبعد ذلك، وهي تبكي بغباء ولم تنظر إليّ، أوضحت أن الدبوس الذهبي مرهون، وأن المال ذهب إلى أردااليون، لأن صديقه لم يعد مال السفر إليه.

قلت:

ـ لا بأس، لا بأس، لا تبكي. رتب أموره بمهارة، ولكن الحمد للرب رحل، وذهب، هذا هو الشيء الرئيس.

هدأت على الفور حتى أنها ابتسمت عندما رأت أنني لست غاضبا، وذهبت مترنحة إلى غرفة النوم، وفتشتْ لفترة طويلة، وجلبت لي ما يشبه الخاتم، والأقراط، وعلبة السجائر القديمة التي كانت تعود لجدتها. لم آخذ أيا من هذا.

قلت، وأنا أتجول في أرجاء الغرفة وأقضم أظافري:

ـ اسمعِي يا ليدا ما أقوله لكِ. عندما يسألونك فيما إذا كان لدي

أعداء، وعندما يسألونكِ من الذي كان بإمكانه قتلي، قولي: لا أعرف. وشيء آخر: سوف آخذ حقيبة معي، لكن هذا بالطبع سر بيننا. لا ينبغي أن أبدو بأنني على كنت أستعد للذهاب في رحلة ما، سيكون الأمر مريبا. ومع ذلك...

هنا، أتذكر، إنني أمعنت في التفكير. إنه أمر غريب، لماذا عندما كان كل شيء مدروس وَأَخْذته بعين الاعتبار بشكل رائع، ظهرت تفاصيل صغيرة، كما لو عندما يرتب المرء حقيبته ويلاحظ فجأة أنه نسى وضع شي تافه، لكنه ضخم هناك، مثل هذه الأشياء العديمة الضمير. ينبغي القول في تبرئة ساحتي، إن مسألة الحقيبة كانت، ربما، النقطة الوحيدة التي قررت تغييرها: لقد سار كل شيء آخر تماماً كما خططت له منذ زمن طويل، ربما منذ عدة أشهر، ربما في اللحظة التالية التي رأيت متشرداً نائماً على العشب، يشبهني تماماً. ففكرت كلا لا ينبغي أخذ الحقيبة، فعلى أي حال، سيرى شخص ما إنني أحملها وأنا أهبط إلى الأسفل.

قلت بصوت عالٍ،

ـ لن آخذ حقيبة سفر.

كيف أنسي صباح التاسع من مارس/ آذار؟ كان الجو في حد ذاته شاحبا وباردا، وتساقطت نتف ثلوج في الليل، وكان عمال التنظيف يكتسحون الأرصفة التي امتدت على طولها سلسلة من تلال ثلجية منخفضة، وكان الأسفلت أسود ونظيفاً، ولمع بصورة خفيفة. نامت ليدا بسلام. وكان كل شَيّ هادئ. شرعتُ في ارتداء ملابسي. ارتديت قميصين، أحدهما فوق الآخر، والقميص الفوقاني مستعمل، له. ولبست سروالين داخليين أيضاً، ومرة أخرى كان السروال الداخلي الأعلى مخصصا له. ثم عملت صُرّة صغيرة، وضعت فيها أداة الحلاقة

وملاحقها. ووضعت هذه الصُرّة على الفور في جيب البالطو المعلق في رواق المدخل خَشْيَة أن أنساها، وارتديت زوجين من الجوارب (الأعلى مثقوب)، وحذاءً أسود، وجوارب ساق طويلة، بهذا الشكل، أي كان حذائي والجوارب أنيقة، ولكني لا زالت دون بنطلونات، وقفت لبعض الوقت في منتصف الغرفة، ورحت أتذكر ما إذا كنت أفعل كل شيء كما كنت قد قررت. وتذكرت أنني بحاجة إلى زوج إضافي من اربطه العنق، وجدت واحد قديم ووضعته في الصُرّة، وكان عليّ أن أخرج إلى القاعة مرة أخرى. وأخيراً اخترت ربطة العنق المفضلة لديّ ذات اللون الأزرق، والبدلة الرمادية الداكنة الضيقة التي كنت أرتديها عادة في الآونة الأخيرة. وضعت الأشياء التالية في جيوبي: محفظة نقود (حوالي ألف وخمسمائة مارك)، وهوية شخصية، وبعض القطع غير المهمة من الورق مع العناوين والفواتير... وفجأة تذكرت: لقد قررت ألا آخذ الهُوِيَّة الشخصية معي، مناورة دقيقة للغاية: على نحو ما أثبتت قطع ورق غير ذات الأهمية بفنية أكثر الهُوِيَّة الشخصية. كما أخذت معي، مفاتيح، وعلبة سجائر، وولاعة. ارتديت ملابسي، وضربت على جيوبي، فانتفختُ، وشعرت وأنا في غلاف من الكَتَّان مزدوج، بالحرارة. بقي عليّ القيام بالشيء الأكثر أهمية، لقد كانت مراسم كاملة: تحريك الحافظة الجلدية، حيث كان يرقد بهدوء، وفحصته بشكل دقيق، ليست المرة الأولى بأي حال من الأحوال. كان مشحما تماماً، محشوا بإحكام... أهداني إياه في عام ١٩٢٠ في ريفال ضابط لم يكن من معارفي، أو بالأحرى، تركه معي، واختفى. لا أعرف ما حدث لهذا الملازم الودود بعد ذلك.

استيقظت ليدا في هذه الأثناء، ولفّت نفسها برداء مكسو برسوم الفراولة، وجلسنا في غرفة الطعام، وجلبت إلزا القهوة. وعندما غادرت إلزا بادرتها إلى القول: مكتبة سُر مَن قرأ

ـ طيب يا سيدتي، لقد حان اليوم، والآن سأذهب.

استطراد صغير ذو طبيعة أدبية. إن هذا الإيقاع ليس روسياً، لكنه ينقل جيداً هدوئي الملحمي وهيبة مأساوية للوضع.

قالت ليدا بهدوء وخيل أنها طوت راحة يديها.

ـ جيرمان، أرجوك أبق، لا تذهب إلى أي مكان.

واصلتُ دون قلق:

ـ آمل أنك تَتَذَكَّرِينَ كل شيء.

مكتبة
t.me/soramnqraa

كررت:

ـ جيرمان، لا تذهب إلى أي مكان. دعه يفعل ما يشاء، هذا مصيره، لا تتدخل أنت...

قلت بابتسامة:

ـ أنا سعيد لأنكِ تذكرين كل شيء، أنت رائعة. ها أنا سأتناول كعكة أخرى وأمضي قدما.

أجهشتْ بالبكاء. ثم مخطت، وأصدرت من أنفها صوتاً عالياً كما لو من بوق، وأرادت أن تقول شيئاً، بيد أنها انخرطت في البكاء مرة أخرى. كان المشهد مثيراً للفضول إلى حد ما: كنت أمسح الكعكة بالزبدة بدم بارد، فيما كانت ليدا جالسة أمامي وترتعد بأسرها من البكاء. قلت بفم ممتلئ:

ـ في الأقل يمكنك القول على الملأ (مضغتُ الطعام، وإبْتَلَعَته) بأن هاجساً سيئاً كان لديك، مع أنني كنت كثيراً ما أسافر ولم أخبرك إلى أين. هل كان لديه أي أعداء يا سيدتي؟ لا أعلم أيها السيد المحقق.

أطلقت ليدا أنيناً خافتاً، وهي تبسط ذراعاها ببطء.

ـ وما سيحدث لاحقاً؟

قلت بنبرة مختلفة:

ـ طيب، هذا يكفي يا عزيزتي. أجهشتِ بالبكاء ويكفي. ولا تجرئي على البكاء اليوم أمام إلزا.

ضغطت منديلها على عينيها، ونخرت في حزن، وبسطت ذراعيها مرة أخرى، ولكن هذه المرة بصمت ودون دموع.

سألتها لآخر مرة، وأنا أنظر إليها باهتمام.

ـ هل تذكرين كل شيء؟

ـ نعم، يا جيرمان. كل شيء. لكنني خائفة جداً...

نهضتُ، ووقفتْ هي أيضاً. وقلت لها:

ـ وداعا، كوني بصحة جيدة، يجب أن أذهب إلى المريض.

ـ جيرمان، اسمع، لن تعتزم الحضور، أليس كذلك؟

حتى لم أفهم ما تعني بذلك.

ـ ما تعنين بأن أكون حاضرا؟

ـ آه، أنت تعرف ما أريد أن أقوله. عندما... طيب، باختصار، عندما... بهذا الحبل...

قلت لها:

ـ يا لكِ من غبية. وإلا كيف بخلاف ذلك؟ من سيجمع كل شيء بعد ذلك؟ نعم، ولا يوجد داع لأن تفكري كثيراً على هذا النحو، اذهبي إلى السينما اليوم. وداعاً أيتها الحمقاء.

لم نتبادل القبل قط، لا يمكنني تحمل بلل القبلات. يقولون إن اليابانيين أيضا ـ حتى في لحظات العاطفة ـ لا يقبلون نساءهم بتاتا، إنه أمر غريب وغير مفهوم لهم، وقد يكون من المثير بعض الشيء للاشمئزاز لمس ظَاهِرَة القريب بشفاههم العارية. لكن الآن انتابتني فجأة رغبة لتقبيل زوجتي، أما هي فلم تكن مستعدة لذلك: وبطريقة ما انزلقت

يدي بشعرها ولم أكرر المحاولة، لكن، لسبب ما نقرت كعبي بالأرض فقط، وصافحت يدها الرخوة، وخرجتُ إلى رواق المدخل. هناك ارتديتُ ملابسي بسرعة، وأمسكتُ بالقفازات، وتحققت فيما إذا كنتُ قد أخذت الصُرة، وذهبتُ إلى الباب، وسمعتها تناديني من غرفة الطعام بصوت باك خافت، لكنني لم أعر الاهتمام لهذا، أردت مغادرة المنزل بأقصى سرعة ممكنة.

ذهبتُ إلى الفِناء، حيث كان هناك المرأب الكبير المملوء بالسيارات. جرى الترحيب بي بابتسامات. جلستُ في السيارة وبدأت تشغيل المحرك. كان الفناء المبلط بالأسفلت أعلى قليلاً من سطح الشارع، لذلك عند الدخول في النفق الضيق المنحدر الذي يربط الفِناء، تهادت سيارتي المقيدة بالمكابح، بسهولة ودون صوت.

الفصل IX

أقول الحقيقة، إنني أشعر بعض الشيء بالتعب. أكتب تقريباً من الفجر حتى الغسق، فصلاً في اليوم، أو حتى أكثر. الفن شيء عظيم وجبار. بالطبع ينبغي علي في حالتي القيام بفعل ما، اقلق، أتحرك... بالطبع ليس ثمة خطر داهم ـ وأفترض لن يكون خطر أبداً ـ لكن كل هذا غريب ـ نجلس ونجلس نكتب ونكتب ونكتب أو نفكر ونفكر ونفكر لفترة طويلة ـ وهذا عموماً نفس الشيء. وكلما مضيت لاحقاً في الكتابة، يتضح لي أكثر بأنني لن أترك الأمر على هذا النحو حتى أقول الشيء الرئيس، ويقينا، يقينا سأنشر عملي، مع وجود الأخطار المحدقة بي، ولكن ليس ثمة خطر محدد: فسأختفي حالما أرسل المخطوطة، فالعالم كبير بما يكفي ليختبئ فيه رجل متواضع ملتح.

لم اتخذ حالاً قرار تسليم عملي لهذا الروائي المولع بالتحليل النفسي المكثف، الذي جئت على ذكره سابقاً، حتى يخيل لي إنني أرسلتُ له قصتي (لم اعد قراءة ما كتبته منذ فترة طويلة ـ ليس ثمة وقت لذلك، ويبعث على الغثيان...)، في البداية تساءلت عما إذا أن أسهل طريقة هي إرسال هذا العمل مباشرة إلى ناشر ما، ألماني، أو فرنسي، أو أمريكي ـ بيد أنه مكتوب باللغة الروسية، ولا يمكن ترجمة كل ما فيه، ولكي أكون صادقاً، إنني أقدر صفة أدبي المميزة، وأنا متأكد من أنه لو اختفى منحنى مسار سردي، أو ظلال المفردات وإيحاءها، فسيكون كل شيء بدون

جدوى. فكرت أيضاً في إرسالها إلى الاتحاد السوفيتي، لكن ليس لدي العناوين الضرورية، ولا أعرف كيف يتم ذلك، وما إذا كانوا سيسمحون للمخطوطة بعبور الحدود، لأنني عادةً ما أستخدم الأبجدية الروسية القديمة، وليس لدي القوة لاستنساخ الرواية...! ولا أعرف ما إذا سأكتبها حتى النهاية، وسيكون بوسعي تحمل التوتر، ولن أموت من نزيف في المخ...

بعد أن قررتُ أخيراً إعطاء مخطوطتي لشخص ينبغي أن تغريه، ويبذل قصارى جهده لكي ترى النور، وأخذت بعين الاعتبار تماماً بأن الشخص الذي اخترته (أنت يا من ستكون أول من يقرأ كتابي) روائي مهاجر لا يمكن أن تظهر كتبه في الاتحاد السوفياتي، ولكن ربما سيستثنون هذا الكتاب، ففي نهاية المطاف لم تكتبه أنت. ويحدوني الأمل في أن يجد كتابي رواجا في الإتحاد السوفياتي، على الرغم من أن عليه لقبك في بلد اللجوء (الذي لم يخف على احد كونه مزور بصورة واضحة). وفي الوقت الذي لم أكن عدوا للنظام السوفيتي لحد بعيد، لا بد أنني عبرت عن غير قصد عن أفكار أخرى، تتوافق تماماً مع المتطلبات الديالكتيكية للمرحلة لحالية. ويبدو لي أحياناً أن موضوعي الرئيس، أي تشابه شخصين، هو استعارة ومجاز بلاغي. ربما بدا هذا التشابه الجسدي اللافت بالنسبة لي (لا شعورياً!) بمنزلة رهان على التشابه المثالي الذي من شأنه أن يوحد الناس مستقبلا في مجتمع لا طبقي، وفي الوقت الذي حاولت فيه، أنا غير الناضج اجتماعياً، استخدام حالة خاصة، أكون قد نفذتُ بضبابية وظيفة اجتماعية. ومرة أخرى: يمكن تفسير عدم نجاحي التام في تجسيد هذا التشابه، بأسباب اجتماعية ـ اقتصادية بحتة، أي أنني وفيليكس ننتمي إلى طبقات اجتماعية متباينة، ومحددة المعالم بحدة. الطبقات التي لا يمكن صهرها ببعضها بجهود فردية، ولا سيما الآن في فترة تفاقم النضال الطبقي الذي لا

هوادة فيه. حقاً أن والدتي كانت من العامة، وجدي من جهة والدي كان في شبابه يرعى الوز، لذلك يمكنني أن أفهم جيداً من أين لدى أنسان من طبعي ونظام حياتي اليومية هذا التطلع لوعي حقيقي عميق، مع أنه لم يتضح تماماً. احلم بعالم جديد يكون فيه كل الناس متشابهين بعضهم للبعض الآخر، مثل جيرمان وفيليكس، عالم = الجيرمان والفيليكس، عالم يجري فيه على الفور استبدال العامل الذي سقط من شدة الإعياء على الماكينة، بشبيهه المثالي، وابتسامة اجتماعية رصينة ترفرف على شفتيه. لذلك أعتقد أن الشباب السوفييتي وبإشراف ماركسي متمرس استجلاء ما فيه، سيستفاد من قراءة هذا الكتاب، فضلاً عن حركة الفكر الاجتماعي المتبقية، المعروضة فيه. دع الأمم الأخرى تترجمه إلى لغاتها الخاصة، وسيروي الأمريكيون بقراءته تعطشهم للإثارة الدموية، وسيرى الفرنسيون في شغفي بالتشرد، سراب سدوم، وسيستمتع الألمان بالتقلبات الغرائبية للروح السلافية. أقرؤه أكثر فأكثر، أيها السادة! أرحب بهذا من صميم القلب.

لكن ليس من السهل الكتابة. لا سيما الآن، بينما أقتربُ من العمل الأكثر حزماً إذا جاز التعبير، وتظهر صعوبة مهمتي بكاملها. والآن، كما ترون، أتهرب وأتحدث عن أشياء من المفترض أن يكون مكانها في مقدمة الرواية، وليس في بداية اهم فصولها للقارئ. لكنني أوضحت بأنه وعلى الرغم من المنطق ودهاء المناهج فليس أنا، ولا عقلي هو الذي يكتب، ولكن ذاكرتي فقط، فقط ذاكرتي. لأنه حتى في ذلك الوقت أي في الساعة التي توقف فيها عقرب روايتي كما لو أني توقفت أيضاً، تباطأتُ، كما أتباطؤ الآن، وكنت حينئذ مشغولا أيضاً بنقاشات مشوشة غير ذات صلة بالقضية التي كان موعدها النهائي يقترب أكثر فأكثر. لأني انطلقتُ صباحا، وكان موعدي مع فيليكس قد تحدد في الساعة الخامسة بعد الظهر. لم أستطع الجلوس في المنزل، لكن أين سأصرف وقت

النهار العكر الذي فصلني عن موعد اللقاء؟ كنت جالساً بشكل مريح، وحتى ناعس، ومسيطر على مقود السيارة، كما كنت أديره بإصبع واحد، وتدحرجتُ ببطء في شوارع برلين الهادئة والباردة والهامسة، ومضيت قدما وقدما، حتى لم انتبه إلى أنني غادرت برلين... سيطر على اليوم لونان ـ الأسود (أغصان الأشجار، الإسفلت) والأبيض (السماء، وبقع الثلج). طيلة الفتر استمر تنقلي الناعس. لبعض الوقت، كانت قطعة قماش كبيرة مزعجة تترنح أمامي، خرجت من عربة تجرها خيل تحمل شيئاً طويلاً يمتد حتى نهايتها الخلفية البارزة، ثم اختفت، استدارت في مكان ما.

لم أرفع السرعة. عند تقاطع آخر، قفزت سيارة أجرة أمامي وقطعت الطريق علي، وفرملت بأنين، لأن الطريق كان زلقاً لدرجة كبيرة، وراحت تدور مثل مسمار ملولب. سرتُ برباطة جاش، كما لو كنت أسير مع التيار. ومن ثم عبرت الشارع امرأة في حداد عميق، دون أن تراني، لم اضرب على زمار السيارة، ولم أغير حركتي الهادئة السلسة، وطفت على بعد بوصتين من ردائها الأسود، حتى لم تلاحظني، كأني شبح صامت. تجاوزتني كل السيارات في الطريق. ولفترة طويلة كان ترام بطيء يسير بجواري، ومن زاوية عيني رأيت الركاب يجلسون بغباء مقابل بعضهم البعض. سرت مرة أو مرتين عبر أماكن سيئة التبليط، وكان الدجاج قد ظهر: نشرت أجنحتها الهزيلة ومدت أعناقها، وعبر الطريق (أو ربما لم يكن هذا المشهد حينئذ إنما في الصيف). بعد ذلك، قدتُ سيارتي على طريق سريع طويل، بجوار مزارع محصودة وثلج مغطى ببقع سوداء، وغدت سيارتي في منطقة مهجورة تماماً وكأنها قد غفت كما لو أنها تحولت من اللون الأزرق إلى اللون الرمادي، وتباطأتُ تدريجيا وتوقفتُ، وانحنيت على مقود القيادة، واستغرقت في تفكير لا يمكن تفسيره. بماذا كنت أفكر؟ بلا شيء أو عن أشياء تافهة، اختلطت

عليّ الأمور، وأخذتني تقريباً سنة النوم، وكدت افقد الوعي، أتحدث إلى نفسي عن بعض التفاهات، وتذكرت كيف ذات مرة تجادلت مع أحد الأشخاص في إحدى محطات تعبئة البنزين، بشأن ما إذا كان من الممكن رؤية الشمس في الحلم، ومن ثم بدا لي أن ناس كثيرون أحاطوا بي من كل مكان، وكان الجميع يتحدثون ويصمتون في آن واحد، وبعد أن أعطوا بعضهم بعضا تعليمات غامضة، تفرقوا بصمت. وعقب فترة من الوقت، مضيتُ للأمام، وعند الظهيرة، وأنا أمر ببعض القرى، قررت أن أتوقف هناك، وفي مثل هذه الوتيرة البطيئة وصلت من هناك إلى كوينغسدورف في غضون ساعة، لا أكثر، وما زال لدي الكثير من الوقت المتبقي. جلستُ بمفردي تماماً إلى طاولة كبيرة لفترة طويلة، في حانة مظلمة ومملة بغرفة خلفية، وكانت هناك صورة قديمة معلقة على الحائط تضم مجموعة من الرجال بصدريات، وبشوارب ملتوية، زد على ذلك أن شخصا من الصف الأمامي ركع بغير تكلف على ركبة واحدة، واستلقى اثنان على جنبهما، وذكرني ذلك بصور طلاب روس. شربتُ الكثير من الماء مع الليمون، وما زلت في نفس مزاج النعاس الشنيع، ومضيتُ قدما إلى الأمام. أتذكرُ أنني بعد فترة قصيرة، توقفتُ مرة أخرى عند أحد الجسور: كانت هناك امرأة عجوز ترتدي سروالاً من الصوف الأزرق، وعلى كتفيها حقيبة، تعالج دراجتها العاطلة. ومن دون أن اخرج من السيارة، أعطيتها بعض النصائح، التي كانت طفيلية وغير ضرورية تماماً ثم لذتُ في الصمت، وأرحت خدي على كفي، ومرفقي على عجلة القيادة، ونظرت إليها لفترة طويلة بلا معنى، واستمرت العجوز في معالجة الدراجة ببطء، وأخيراً غمزتُ لها، ولكن اتضح أنه لم يعد أحد هناك، لقد ذهبت المرأة منذ فترة طويلة. وتحركت ماضيا للأمام، محاولا أن أجري عملية ضرب حسابية في ذهني لرقمين أخرقين لا اعرف ما يعنيان ومن أين أتوا، ولكن مادام قد ظهرا، فمن الضروري التعامل

معهما ثم اصطداما مع بعضهما الآخر وانهارا. وفجأة بدا لي أنني كنت أقود بسرعة فائقة، وبدا أن السيارة كما لو تبتلع الطريق، مثل ساحر يبتلع شريطاً طويلاً، ومررت بهدوء بأشجار صنوبر وصنوبر ومن ثم صنوبر. ما زلت أتذكر: قابلت تلميذين، صبيين شاحبين، شادين كتبهما بأحزمة، تحدثت إليهما، كانت وجوههما دميمة شبيهة بالطيور، ولحد ما تشبه الغربان، ويبدو أنهما خافا مني، وعندما ذهبتُ، نظرا بأثري لفترة طويلة، وفغرا أفواههما السوداء، واحد للأعلى، والآخر منخفض. وفجأة وجدت نفسي في كوينغسدورف. نظرت إلى ساعتي ورأيت أنها كانت تشير إلى الخامسة. وفيما مررت بجوار مبنى المحطة الأحمر، افترضتُ أن فيليكس ربما قد تأخر لسبب ما، ولم يهبط بعد من المدرجات المجاورة لآلة الشوكولاتة تلك، ولا توجد إمكانية للتحقق بواسطة المظهر الخارجي للمبنى الأحمر الدحداح، هل مر من هنا أم لا. ومهما كان الأمر، فقد وصل القطار، الذي أُمرته بالقدوم على متنه إلى كونيغسدورف في الساعة الثالثة إلا خمسة دقائق، مما يعني لو أن فيليكس لن يتأخر عن الوصول...

أيها القارئ، لقد طُلبت منه النزول في كوينغسدورف والذهاب شمالاً على طول الطريق السريع إلى الكيلومتر العاشر، إلى العمود الأصفر، والآن أقود سيارتي بأقصى سرعة على طول هذا الطريق، إنها دقيقة لن تُنسى! كانت الطريق مهجورة. ففي الشتاء تذهب إلى هناك حافلة الركاب مرتين فقط في اليوم ـ في الصباح والظهيرة ـ ولم يصادفني على مدى هذه العشرة كيلومتر سوى عربة خفيفة يجرها حصان كَمَيِّت. أخيراً استقام من بعيد عمود مألوف لي، مثل إصبع خنصر أصفر، وازداد ونما إلى حجمه الطبيعي وكانت عليه قبعة من الثلج. تباطأت ونظرت حولي. ليس ثمة أحد في المكان. كان العمود الأصفر أصفر للغاية إلى اليمين، وكانت وراء الحقل غابة رمادية مخططة كديكور مسرحي. ليس ثمة أحد

هناك. نزلتُ من السيارة وأغلقت الباب خلفي بصفقة أعلى من صوت أي رصاصة. ولاحظت فجأة أن من بين الأغصان المتشابكة لشجيرة نامية في خندق، أن شخصا بشارب، شمعي، يتطلع لي في غاية الابتهاج.

وفي الوقت الذي وضعت فيه قدمي على مدرج السيارة، ضربت ذراعي بشدة بالقفاز المنزوع كما لو كنت غاضبا، وحدقتُ بنظرات ثاقبة في فيليكس. خرج من الخندق وهو يبتسم بعدم ثقة.

وبادرته من بين أسناني بقوة صوت مغني اوبرا غير عادية:

ـ أوه، أيها الوغد، والمحتال،

كررت القول بصوتي الكامل، وأنا أواصل ضرب نفسي بقفازي بأكثر قوة (كانت الأوركسترا كلها مستعرة بين انفجارات صوتي)،

ـ كيف تجرأت وثرثرت؟ كيف تجرأت، وكيف تجرأت على طلب النصيحة من الآخرين، والتباهي بانك حققت ما بغيته، في كذا يوم، وفي كذا مكان... إن قتلك على هذا قليل (قعقعة، ومرة أخرى، صوتي:) لقد حققت الكثير، أيها الأحمق! لن ترى بنساً واحداً، أيها الثرثار! (كان كلامي كما لو صفعة فروسية في الأوركسترا).

وبخته على هذا النحو وبنهم بارد أراقب تعابير وجهه. كان مذهولا، وشعر حقاً بالإهانة. ضغط بيده على صدره وهز رأسه. انتهى المقطع التمثيلي الذي قمت به، وتحدثت بصوت عادي:

ـ طيب، لا بأس، لقد وبختك بهذه الطريقة، من أجل الشكليات، فقط... وأنت تبدو، عزيزي، مضحك، كما تم تجميل وجهك بالمساحيق!

وكان قد ترك شاربه تنمو بناء على طلبي. ويبدو أنه حتى مصبوغ. إلى جانب ذلك، وبمبادرة منه، رتب لنفسه شرحتين على صدغه مجعدتين. هذا التظاهر بالشعر كان مسليا بالنسبة لي.

سألته مبتسما.

ـ هل أتيت بالتأكيد بالطريقة التي أخبرتك بها؟

رد:

ـ نعم، كما طلبت. أما بالنسبة للثرثرة... فكما تعرف، أنا لا أختلط بالناس، ووحيد.

قلت:

ـ أنا أعرف، وأنا أشعر بالكرب معك. هل قابلت أشخاصا على طول الطريق؟

ـ إذا مر أحد، اختبأت في خندق كما أمرتني.

ـ لا بأس. علاوة على ذلك فإن مظهرك مخفي بصورة جيدة. حسن، ليس هناك سببا للتباطؤ والتوان. اركب في السيارة. اترك الكيس على ظهرك، اتركه، ستنزع الكيس لاحقاً. ادخل بسرعة، ينبغي الذهاب بعيداً عن هنا.

سألني:

ـ إلى أين؟

ـ إلى تلك الغابة.

ـ وسألني مشيراً بعصاه:

ـ إلى هناك؟

ـ نعم، إلى هناك بالضبط. هل ستجلس في نهاية المطاف، ليأخذك الشيطان!

لقد استمتع بالنظر إلى السيارة. وصعد بسرعة، وجلس بجواري.

أدرت عجلة القيادة، وتحركت ببطء... واو! مرة أخرى: نجاح باهر! (انتقلت إلى الحقل)، كانت هناك ثلوج ناعمة وعشب ذابل تحت

العجلات. ارتدت السيارة فوق مطبات الطريق، وفعلنا أنا وفيليكس نفس الشيء.

وقال:

ـ بوسعي التعامل معها دون صعوبة، (قفزنا بفعل مطبات الطريق) ـ سأركبها (قفزنا) لا تخاف أنا (قفزنا ثانية) لن أُعطبها.

ـ ستكون السيارة لك. لمدة مؤقتة، (قفزنا)، ـ لك. لكنك يا أخي، لا تتثاءب، وانظر حولك، ألا يوجد أحداً على الطريق السريع؟

استدار ثم هز رأسه سلباً. دخلنا، أو بالأحرى زحفنا، إلى الغابة. صر بدن السيارة وتأوه، احتكت الفروع الصنوبرية بأجنحة السيارة.

بعد أن توغلنا قليلاً في الغابة، توقفنا وترجلنا. وواصل فيليكس يتطلع إلى السيارة الزرقاء اللامعة، ولكن من دون أن يبدي مطامع الفقراء، بل برضا مالك هادئ، وغشى عينيه تأمل غامض فاتر ورقيق. من الممكن تماماً أن يكون قد وضع في اعتباره، أنا لا أؤكد وإنما أقول: ممكن تماماً: من المحتمل جداً أن يكون قد تدفق في تفكيره بشيء كهذا: «ماذا لو تسللتُ بهذه العربة؟ فسوف أتسلم النقود مقدماً. وأتظاهر بأنني سأنفذ كل شيء، وفي الواقع سأقود ها بعيداً. فبعد كل شيء، لا يمكنه اللجوء إلى الشرطة، مما يعني أنه سيبقى صامتاً. وأنا في سيارتي الخاصة...»

قطعت تدفق أفكاره الممتعة هذه بالقول:

ـ طيب يا فيليكس، لقد حلت اللحظة العظيمة. ستغير ملابسك الآن وستبقى بمفردك مع السيارة في الغابة. فبعد نصف ساعة سيحل الظلام، ومن غير المحتمل أن يزعجك أحد. ستقضي الليلة هنا، وسيكون لديك معطفي، تلمسه إلى أي مدى إنه ثخين، علاوة على أن السيارة دافئة... ستحصل على قسط كافي من النوم، ولكن بمجرد أن ينبلج الصباح...

بيد أن هذا سيكون لاحقاً، أولاً، دعني أجعلك في مظهر لائق، وإلا سيحل الظلام فعلا. أولاً وقبل كل شيء، عليك بادئ ذي بدء أن تَحْلقَ.

وسأل فيليكس بدهشة غبية:

ـ أحلق؟ كيف سيكون ذلك، ليس معي أداة حلاقة، ولا أعرف باي شيء سأحلق في الغابة، ربما بحجر فقط.

ـ كلا، لماذا بحجر، ينبغي حلاقة مهمل وغافل مثلك بفأس. لكنني شخص بعيد النظر، جلبت كل شيء معي، وسأحلقك بنفسي.

فترت شفتاه عن ابتسامة عريضة:

ـ حقاً مضحك، كيف ستحلقني ربما ستذبحني حالا بالموسى.

ـ لا تخف، أيها الأحمق، إنها آمنة. حسن، من فضلك اجلس في مكان ما، ممكن هنا على سُلم السيارة.

جلس، ووضع كيسه. وأخرجتُ أنا الصرة ووضعت الشفرة والصابون والفرشاة على سُلم السيارة الممتد تحت الباب الأمامي. كان علينا أن نسرع: فاليوم يميل إلى نهايته، والهواء كثيف. ويا له من صمت خيم على المنطقة... لاح هذا الصمت كأنه فطري هنا، لا ينفصل عن هذه الأغصان الثابتة، والجذوع المستقيمة، ولا عن البقع العمياء للثلج المتناثر هنا وهناك على الأرض.

خلعتُ معطفي حتى أتمكن من العمل بحرية أكبر. وتطلع فيليكس بفضول إلى أسنان آلة الحلاقة اللامعة، والمقبض الفضي. ثم جَرَب الفرشاة، حتى أنه وضعها على خده. اختبرَ نعومتها. لقد كانت حقاً منفوشة جداً، كلفتني سبعة عشر وخمسين ماركا. كما أبدى اهتمامه بأنبوب عجينة الصابون باهظ الثمن.

قلت:

ـ إذا، فلنشرع.

أخذت حفنة من الثلج في راحة يدي، وعصرت عليه معجون الصابون الذي خرج من الأنبوب كدودة طويلة، وعجنته بالفرشاة ودهنت الرغوة المثلجة على السوالف والشارب. تغضن وجهه، وفترت شفتاه عن ابتسامة عريضة، لطخت حافة الصابون منخره، فلوى أنفه، وشعرَ بالدغدغة.

طلبت منه:

ـ استلقي إلى الوراء أكثر.

أسندت ركبتي بشكل غير مريح على مدرج السيارة، وبدأت في حلق سوالفه، طقطقت الشعيرات وامتزجت بالرغوة بشكل مثير للاشمئزاز، لقد جرحته قليلاً، وتلونت الرغوة بالدم. وعندما شرعت بشاربه، ضَيَّق عينيه، لكنه صمت بشجاعة، لا بد من أن الحلاقة لم تكن مريحة. كنت في عجلة من أمري، وكان شعره صلبا، وارتعشت شفرة الحلاقة.

وسألته:

ـ هل لديك منديل؟

أخرج خرقة من جيبه. مسحت الدم والثلج والصابون عن وجهه بعناية. ولمعت وجنتيه كما لو كانت جديدة. حلقت ذقنه بشكل ممتاز، ولم يكن هناك سوى خدش أحمر بالقرب من أذنه ونتوء أسود على الحافة. مرر يده على المناطق التي تم حلقها.

قلت:

ـ انتظر لحظة. هذا ليس كل شيء، ينبغي تعديل حواجبك إنها أكثر كثافة من حواجبيَ.

أخذت المقص ونتفت بعناية شديدة بعض الشعيرات.

ـ الآن ممتاز. سأقوم بتمشيطك عندما تغير قميصك.

سألني بلا تكلف ولمس صدري الناعم:

ـ هل ستعطيني قميصك؟.

صرخت بمرح.

ـ آه، أجل، أظافرك ليست نظيفة كما يجب!

قمت أكثر من مرة بعمل البدكير لليدا، والآن دون صعوبة كبيرة، قمت بترتيب هذه المسامير العشرة الخشنة، وقارنت بين يديه بيدي، كانتا أكبر وأكثر قتامة، لكن لا بأس، ستصبح شاحبة بمرور الوقت. أنا لا أرتدي خواتم الزفاف، لذلك كان عليّ أن أضع ساعة في يده فقط. هزّ أصابعه، وأدار الفرشاة بهذه الطريقة وتلك، وكان مسروراً للغاية.

ـ الآن لنغير ملابسك بسرعة، اخلع كل ملابسك يا صديقي، حتى آخر خيط.

تمتم فيليكس:

ـ سينتابني البرد.

ـ لا بأس، إنها دقيقة واحدة. حسن، أسرع.

ابتسم مكشراً عن أنيابه وخلع سترته القصيرة، ونزع عبر رأسه كنزة موبره داكنة. كان تحتها قميص أخضر قاتم، وربطة عنق من ذات القماش. ثم خلع الحذاء، ونزع بسرعة جوارب أصلحتها يد رجل، وتَسَمرَ مبتهجا، وقدمه العارية تلامس أرض الشتاء القارسة. يحب الرجل العادي المشي حافي القدمين: في الصيف، يخلع الحذاء، أولاً وقبل كل شيء على العشب، ولكن حتى في الشتاء يكون الأمر له ممتعاً، ربما يذكره بالطفولة أو بشيء من هذا القبيل.

وقفت على بعد، حللت ربطة عنقي، ونظرت إلى فيليكس باهتمام.

وصرختُ به عندما لاحظت أنه متردد:

ـ طيب، استمر، استمر بخلع ملابسك!

وليس من دون تكبر خَجِل خلع سرواله وبانت ساقاه بيضاء خالية من الشعر. تخلصَ من القميص. وقف أمامي رجل عارٍ في الغابة الشتوية.

خلعتُ ملابسي بسرعة غير عادية. رميتُ له الطبقة العليا من ملابسي الداخلية. وبينما كان يرتديها أخرجت بمهارة النقود وأشياء أخرى من البدلة التي خلعتها وأخفيتها بلباقة في جيوب البنطلون، الذي ارتديته وظهر إنه ضيق جداً. واتضح أن الكنزة كانت دافئة جداً، وكانت السترة تقريباً من قياساتي: لقد فقدت وزني مؤخرا.

في هذه الأثناء، ارتدى فيليكس ملابسي الداخلية الوردية، لكنه ما زال حافي القدمين. أعطيته الجوارب والأربطة، لكنني لاحظت بعد ذلك أن أظافر قدميه بحاجة أيضاً إلى تقليم. وضع قدمه على سُلم السيارة وقمت بالمناكير له على عجل. خشيتُ من أنه قد يتعرض لنزلة برد وهو في ملابسه الداخلية فقط. وغسل قدميه بالثلج، كما فعل أحد شخوص قصة لموبسان، ولبس جواربه بمتعة مفهومة

ورحت أحثه:

ـ أسرع، أسرع. سيحل الظلام الآن، وحان وقت مغادرتي. انظر، أنا جاهز بالتمام، طيب، يا لحذائك الكبير. وأين القبعة؟ آه، شكرا، أراها.

عقد بشدة حزام السروال. ولبس بصعوبة حذائي الخريفي القصير الأسود من جلد شيفيرون. ساعدته على معالجة الجوارب الطويلة وعقد ربطة العنق الأرجوانية. وأخيرا، وبمساعدة مشطه المتسخ، رجلت شعره الدهني من ناحية جبهته وصدغه.

الآن أصبح جاهزا. وقف شبيهي أمامي، في بدلتي الرمادية الداكنة

الرصينة، وتطلع إلى نفسه بابتسامة غبية، فتش الجيوب وأعاد الإيصالات وعلبة السجائر، وفتح محفظتي. كانت فارغة.

قال فيليكس بنبرة استعطاف ومداهنة:

ـ لقد وعدتني بالدفع مقدما.

أجبته:

ـ نعم، بالطبع.

أخرجت يدي من جيب سروالي وفتحت قبضتي بالأوراق النقدية. ها هي. سأعدها وأعطيك إياها.

قال:

ـ إن الملابس تضغط عليّ بشدة.

ـ الآن، الآن... سأشرح كل شيء. يجب تنظيف المكان هنا، كما ترى نثرت خرقك. ما لديك في الكيس؟

قال فيليكس:

ـ أنا مثل الحلزون. لدي منزل على ظهري. هل ستأخذ الكيس معك؟

ـ سنرى. ضع كل هذه الأشياء هناك. تلك الخرقة أيضاً. والمقص. والآن. الآن، ارتدي البالطو ولنفحص ونتحقق للمرة الأخيرة، هل يمكن اعتبارك أنا.

وذكرني من جديد:

ـ ألا تنسى النقود؟

ـ كلا، يا لك من غبي. الآن سنتحاسب. النقود هنا، في جيبك السابق. أسرع من فضلك.

ارتدى بالطو البيج البديع، واعتمر بعناية قبعتي الأنيقة. وكانت اللمسة الأخيرة هي قفازات صفراء.

ـ لذا، يا سيدي. سر بضع خطوات. دعنا نرى كيف يجلس عليك كل هذا.

جاء للقائي، ووضع يديه الآن في جيوبه، ثم أخرجهما مرة أخرى.

اقترب مني، وسوى كتفيه، وتَصَنَعَ مثل شخص طائش متأنق.

قلت له بصوت عالٍ:

ـ هل كل شيء، هل كل شيء؟ انتظر، دعني انظر لك جيدا...يبدو أن كل شيء مناسب...والآن استدر. أود أن أرى، كيف تبدو من الخلف...

استدار، فأطلقت النار عليه في ظهره. وأرديته قتيلاً.

أتذكر مختلف الأشياء: أتذكر كيف علق الدخان في الهواء، ورسم طية شفافة وتبدد، أتذكر كيف سقط فيليكس. لم يتهاو على الفور، في البداية أكمل حركة كانت تشي بانه مازال على قيد الحياة، أي دورة كاملة بالضبط، وعلى الأرجح إنه أراد أن يستدير أمامي مازحا، كما لو أمام المرآة، والآن ها هو ينهي هذه المزحة المثيرة للشفقة بفعل الاستمرارية، وقد اخترقته الطلقة، والتفت إلى وجهي، وهو يفرد ذراعه ببطء، كما لو كان يسألني: ما هذا؟، وإذ لم يتلق أي إجابة، تراجع ببطء. نعم، أتذكر كل هذا، أتذكره. وفيما خشخش على الثلج، بدأ يتلوى، كما لو كان شعر بالضيق في الملابس الجديدة، وما لبث أن تسمر، ثم أصبح دوران الأرض محسوساً، وانفصلت القبعة فقط بهدوء عن يافوخه، وسقطت إلى الوراء، كما لو كانت تقول له وداعا، أو شيء من هذا القبيل، وكما يكتبون: كشف الحاضرون عن رؤوسهم. نعم، أتذكر كل هذا، لكني لا أتذكر شيئاً واحداً: صوت الطلقة. ولكن بقي في إذني رنين ملحاح ومضجر. أحاطني من كل مكان، وارتجف على شفتي. واقتربتُ من الجثة عبر هذا الرنين، وتطلعتُ لها بلهفة.

لحظة غامضة. تماماً مثل الكاتب الذي أعاد قراءة أعماله ألف مرة، وتحقق من كل كلمة وأختبرها، ولم يعد يعرف ما إذا كان ما كتبه جيداً أم لا، لأن كل شيء أصبح مألوفاً للغاية، وهكذا أنا، وهكذا أنا... ولكن هناك ثقة المبدع السرية بعمله، إنها معصومة من الخطأ. الآن، وعندما جمدت الملامح بشكل تام، غدى التشابه بيننا لدرجة لم أعد أعرف من المقتول حقاً: أنا أم هو. وفيما كنت أنظر، ساد الظلام في الغابة التي كما لو كانت ترن، رن الوجه الذي أمامي بخفوت، وخيل لي انيّ أحدق في ماء راكد.

لم ألمس الجثة لأنني خشيت تلويث يديّ، ولم أتحقق من معرفة ما إذا كانت الحياة قد فارقته حقاً، كنت أعرف غريزياً أن الأمر كان على هذا النحو، وأن رصاصتي انزلقت بدقة في الخط الهوائي القصير الذي حددته إرادتي ونظراتي. ورددت نداء أحد شخصيات نيقولاي غوغل:

ـ أسرع، أسرع، صرخ إيفان إيفانوفيتش، وهو يرتدي سرواله في أكمامه بدل سيقانه، من شدة الارتباك.

دعونا لا نقلده. تطلعت حولي بسرعة، ولكن بنظر ثاقب، كان فيليكس قد وضع بنفسه كل شيء، ما عدا المسدس، في الكيس، ولكن كان لدي ما يكفي لضبط النفس ومعرفة ما إذا كان قد أسقط أي شيء ـ حتى مسحت بيدي مدرج السيارة حيث قمت بقص أظافره. ثم قمت بشيْ كنت قد خططت له منذ فترة طويلة، وهو: دحرجت السيارة إلى الحافة القصوى للغابة، إذ توقعت سوف يروها على الطريق في الصباح ويعثرون من خلالها على رفاتي.

كان الليل يقترب بسرعة. خرس الرنين في أذني. وتوغلت بعيداً في أعماق الغابة، ومررت مرة أخرى بمحاذاة الجثة، ولكنني لم أتوقف عندها، حملتُ حقيبة الظهر وحسب، سرت بخطوات سريعة، وبثقة،

ولم أشعر بالحذاء الثقيل في قدمي، درت حول البحيرة، وامتدت حولي الغابة غارقة في الغسق الشبحي، وفي الثلوج الشبحية... ولكني عرفت جيداً اتجاه الطريق، ومدى صحته، وتخيلت بوضوح كل هذا حينئذ، في الصيف، عندما كنت أدرس الدروب المؤدية إلى أيشنبرغ!

وصلت محطة السكك الحديد في الوقت المحدد. وبعد عشر دقائق، ظهر في الوقت المناسب القطار الذي أحتاجه. وطوال نصف الليل سافرت على مقعد صلب بعربة تلعلع، وتتأرجح، وكان بجواري رجلان مسنان يلعبان الورق ـ وكان الورق غير عادي ـ أوراق بحجم كبير، حمراء، خضراء، مع بلوط. وبعد منتصف الليل قمت بتغير القطار، ومن ثم سافرت طوال ساعتين، إلى الغرب. وفي الصباح ركبت القطار السريع. عندها فقط، فحصت محتويات حقيبة الظهر في غرفة التواليت. كان فيها، إلى جانب القطع التي تم وضعها مؤخرا، بعض الملابس الداخلية وقطعة من النقانق، وثلاث تفاح كبيرة، ونعل، وخمس ماركات في محفظة نسائية، وجواز سفر، ورسائلي إلى فيليكس. أكلت على الفور التفاح والنقانق في غرفة تواليت، ووضعت الرسائل في جيبي، وفحصت جواز سفري باهتمام كبير. إنه لأمر غريب، إن فيليكس لم يشبهني في الصورة بالطبع، يمكن أن تكون بسهولة بديلة لصورتي، لكن ما يزال الأمر غريبا بالنسبة لي، ففكرت: هذا هو السبب الحقيقي لشعوره بإننا نشبه قليلاً بعضنا الآخر، لقد رأى نفسه كما في هذه الصورة، أو في المرآة، أي من اليمين إلى اليسار، وليس كما في الواقع. غباء بشري، وقلة ملاحظة، وإهمال، كل هذا تم التعبير عنه حتى في المواصفات الموجودة في القائمة المختصرة لملامحه التي لم تتوافق تماماً مع صفاتي الموجودة في جواز سفري، الذي تَركته في المنزل. هذه تفاهات، لكنها تفاهات مميزة. وفي حقل المهنة، سميَّ هذا البليد الأخرق الذي كان يعزف على الكمان، على الأرجح بالطريقة التي كان

يعزف فيها الخدم على القيثارات في روسيا في أماسي الصيف، «موسيقيا»، ما جعلني على الفور أصبح موسيقياً أيضاً. اشتريت مساءً لنفسي في بلدة حدودية حقيبة سفر، وبالطو، وما إلى ذلك، ولن أقول ما فعلته بالحقيبة التي كانت فيها أغراضه ومسدسي البراوننج، ولا كيف أخفيتها: اخرسي، يا مياه نهر الراين. وفي الحادي عشر من مارس/ آذار كان السيد غير الحليق تماماً، ببالطو أسود، في خارج البلاد.

الفصل X

منذ طفولتي أحب ورود البنفسج والموسيقى. ولدت في تسفيكاو. كان والدي صانع أحذية، ووالدتي غسالة. عندما غضبت، صرختْ في وجهي باللغة التشيكية. كانت طفولتي كئيبة وتعيسة. وبمجرد أن كبرت، أخذت أتنقل من مكان إلى آخر. عزفتُ على الكمان. أنا أعسر. وجهي بيضوي. ولطالما تجنبت النساء: ليس ثمة مَن لن تخون. كانت الحرب قذرة للغاية. لكن الحرب ولت، وكل شيء يمر. لكل فأر منزله... أنا أحب السناجب والعصافير. البيرة في جمهورية التشيك أرخص. أوه، لو كان بوسعي انتعل حدوة في دكان حدادة، فسأوفر الكثير من النقود! جميع الوزراء مرتشين، والشعر هراء. ذات مرة رأيت توأمين في معرض، عرضا جائزة على من يميز بينهما، ضرب صديقي فريتس ذو الشعر الأحمر ادن أحدهما، فغدت حمراء، وهذه علامة تميزه عن الآخر! غرقنا في الضحك... يكون الضرب، والسرقة، والقتل، تصرفاً سيئاً أم جيداً، حسب الظروف. كنت أستحوذ على النقود إذا وقعت في يدي: ما التقطته هو ملكك، ليس ثمة نقوداً تعود لك أو لأشخاص آخرين، فلم يُكتب على القطعة النقدية من هو مالكها: مثل إنها ملك مولر. أنا أحب النقود. كنت أرغب دائماً في العثور على صديق حقيقي، لعزفتُ معه الموسيقى، ولتركَ لي منزلاً وحديقة زهور، النقود، ما ألطفها. حتى القليل منها لطيف. والنقود الكثيرة الطف. قطعت الطرقات،

وعملتُ هنا وهناك. ذات مرة صادفت شخصا أنيقاً زعم أنه يشبهني. هراء، لم يكن بيننا شبه. لكني لم أجادله، لأنه كان ثرياً، ومن يعرف رجلاً ثريا يمكنه أن يصبح هو نفسه ثريا. لقد أراد مني أن أقود السيارة بدلاً منه، ليقوم في هذه الأثناء بعملية احتيال تخصه. لقد قتلتُ هذا المهرج وسرقته. إنه يرقد الآن في الغابة. يستلقي في الغابة، حيث الثلج في كل مكان، والغربان تنعق، والسناجب تقفز. أنا أحب السناجب. السيد المسكين الذي كان في معطف بديع يرقد ميت، ليس بعيداً عن سيارته. أنا أتمكن من قيادة السيارة. أحب ورود البنفسج والموسيقى. لقد ولدت في تسفيكاو. كان والذي صانع أحذية أصلع الرأس يرتدي نظارات، وكانت والدتي تعمل غسالة حمراء اليدين. عندما غضبت...

ومرة أخرى، كل شيء من جديد وبتفاصيل سخيفة جديدة. وبالتالي فإن الشبه الذي ترسخ أصبح حقيقة واقعة. تحولتُ إلى فيلكس والمقتول هو جيرمان، ولست أنا الذي أبحث عن ملاذ في دولة أجنبية، ولست أنا مَن أطلق لحيته، بل فيليكس الذي قتلني. أوه، لو كنت أعرفه جيدا، ولعرفته عن كثب ولفترة طويلة، لكان من الممتع لي أن أحل في الروح التي وَرِثَتْهَا. لعرفت كل زواياها، وكل دهاليز ماضيها، لاستمتعت بكل وسائل راحتها. لكنني درست روح فيليكس بشكل سطحي للغاية، عرفت فقط الخطوط العريضة لنمط شخصيته، وسمتين أو ثلاثة منها عن طريق الصدفة.

لقد تغلبت لدرجة ما على هذه المشاعر الكئيبة. كان من الصعب أن أنسى، على سبيل المثال، خضوع وعدم مقاومة هذا الأحمق الناعم الكبير اللين عندما كنت أعده للشنق. وتلك الكفوف المطيعة الباردة التي قمت بتقليمها. من الغريب تَذْكر كيف أطاعني! كان الظفر الكبير على إصبع قدمه صلباً لدرجة أن المقص لم يستطع أخذه على الفور، والتف حول النصل، مثلما تتحرك علبة صفيح للمحفوظات، عندما نفتحها

بمفتاح. هل إرادة الإنسان قوية لدرجة أن بوسعه تحويل الآخر إلى دمية؟ هل أنا حق الذي حلقته؟ أمر مدهش! الشيء الرئيس الذي عذبني في هذه الذكريات هو طاعة فيليكس وتلقائية طاعته الخرقاء، البلهاء. لكني أكرر، لقد تغلبت على مشاعري الكئيبة. بيد أن الأسوأ هو إنني لم أستطع أبداً التعود على المرايا. وأطلقت لحيتي ليس للاختفاء من الآخرين، بل من نفسي. الشيء الفظيع هو الخيال المفرط. من المفهوم تماماً أن شخصا مثلي يتمتع بمثل هذه الحساسية الحادة، يتعذب من التفاهات، على سبيل المثال انعكاسي في زجاج داكن، ومن ظلي الذي يسقط عند قدمي كما لو كان ميتاً... إلخ. أتوقف عن المضي في السرد، أيها السادة، أرفع راحة يدي البيضاء الضخمة مثل ما يرفع شرطي يده! أرجوكم أيها السادة من دون تنهدات متعاطفة معي. ولا شفقة. أنا لا أقبل مواساتكم لي، وربما يوجد بينكم من سيشفق عليّ، على شاعر أسيء فهمه. «دخان، ضباب، وارتجف خيط الدخان في الضباب». هذه ليست قصيدة، هذه عبارة من رواية دوستويفسكي «الدم واللعاب». اعذروني: «الجريمة والعقاب» لا يمكن أن يكون هناك أي ندم أو توبة، فالفنان لا يشعر بالتوبة والندم، حتى لو كانت أعماله غير مفهومة. أما ما يتعلق بالتأمين بالآلاف...

أعرف، أعرف، أنني كنت مخطئاً من زاوية الأدب الجميل إذ إنني وطوال روايتي (بقدر ما أتذكر) لم أعر أي اهتمام تقريباً للشيء الرئيس، وبالذات للمنفعة الشخصية التي لاحت كما لو كانت هي دافعي لهذه العملية. وكيف لم أذكر بجلاء وبصورة بينة حتى لماذا كنت بحاجة لشبيه لي ميت. ولكن هنا يساورني الشك في أن المنفعة الشخصية استحوذت بهذه الصورة عليّ، وما إذا كان من المهم حقاً لي الحصول على هذا المبلغ الغامض من شركة التأمين (ثمن الإنسان في أوراق نقدية، كمكافأة معقولة على الاختفاء من الدنيا)، أو على العكس من ذلك، لم تستطع

ذاكرتي، التي تكتب عني، أن تتصرف خلافا لذلك، إذ إنها كانت صادقة للنهاية وإعطاء أهمية خاصة للمحادثة في مكتب أورلوفيوس (لا أتذكر ما إذا كنت قد وصفت هذا المكتب أم لا).

وأريد أيضاً أن أقول بعض الكلمات عن مزاجي بعد موتي: على الرغم من أنني في ذاتي لم أشك بنجاحي في إنجاز عملي الفني بشكل مثالي، أي أن ميتا يشبهني تماماً يرقد في غابة سوداء ـ بيضاء. أنا عبقري مبتدئ لم يتذوق طعم المجد بعد، وبقدر ما أنا شخص أنِف وعزيز النفس، بقدر ما أنا حازم وصارم مع نفسي، كنت أتوق وبألم عنيف إلى أن يسرع المجتمع بتثمين عملي الفني الذي انتهيت منه ونفذته بصورة عالية الدقة، عملي الذي جرى التوقيع عليه في التاسع من مارس/ آذار في غابة نائية، وقد نجحت الخدعة التي قمت بها، فإن كل عمل فني هو خدعة إن مكافأة شركة التأمين للمؤلف، تحتل في وعيي مرتبة ثانوية. أوه، نعم كنت فنانا بلا منفعة شخصية.

كل شيء سيجري، سيجري على ما يرام. وأخيراً في أحد الأيام الرائعة، جاءت لي ليدا وأنا في الخارج. ذهبتُ لها في فندقها: «اعتصمي بالهدوء، قلت لها بشكل مؤثر، عندما ألقت بنفسها بين ذراعي، تذكري أن اسمي فيليكس، وأنني مجرد أحد معارفك». كانت ملابس الحداد مناسبة لها تماماً، كما في الواقع كانت ربطة العنق المربوطة بشكل فني واللحية الكستنائية، مناسبة لي أيضاً. أنشأت تقول:

ـ نعم، لقد جرى كل شيء كما افترضت، ولم تكن هناك أي عقبة.

واتضح أنها نحبت بصدق في محرقة الجثث، عندما خطب القس عني بصوت باكي احترافي:

ـ هذا الرجل، هذا الرجل النبيل الذي...

كشفتُ لها عن خططي المستقبلية، وسرعان ما بدأتُ في الاعتناء بها.

الآن تزوجتها، تزوجت على الأرملة، وصرتُ أعيش معها في مكان هادئ خلاب، لدينا منزل، نجلس لساعات طويلة في حديقة الآس، حيث يمكننا رؤية خليج ياقوتي في الأسفل، وغالباً ما نتذكر شقيقي المسكين. واروي لها أحداثاً أخرى من حياته. تقول ليدا بحسرة:

ـ ولكنه حكم القدر! على الأقل إن عزاءه في الجنة، أننا بفضله سعداء.

بلى، إن ليدا سعيدة معي، فهي لا تحتاج إلى أحد. وتقول أحياناً:

ـ كم أنا سعيدة، لأننا تخلصنا من أرد ليون إلى الأبد. كنت أشفق عليه للغاية، اعتنيت به كثيرا، لكنه كشخص لا يطاق. أين هو الآن؟ ربما أدمن تماماً على الخمر هذا أيضاً قدر!

رحت أقرأ وأكتب في الإصباح، وقد أنشر شيئاً ما باسمي الجديد قريباً، امتدح كاتب روسي يعيش في الجوار أسلوبي، وتألق خيالي.

تتلقى ليدا من حين لآخر، أخباراً من أورلوفيوس، على سبيل المثال تهنئة بالعام الجديد، ويطلب منها على الدوام أن تنقل تحياته لزوجها الجديد، الذي لم يحظ بشرف التعرف عليه، لكنه على الأرجح يفكر: «إن الأرملة سرعان ما هدأت وانغمرت باللهو... ويردد يا له من مسكين الألماني جيرمان كارلوفيتش!...».

هل تشعرون بنبرة خاتمة القصة هذه؟ إنها مكتوبة وفق الوصفة الكلاسيكية. وفي الختام يجري الإبلاغ بشيء ما عن كل بطل من أبطال القصة، زد على ذلك يبقى في الحقيقة نمط حياتهم، على الإجمال مطابقاً لشخصياتهم التي جرى وصفها سابقاً، وتسمح ببعض الفكاهة، والتلميحات على الحياة المحافظة.

ما تزال ليدا كثيرة النسيان، ومهملة...

ويُحتَفظ حتى نهاية الخاتمة بخصلة لطيفة على وجه الخصوص، تعود لموضوع غير ذا أهمية، والذي لمع في الرواية ليس بشكل عابر: عُلقت عندهم على الجدار نفس الصورة التي رسمها أردااليون، وكانت معلقة في غرفة النوم، وعندما ينظر إليها جيرمان مع ذلك يضحك ويوبخ.

ختام

كانت هذه أحلام، أحلام وحسب... وزد على ذلك إنها أحلام عذبة. وأنا بحاجة للغاية لكل هذا...

دعونا نعد إلى قصتنا. لنحاول تمالك أنفسنا. لنتخطى بعض تفاصيل الرحلة. أتذكر، بعد أن وصلت في الثاني عشر إلى مدينة X (أواصل تسميها X بدافع خجل مفهوم)، بادئ ذي بدء ذهبت للبحث عن الصحف الألمانية، وجدت بعضها، لكن لم يكن هناك شيء فيها حتى الآن. استأجرتُ غرفة في فندق من الدرجة الثانية، بناء ضخم، ذو أرضية حجرية وجدران ذات مظهر ورق مقوى، كما لو رسم عليها باب أشهب في الغرفة المجاورة، ومرآة مرسومة بألوان جواش. كان الجو بارداً بفظاعة، والموقد المفتوح للحجر المزيف لم يكن مكيفا للنار، وعندما احترقت رقائق الخشب التي جلبتها الخادمة، أصبح الجو أكثر برودة. قضيت ليلة هناك مفعمة برؤى غير محتملة ومرهقة، وعندما خرجت في الصباح إلى الزقاق، غير حليق ولزج، واستنشقت الروائح الكريهة، ورأيت صخب البازار الجنوبي، شعرتُ أنني عاجز عن البقاء في هذه المدينة. كنت أرتجف من البرد، وأذهلني صخب الشارع المزدحم، فذهبت إلى مكتب سياحة، حيث أعطاني رجل ثرثار عدة عناوين: كنت

أبحث عن مكان مريح منعزل. وعندما أوصلتني حافلة كسولة في المساء إلى العنوان المختار، ظننت أنني وجدت المكان الذي أبحث عنه.

فندق لائق المظهر يقوم بين أشجار الفلين، نصفه مغلقاً (يبدأ الموسم فقط في الصيف). هزت الرياح الإسبانية زغب الميموزا في الحديقة. وتفجر نبع من الماء العلاجي في جناح مثل مصلى كنسي، وتعلقت خيوط عنكبوت في زوايا نوافذ من العقيق مظلمة. كان هناك عدد قليل من النزلاء، بينهم طبيب، وهو روح الفندق، وملك وجبة الطعام التي يجري تقديمها للنزلاء في وقت محدد، جلس على رأس المائدة وتشدق، وكان هناك رجل عجوز له أنف صقر يرتدي سترة لامعة، أصدر قبع لا معنى له عندما حملت الخادمة التي تتحرك بسرعة، بضرب خفيف على الأرض، سمك السلمون المرقط الذي اصطاده من نهير مجاور، وزوجان شابان مبتذلان جاءا إلى هذا المكان الميت من مدغشقر، وامرأة عجوز في ياقة من الشاش، مفتشة مدرسة، وصائغ مجوهرات مع عائلة كبيرة، وسيدة مهذبة كانت في البداية فبكونتيسة، ثم أصبحت كونتيسة، والآن، بحلول الوقت الذي أكتب فيه هذا، تحولت إلى ماركيزة بفضل جهود الطبيب الذي يبذل قصارى جهده لتحسين سمعة الفندق، وأيضا بائع جوال ممل من باريس، ممثل للشركة المرخصة ببيع لحم الخنزير المملح والمُدخن، وأخيرا، رئيس دير كاثوليكي، سمين ووقح، ظل يتحدث طوال الوقت عن جمال دير قريب، وفي الوقت نفسه، لمزيد من التعبير، انتزع من شفتيه قبلة هوائية، تشبه قلبا مطويا لحيم. يبدو أن هذا هو متحف الشموع بأسره. وكان المدير الذي يشبه الخنفساء يقف عند الباب، ويديه مشبوكتان خلف ظهره، ويشاهد العشاء الاحتفالي من تحت حاجبيه. هبت ريح قوية في الخارج.

تَركتْ الانطباعات الجديدة تأثيراً مفيداً على. أطعمونا بشكل غير

سيئ. نزلتُ في غرفة مضاءة، وتطلعت باهتمام من النافذة إلى كيف ترفع الرياح بخشونة أوراق الزيتون، وتديرها من الأسفل. ومن بعيد، برز مخروط بنفسجي ضارب للأبيض على جبل يميل للزرقة قاس يشبه جبل فوجي في اليابان. نادراً ما كنت أخرج، وركبني الخوف من استمرار دوي راس الملحاح، الذي يفقدني البصر، ورياح مارس/ آذار، والتيار الهوائي الجبلي المميت. ومع ذلك ذهبتُ في اليوم الثاني إلى المدينة من أجل الصحف، ومرة أخرى لم أجد ما يهمني، وبما أن هذا أزعجني بصورة لا تطاق، قررت الانتظار بضعة أيام.

ويبدو أن انطباعاً انتشر عني مائدة الطعام بأنني شخص انعزالي وغير اجتماعي، رغم أني أجبت بجدية على جميع الأسئلة الموجهة إليّ. وعبثا أَلَحَّ علي الطبيب أن آتي إلى الصالون في المساء، وهو غرفة خانقة فيها بيانو مختل، ومكتظة بالأثاث وكتيبات على مائدة مستديرة. وكان الطبيب بلحية تشبه لحية ماعز، وعيون زرقاء دامعة، وبطن ناتئ. كان يأكل بطريقة جدية وبلا شهية. وقام ببراعة بلف صفار البيضة بقطعة خبز وأرسلها بالكامل مصحوبة بصفير غض في فمه. وجمع العظام من وجبة اللحم المشوي بأصابع دهنية من الصلصة من أطباق الآخرين، ولفها بطريقة ما ووضعها في جيب سترته الواسعة وتظاهر بصورة غريبة بأن هذا مخصص للكلاب، الحيوانات المسكينة أفضل من الناس.

وأثار هذا التأكيد على الطاولة (ويستمر حتى الآن) الجدل والانفعالات، وعلى الأخص احتد رئيس الدير. وصار الطبيب يهتم بي جداً عندما عرف أنني ألماني وموسيقي، واستنتجت من خلال النظرات المنصبة عليّ من كل مكان، أن ليس وجهي الملتحي هو الذي جذب الانتباه، ولكن جنسيتي ومهنتي، وفي كلتا الحالتين رأى الطبيب شيئاً ملائما بلا شك لمكانة الفندق. أمسك بي على الدرج، وفي الممرات البيضاء الطويلة، وطفق في محادثة لا نهاية لها، ناقش خلالها أوجه

القصور الاجتماعية لممثل شركة لحم الخنزير أو التعصب الديني لرئيس الدير. وكان كل هذا يشكل عبئاً لي، لكنني في الأقل استمتعت به. وما أن يحل الليل وتبدأ ظلال أوراق الشجر، التي أضاءت في الفناء بواسطة فانوس منفرد، تتأرجح في الغرفة، امتلأت روحي الفسيحة، روحي الخاوية المهجورة، بالارتباك العقيم والرهيب. أوه لا، أنا لا أخاف من الموت، كما لا أخاف من الأشياء المكسورة والمحطمة، فلماذا أخاف منها؟! خفتُ من عالم الانعكاسات الغادر هذا، ومن أني لن أتحمل، ولن أعيش حتى اللحظة غير العادية، والمبهجة، والحاسمة، التي ينبغي أن أعيش حتى حلولها، لحظة انتصار الإبداع، والفخر، والخلاص، والنعيم.

في اليوم السادس من إقامتي، اشتد عصف الرياح لدرجة أن الفندق صار يشبه سفينة وسط بحر عاصف، وكانت النوافذ تطن، وتشققت الجدران، وتراجعت أوراق الشجر الكثيفة بصخب، وتناثرت، وحاصرت المنزل. خرجت إلى الحديقة، لكنني انحنيت على الفور بشدة أمام الريح، ومسكت بقبعتي بأعجوبة وعدت إلى غرفتي. وإذ غرقت بالتفكير عند النافذة وسط أزيز الرياح، لم أسمع جرس الدعوة لتناول الطعام، وعندما نزلت لتناول الإفطار وأخذت مقعدي، كان اللحم المشوي قد قُدم، وكانت الوجبة من حوصلة في صلصة الطماطم، طبق الطبيب المفضل. في البداية لم أستمع إلى المحادثة العامة التي كان يديرها بمهارة، لكن فجأة لاحظت أن الجميع يوجهون أنظارهم إلي. استدار الطبيب نحوي:

ـ وما رأيك في هذا؟

فسألته:

ـ بماذا؟

قال الطبيب:

ـ تحدثنا، عن جريمة القتل التي وقعت في ألمانيا ـ وتابع، متوقعاً إنها بداية طيبة لمواصلة المحادثة حول المائدة.

ـ أي نوع من الوحوش يجب أن يكون المرء، ليقتل شخصا آخر، من أجل الحصول على مبلغ التأمين على حياته...

لا أعرف ما حدث لي، رفعت يدي فجأة وأمرته:

ـ اسمع، اسكت...

وبنفس اليد، ولكن بقبضتها، ضربت الطاولة حتى قفزت حلقة المنديل، وصرختُ دون أن أتعرف على صوتي:

ـ اسكت، اخرس! كيف تجرؤ، وبأي حق تهين؟! لن أدعها تمر! كيف تجرؤ على إهانة بلدي، وشعبي... اخرس! اسكت!

صرختُ بصوت أعلى فأعلى.

ـ أنت... تجرؤ على إخباري، في وجهي، أنه في ألمانيا... اخرس!...

وظل الجميع صامتين لفترة طويلة ـ منذ أن تدحرجت حلقة المنديل من قبضتي. تدحرجت حتى نهاية الطاولة، وهناك صفعها برفق الابن الأصغر لصائغ المجوهرات. كان الصمت ذا نوعية جيدة بشكل استثنائي. وعلى ما يبدو حتى الرياح توقفت عن الأزيز. تسمر الطبيب ممسكاً بشوكة وسكين، وجثمت ذبابة على جبهته. في أثناء ذلك اندفع شيء ما في حلقي، رميتُ المنديل على الطاولة وبارحت غرفة الطعام، وشعرت أن جميع الوجوه تستدير نحوي تلقائيا أثناء مروري.

اختطفت، وانا امشي، جريدة مفتوحة من على الطاولة القائمة في القاعة، وارتقيت السلم، ووجدت نفسي في غرفتي، وجلست على

سريري. كنت أرتجف، كنت أبكي، كنت أرتجف من شدة الغضب، كانت يدي ملطخة بصلصة الطماطم. وعند تناول الجريدة، كان ما يزال لدي وقت للتفكير: ربما كانت مصادفة، لم يحدث شيء، لن يهتم الفرنسيون بهذا، ولكن بعد ذلك ومض اسمي أمام عيني، اسمي السابق...جيرمان.

لا أتذكر بالدقة ما قرأته بالذات في تلك الصحيفة، لقد قرأت الكثير من الصحف منذ ذلك الحين، وكانت قد أربكتني لحد ما، إنها تتكدس هنا في مكان ما الآن، لكن ليس لدي وقت لفرزها. مع ذلك أتذكر أنني أدركت على الفور شيئين: إنهم يعرفون من هو القاتل، ولا يعرفون من هو الضحية. لم يأت الخبر للصحف من مراسلها الخاص، بل كانت مجرد إعادة نشر لخبر قصير من صحف برلين، ونشرت دون اعتناء وغير اكتراث وفي غاية الوقاحة، بين صدام سياسي أو مرض حمى الببغاوات. كانت النغمة غير مسبوقة، غير مقبولة وغير جائزة لي، لدرجة أنني فكرت أن الكلام يدور عن شخص آخر يحمل اسم عائلة، مثل اسم عائلتي، في مثل هذه النغمة يكتبون عن أحمق قطع رقاب أسرة بأكملها. على أي حال، أظن الآن أنها كانت خدعة من الشرطة الدولية، ومحاولة لترويعي، لإرباكي وتشويش فكري، لكن في تلك اللحظة كنت في اشد حالات الانفعال، بلا وعي، وقع نظري المشوش مرة على أحد أعمدة الصحيفة، ثم على مكان آخر، وحينما سمعت بغتة طرق شديد على الباب رميت الصحيفة تحت السرير وقلت:

ـ ادخل!

دخل الطبيب. وهو يمضغ شيئاً ما.

قال، وبالكاد تجاوز عتبة الباب:

ـ اسمع، هناك خطأ ما، لقد أسأت فهمي. أود حقاً...

صرختُ به،

- اخرج فورا.

تغيرت ملامح وجهه وخرج من دون أن يغلق الباب خلفه. قفزت وأغلقته بصفقة لا تصدق. سحبت الصحيفة من تحت السرير، لكني لم أستطع العثور على ما قرأته للتو. راجعت كل صفحاتها: ولا شيء! هل يا ترى حلمتُ بذلك، وأنشأت أراجعها مرة أخرى، كان ذلك أشبه بكابوس. يضيع النبأ ومن المستحيل العثور عليه، وليس في الطبيعية قوانين تضفي شيء من المنطق في البحث، بل فظاعة وتعسف وجور بلا معنى. لم يكن شيء في الجريدة. ولا كلمة. لابد أنني كنت مهتاجا بشكل رهيب وبليد، لأنني بعد بضع ثوانٍ فقط، لاحظت أن الصحيفة قديمة وألمانية وليست الباريسية التي حملتها. تطلعت مرة أخرى تحت السرير، وسحبت الضرورية، وأعدت قراءة الأخبار السطحية وحتى التشهيرية.

واتضح لي فجأة أن ما أدهشني بالضبط، أدهشني بصورة مهينة لي: ليس هناك حرف واحد عن الشبه، ولم يتم تقييم التشابه وحسب (طيب، لو قالوا في الأقل: نعم، تشابه ممتاز، ولكن مع ذلك، وبحسب هذه أو تلك من الإمارات ليس هو)، بل لم يُذكر على الإطلاق، ولاح من خلال تصويرهم إن لهذا الشخص مظهر، مختلف تماماً عن مظهري، ولكن من غير الممكن أن يتحلل في ليلة واحدة، بل علي العكس من ذلك، يجب أن يصبح وجهه أكثر رخامية، والتشابه معي أكثر، ولكن حتى لو كانت المدة أطول وشغلهم الموت، فإن مراحل انحلاله ستتوافق مع مراحل التغيرات التي طرأت على وجهي مؤخرا، أتحدث بسرعة ومن دون تفكير، اللعنة، وليكن، فأنا لا أحتاج إلى اللباقة الآن في التعبير. وفي هذا التجاهل النفيس والأهم، شيء مُتَعَمَد ودنيء للغاية، فكما نرى كأن الجميع، ومنذ الدقائق الأولى، عرفوا جيداً أن المقتول

ليس هو أنا، ولم يكن بالوسع أن تخطر على بال أحد منهم أنها كانت جثتي، حتى في أكثر التقارير الإخبارية استخفافا وقلة اكتراث، كان هناك تأكيد على ارتكابي هفوة، الهفوة التي بلا ريب لم يكن بوسعي أن ارتكبها بالطبع بأي حال من الأحوال، وفي غضون ذلك، إذ غلقوا أفواههم وأشاحوا بوجوههم المقيتة بصمت، ارتعشوا وانفجروا من شدة المتعة والشماتة وتهكموا بروح انتقامية، انتقام سافل. إنه شيء لا يطاق...

وهنا طُرق الباب مرة أخرى، وهببتُ وأنا ألهث إعياءً، دخل الطبيب والمدير. وقال الطبيب باستياء عميق، مستديراً إلى المدير ومشيراً إلي:

ـ ها هو، ها هو، إن هذا السيد لم يستأ مني عبثا وحسب، بل يهينني الآن، ولا يريد الاستماع وهو فظ للغاية. من فضلك تحدث معه، أنا لم أعتد على مثل هذا السلوك.

قال المدير وهو ينظر إليّ باشمئزاز:

ـ يجب أن نتفاهم. أنا متأكد من أنك بنفسك...

فصرخت وأنا أضرب الأرضية:

ـ اخرجوا! أن ما تفعلونه بي... غير مقبول... لا تجرؤ على إذلالي والانتقام مني... أنا أطالبكم، أنتم تفهموا، أنا أطالبكم...

رفع الطبيب والمدير راحتيهما ومداها نحوي، ومثل كائنات ميكانيكية وقفا على أرجل مستقيمة، طفقا يدمدمان ويجعلانني أتراجع بهدوء للوراء، لم أبدِ مقاومة، تراجعتُ وتبدد غضبي، لكنني شعرت بغتة بتدفق الدموع ـ امنح النصر للراغبين ـ وسقطتُ على السرير وأجهشت في البكاء.

قال الطبيب وقد أصبح لينا كما لو بتأثير ساحر.

ـ كل هذا من الأعصاب، كله من الأعصاب المتوترة..

ابتسم المدير وغادر، وأغلق الباب برفق خلفه. سكب لي الطبيب الماء، وقدم لي عقار البروم المهدئ، وربت على كتفي، وأجهشت في البكاء، مُدركاً تماماً، وحتى ببرود وبابتسامة ساخرة، وضعي المعيب، ولكن في نفس الوقت شعرت بكل سحر الشخص خائر القوى، وببعض المنفعة الغامضة، واصلت الارتجاف، ماسحا خدي بمنديل كبير، متسخ، تفوح منة رائحة اللحم البقري للطبيب الذي مسد بيده علي، وتمتم:

ـ يا له من سوء فهم! أنا الذي أردد دائماً كفى حروباً... لديك أخطاؤك ولدينا أخطاؤنا. يجب نسيان السياسة. أنت فقط لم تفهم ما قيل. كنت فقط أطلب رأيك في جريمة قتل.

سألته وأنا أتنهد:

ـ أي جريمة قتل.

ـ آه، عمل قذر، غيّرَ ملابس ضحيته وقتله، ولكن اهدأ يا صديقي، القتلة ليس في ألمانيا فقط، لدينا لاندرو، والحمد للرب، لذا فألمانيا ليست الوحيدة. اهدأ، كل هذا أعصاب، إن المياه المحلية تؤثر بشكل ممتاز على الأعصاب، أو بالأحرى على المعدة، وهو الأمر الذي يفضي إلى نفس الشيء.

تحدث أكثر ووقف. أعطيته المنديل. وأردف، وهو يقف عند الباب:

ـ أتعرف؟ أن الكونتيسة الصغيرة تبدي الاهتمام بك. لو تعزف لنا شيئاً ما على البيانو الليلة (وقام بعمل نغمة بأصابعه)، أؤكد لك أنك ستجدها في سريرك.

سار في الممر، لكنه فجأة غير رأيه وعاد. وروى لي:

ـ في سنوات شبابنا المجنونة، كنا نحن الطلاب ذات مرة نتنادم، وشرب صديقنا الملحد بامتياز، حتى الثمالة، وعندما سَكَرَ تماماً، ألبسناه

رداء راهب، وحلقنا رقعة صلعاء مستديرة، وفي وقت متأخر في الليل، طرقنا باب دير للنساء، فتحت لنا راهبة، وقال أحدنا:

ـ آه، أختاه، انظري إلى الحالة المحزنة التي وصل لها هذا القس المسكين، لو تأخذينه، دعيه ينم عندكم،

وتخيل إنهم أخذوه. وغرقنا في الضحك!

توقف الطبيب قليلاً وضرب على فخذيه. بدا لي فجأة أنه ألم يكن يتحدث عن هذا (لقد غيّر مظهره... بآخر...) بقصد معين، هل تم إرساله للتجسس، وأخذني الغضب مرة أخرى، ولكن، بالنظر إلى تجاعيده اللامعة بغباء، ضبطت نفسي، وتظاهرت بالضحك، وكان راضيا جداً، ولوح بيده نحوي، وأخيراً، تركني بمفردي.

ورغم تشابهي الكاريكاتيري مع بطل رواية الجريمة والعقاب راسكولينكوف... لا، ليس ذلك. لأترك هذا الموضوع. ماذا حدث بعد ذلك؟ نعم: قررت إن الشيء الرئيس الذي يجب أن أفعله هو الحصول على أكبر عدد ممكن من الصحف. ركضتُ هابطاً إلى الطابق السفلي، صادفني على الدرج رئيس الدير السمين، نظر إلى بتعاطف، ففهمت من ابتسامته الصفراء أن الطبيب أبلغ الجميع عن مصالحتنا. وفي الفناء، سدت الرياح آذاني على الفور، لكنني لم أستسلم، وتمسكت بالبوابة بفارغ الصبر، وفي هذه الأثناء ظهرت حافلة نقل الركاب، لوحت للسائق بيدي فتوقف وصعدت، وتدحرجت الحافلة بنا على طول الطريق السريع، حيث جن الغبار الأبيض. اشتريت في المدينة عدداً من الصحف الألمانية، وفي نفس الوقت توجهت إلى مكتب البريد للسؤال عما إذا كانت هناك رسائل لي. لم تكن هناك رسائل، لكن كان هناك الكثير في الصحف، كثيراً جداً...

والآن وبعد أن سلخت أسبوعاً من العمل الأدبي الشاق، تعافيت،

وأشعر بالازدراء فقط، ولكن حينئذ دفعتني نبرة الصحف الباردة والساخرة إلى حافة الإغماء. وفي النهاية، تشكلت الصورة على النحو التالي: في يوم الأحد، ١٠ مارس/ آذار، ظهرا، عثر حلاق من كونيغسدورف على الجثة في الغابة، وظل من غير الواضح لماذا كان الحلاق في هذا الجزء من الغابة، فحتى في فصل الصيف لا يذهب أحد إلى هناك، ولماذا أبلغَ الشرطة عن اكتشافه فقط في المساء. وبعد ذلك تأتي الحكاية المضحكة الرائعة التي ذكرتها: لقد اختفت سيارتي التي تركتها عمداً بالقرب من حافة الغابة. وحددت الشرطة ماركة الإطارات من طريق الأثار التي خلفتها على هيئة حرف «t» متكرر، وتَذَكرَ بعض أهالي كونيغسدورف، ممن يتمتعون بذاكرة استثنائية، كيف مرت سيارة كابريوليت «إيكار» ذات مقعدين بإطارات مطابقة تماماً لآثار الإطارات التي وُجِدت في مسرح الجريمة. وقدم الزملاء اللطفاء من مرآب السيارات الموجود في شارعي معلومات إضافية عن كل شيء يخص سيارتي، رقم القوى والأسطوانات، وليس فقط رقمها الذي بحوزة الشرطة، بل وحتى أرقام المحرك والشاسيه من الشركة المصنعة. وأعتقد الجميع أنني أقود الآن تلك الأثناء هذه السيارة في مكان ما، إنه لأمر مضحك للغاية. وكان من الواضح لي أن أحد الأشخاص رأى سيارتي تركن في الطريق السريع، واستولى عليها دون تردد، لكنه لم يلاحظ الجثة، كان في عجلة من أمره. وعلى العكس من ذلك، ادعى الحلاق الذي عثر على الجثة أنه لم يرَ أي سيارة. إن الشكوك تحوم حوله، ويبدو أن الشرطة كانت ستقبض عليه في ذلك الوقت، فبعد كل شيء قطعوا رؤوس شخصيات اهم منه دون براهين كافية على تورطهم بالجريمة، ولكن يا للأسف لم تجرِ الأمور على هذا النحو، لم يفكروا حتى في اعتباره قاتلاً محتملاً، واتهموني على الفور، دون قيد أو شرط، وبسرعة باردة ووقحة، كما لو سيكونون فرحين لو ثبتت عليّ الجريمة، كما لو

كانوا سيثأرون مني، كما لو كنت مذنبا أمامهم منذ مدة طويلة، وكانوا متعطشين لمعاقبتي منذ زمن بعيد. وإذ قررتْ الشرطة في وقت مبكر تقريباً بأن الجثة التي تم العثور عليها لم تكن أنا، ولم يُلاحظ أي تشابه بيننا، أو بالأحرى استبعدتْ الشرطة إمكانية التشابه مسبقاً (لأن الشخص لا يرى ما لا يريد أن يراه)، فوجئت باتساق رائع بأنني فكرت في خداع العالم، فقط بجعل شخص لا يشبهني على الإطلاق ارتداء معطفي. إن الغباء والتحيز الواضح لهذا المنطق مضحك للغاية. وبناءً عليه شككوا بقدراتي العقلية. حتى افترضوا أنني مختل العقل، وأكد ذلك حتى بعض الأشخاص الذين عرفوني، من بينهم الغبي أورلوفيوس (من يكون غيره)، الذي قال إنني كتبت رسائل إلى نفسي (ولم أتوقع منه هذا!). ولكن ما أثار دهشة الشرطة تماماً هو باي صورة من الصور وجدت ضحيتي (كلمة «ضحية» استحدثتها الصحف) نفسها في ملابسي، أو بشكل أكثر دقة، كيف تمكنتُ من جعل شخص حي لا يرتدي بدلتي وحسب، بل وحتى جواربي وحذائي الضيق جداً مقارنة بقياس قدمه (كان من الممكن أن أجعله يرتديها بعد موته أيها المهووسون!). بعد أن رسخوا في أذهانهم أن هذه ليست جثتي (أي، التصرف مثل الناقد الأدبي الذي، عند التعامل مع كتاب لكاتب يكرهه، يقرر أن الكتاب متواضع، ويُقَيّمه من هذا الموقف التعسفي)، وإذ رسخوا في رؤوسهم هذا، انقضوا بتعطش على تلك النقائص البسيطة وغير المهمة تماماً في تشابهنا أنا وفيليكس، والتي عند موقف أعمق وأكثر موهبة من إبداعي، كان من الممكن أن تمر دون أن يلاحظها أحد، كما لا يُلاحظ خطأ مطبعي في كتاب جيد. ذُكروا خشونة اليدين، حتى أنهم وجدوا مسمار قدم أو ندبة جرح ذات معان كثيرة، لكنهم مع ذلك لاحظوا دقة تقليم الأظافر على الأطراف الأربعة، زد على ذلك وبمجرد ما لفت الحلاق الذي وجد الجثة، انتباه المحققين إلى أنه وبحكم ظروف معينة إن الشخص لم يقلم

أظافره بنفسه، بل قام آخر بهذا العمل، وهذا واضح لحلاق جيد (ولكن ما قيمة ذلك؟).

لم أستطع معرفة كيف تصرفت ليدا عندما اتصل المحققون بها. أكرر القول، بما أن الجميع على يقين بأنني لستُ الشخص المقتول، فمن الممكن أنهم شكوا في كونها متواطئة معي. وهي المسؤولة عن ذلك، إذ كان بوسعها أن تفهم أن أموال التأمين ضاعت للأبد، ولم تكن هناك حاجة للسعي للحصول عليها بذرف دموع الأرملة.

وفي النهاية، ربما لن تكون قادرة على المقاومة، وإيمانا منها ببراءتي ورغبتها في إنقاذي، فإنها ستتحدث عن مأساة أخي، التي، مع ذلك، سيكون عبث تماماً، لأن من السهل إثبات عدم وجود أخ لي بتاتاً. وفيما يتعلق بعملية الانتحار، فمن غير المرجح أن خيال الشرطة سيستوعب الحبل سيئ السمعة الذي حدثت ليديا عنه.

وما يخصني، بمعنى سلامتي، فمن المهم أن التحقيق لم يتعرف على الشخص الميت، ولا يمكن تحديد هويته. وفي هذه الأثناء، كنت قد انتحلتُ اسمه، وقد تركتُ في بعض الأماكن آثاراً لهذا الاسم، لذلك سيكون من الممكن العثور عليّ في حالتين: إذا اتضح من أنا في حقيقة الأمر، وكما يقولون من قتلة. لكن من المستحيل معرفة ذلك، وهو أمر مفيد للغاية لي، لأنني جد تعب، ولم يعد بوسعي اتخاذ تدابير جديدة. وكيف يمكنني التخلي عن الاسم الذي استحوذت عليه بشكل فني؟ ومن كل بد أبدو شبيها باسمي، أيها السادة، إنه يناسبني تماماً كما يناسبه. على المرء أن يكون أحمق حتى لا يفهم هذا.

لكن عاجلاً أم آجلاً سيعثرون على السيارة، بيد أن هذا لن يساعدهم، لأنني بنفسي أردت منهم العثور عليها. كم هو مضحك! إنهم

يعتقدون أنني أجلس برصانة خلف مقود السيارة، لكنهم في الواقع سيجدون لصا عاديا ومرعوبا بامتياز.

أنا لا آتي هنا على ذكر النعوت الوحشية التي يرى بها الكتبة عديمو الموهبة، ومروجي الأحداث المثيرة، والأوغاد الذين يبنون سرادقهم على الدم. من الضروري مكافئتي، ليس على الاستدلال العقلي العميق الذي يكتسب طابع التحليل النفسي، والذي يتعطش إليه كتاب المقالات الهجائية. لقد أغضبني في البداية كل هذا الرجس وهذه القذارة، خاصة قيام بعض البلهاء بالتشبيه بميول مصاصي الدماء، التي أدت ممارساتهم في وقت من الأوقات إلى رفع مبيعات الصحف. كان هناك، على سبيل المثال، شخص أحرق سيارته مع جثة شخص آخر، وبحكمة قطع قدميه، نظراً لأن مقياسها لا تتطابق مع مقاييس قدم المالك. نعم، ولكن ليذهبوا إلى الجحيم! لا يوجد شيء مشترك بيننا. لقد أغضبني أيضاً أنهم طبعوا صورة جواز سفري، والتي نقحوها بخبث لأبدو فيها حقاً كمجرم، لكنني لا أشبه نفسي تماماً. في الواقع، كان بوسعهم أخذ صورة أخرى، على سبيل المثال، تلك التي أنظر فيها إلى كتاب، وأخرى صورة بلون الشكولاتة الناعمة، ألتقطها لي نفس المصور في وضع مختلف، أنظر من تحت حاجبي، عيناي جادة، وأشير بإصبع إلى صدغي، على هذا النحو يجري تصوير الكتاب الألمان. وعموماً، كان لديهم العديد من الخيارات.

هناك أيضاً صوره ناجحة جداً وأنا في ثوب السباحة في قطعة أرض أرداليون، بالمناسبة، بالمناسبة، لقد نسيتُ أخباركم بأن الشرطة، التي تقوم بعمليات البحث بعناية، وتفحص كل شجيرة، وحتى البحث في الأرض، لم يعثروا على شيء، باستثناء شيء واحد رائع، وهو: زجاجة الفودكا محلية الصنع. كانت زجاجة الفودكا مطمورة هناك منذ يونيو/ حزيران. اعتقد أنني قد وصفت كيف أخفتها ليدا عن أرداليون... يؤسفني

أنني لم أخف آلة «بالاليكا» الروسية الموسيقية في مكان ما من أجل منحهم عند العثور عليها، متعة تخيل جريمة قتل سلافية على وقع قرع كؤوس الفودكا وأداء أغنية «أشفقِ عليّ عزيزتي...».

لكن يكفي، يكفي... كل هذه البلبلة الدنيئة والهراء، نجمت عن أنه وبسبب ضيق العقل والهذر والتحيز، لم يعرفني الناس بجثة شبيهي التي لا تشوبها شائبة. أقبل بمرارة واحتقار واقع عدم الاعتراف نفسه (فأي إبداع فني لم يعتموا عليه؟) وما زلت أؤمن بعدم وجود شائبة ولا عيب. ليس لدي ما ألوم نفسي عليه. لقد جرى فرض أخطاء ـ خيالية ـ بأثر رجعي، وقرروا بلا أساس أن مفهومي ذاته كان خاطئاً، وحينئذ وجدوا عيوبا ونقائص تافهة، وأنا نفسي أعرفها جيداً، وليس لها أي معنى في ضوء النجاح الإبداعي. أؤكد أنني تصورت كل شيء ونفذته بمهارة قصوى، وأن كمال كل شيء كان حتميا بمعنى ما، وتكون كما لو رغماً عني، بشكل حدسي، بإلهام. ومن أجل الحصول على الاعتراف، وتبرير وإنقاذ العمل الفني الذي خلقته، وأشرح للعالم عمقاً إبداعياً بالكامل، بدأت في كتابة هذا العمل الروائي.

وبعد أن دعكت الصحيفة الأخيرة وتخلصت منها، وبعد أن امتصصت كل شيء، وعرفت كل شيء، وحرقتني الحكة الملحاحة، والرغبة المرهفة والحاذقة في أن أتبنى على الفور عدداً من الإجراءات التي أفهمها وحدي، جلستُ إلى الطاولة وشرعتُ في الكتابة. لو لم يكن لدي إيمان مطلق بقدراتي الأدبية، والموهبة البديعة... في البداية كان الأمر صعبا وشاقا، فتوقفت، ثم كتبت مرة أخرى. إن العمل الذي أنهكني تماماً، أعطاني المتعة والسلوى. إنه دواء مؤلم، إنه غسيل قرن وسطوي قاس، لكنه مؤثر.

مر أسبوع منذ أن بدأت في الكتابة، والآن ينتهي عملي. أنا هادئ.

الجميع في الفندق طيبون ومتعاونون معي. أنا الآن لا أتناول طعامي على مائدة الطعام العامة، بل منفرداً على طاولة صغيرة بجوار النافذة. وافق الطبيب على تركي المائدة الجماعية موضحا للجميع، بحضوري تقريباً، أن الشخص العصبي يحتاج إلى الهدوء وعموماً أن الموسيقيين أناس عصبيون. وغالباً ما يخاطبني من مكانه أثناء العشاء، ويوصي لي ببعض الطعام، أو يسألني مازحا ما إذا كنت سأَنْضَمُ اليوم كاستثناء إلى وجبة الطعام المشتركة، وحينئذ ينظر الجميع لي بلطف ودماثة بالغتين.

لقد نالني التعب، كنت متعبا بصورة مميتة... كانت هناك أيام، على سبيل المثال اليوم الثالث، عندما كتبت، مع أخذ استراحة قصيرة، لمدة تسع عشرة ساعة متتالية، وهل تعتقدون إنني نمت بعد ذلك؟ كلا، لم أستطع النوم، تمطط جسدي كله وتحطم، كما لو كان على أداة تعذيب. لكن الآن، عندما أشرفتُ على الانتهاء من كتابة روايتي، وحينما لم يعد لدي ما أرويه، أشعر بالأسف الشديد للافتراق مع هذه الورق المكتوب، ولكن ينبغي الافتراق، لإعادة قراءتها، وتصحيحها، وتغليفها في مظروف وإرسالها بشجاعة. أما أنا فامضي إلى لأمام، إلى إفريقيا، إلى آسيا، لا يهم إلى أين، ولكني لا أرغب في التحرك، وأتوق إلى الهدوء... ففي الواقع: دع القارئ يتخيل وضع شخص يعيش تحت اسم كذا، وليس بكونه يحمل جواز شخص آخر...

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل XI

أنا في مكان جديد: حدثت لي مشكلة. اعتقدت أن روايتي ستتكون من عشرة فصول فقط، لكن ظهر أن الأمر ليس على هذا النحو! الآن أتذكر كيف كانت حالتي، فرغم كل شيء، كنت هادئاً وواثقاً من أنني سأنهي الفصل العاشر والأخير، بيد أني لم أتم كتابته، نظراً لأن الخادمة جاءت لتنظيف الغرفة، ولعدم وجود ما أنشغل فيه، خرجت إلى الحديقة، وغرقتُ بنفحة شعور هادئ، سماوي. في البداية لم أفهم حتى ما الأمر، لكن كما لو أن اَلْهَامّ ومض في رأسي، اتضح لي بغتة، أن رياح الإعصار التي كانت تهب طيلة هذه الأيام، قد توقفت.

كان الهواء بديعا، وتطايرت زغب الصفصاف الحريري، وتظاهرتْ أوراق الشجر دائمة الخضرة، بالتجدد، وألقت باللون الأحمر الداكن على الجذوع القوية لأشجار الفلين نصف العارية. مشيتُ على طول الطريق السريع، مروراً بكروم العنب البنية المائلة، حيث ما تزال دوالي الكروم عارية تقف في صفوف منتظمة، مثل صلبان غليظة معوجة، ثم جلستُ على العشب، وأنا أنظر إلى قمة التل عبر كروم العنب التي اكتسبت لونا ذهبيا من الشجيرات المزهرة، وفكرت وَأَنَا أقف حتى الحزام بين ورق شجر الفلين الكثيفة، وفي السماء العميقة ـ العميقة والزرقاء (لأنه ربما الرقة هي السمة الرئيسية لروحي، وإن كانت خفية) أن حياة بسيطة جديدة تبدأ، وولت أحلام الإبداع الثقيلة... بعيدا. بانتْ

من جانب الفندق حافلة نقل الركاب، وقررتُ أن أستمتع بقراءة صحف برلين، للمرة الأخيرة. في البداية تظاهرت فُي الحافلة، بأنني نائم (وحتى ابتسمت أثناء نومي)، فقد لاحظت وجود ممثل شركة لحم الخنزير بين الركاب، ولكن سرعان ما أخذتني سنة النوم بصورة حقيقية.

حصلت على صحيفة في مدينة X، وفتحتها فقط عند عودتي إلى الفندق، وشرعت في القراءة وأنا ابتسم بسخرية، وفجأة انفجرت كليّاً بالضحك: لقد عُثر على سيارتي.

أوضحوا أن اختفاءها كان على النحو التالي: كان ثلاثة أصدقاء صباح يوم ١٠ مارس/ آذار يسيرون على طول الطريق السريع: عامل تركيب عاطل عن العمل، والحلاق الذي عرفناه، وشقيق الحلاق، وهو شاب ليس له مهنة محددة. لاحظوا لمعانَ مبرد السيارة في أقصى حافة الغابة، وعلى الفور توجهوا لها. قال الحلاق، وهو شخص إيجابي يحترم القانون، من الضروري انتظار صاحب السيارة، وفي حال عدم رجوعه، نصطحب السيارة إلى كونيغسدورف، لكن شقيقه وعامل التركيب، وهما من الأشقياء المشاكسين، اقترحا شيئاً آخر. اعترض الحلاق قائلاً إنه لن يسمح لهما بذلك، وتوغل في الغابة، ونظر حوله، وما لبث أن عثر على الجثة هناك. وسارع عائداً إلى حافة الغابة، ونادى رفاقه، لكنه رأى في رعب أنهما اختفوا مع السيارة: ذهبا مسرعين بعيدا. وظل لبعض الوقت يدور في المكان ينتظرهما. لم يعودا. وفي المساء، قرر أخيراً أن يبلغ الشرطة عن لقيته، لكنه أخفى قصة السيارة بدافع الحب الأخوي.

تبَّين اَلآن أن هذين الشخصين، أعطبا السيارة وأخفياها، واختفيا هما كذلك، لكنهما ظهرا بتعقل في وقت لاحق. وأضافت الصحيفة «عُثر في السيارة على شيء يثبت هوية المقتول».

في البداية قرأت عن طريق الخطأ هوية «القاتل» وأصبحت أكثر مرحا، لأنه كان معروفا منذ البداية أن السيارة تخصني، لكنني أعدت قراءتها وأمعنت بالتفكير. لقد أزعجتني هذه العبارة. لفها غموض ما سخيف. بالطبع، قلت لنفسي على الفور، إن هذه حيلة جديدة، ربما وجدوا شيئاً مهماً حسب تقديرهم، مثل زجاجة الفودكا التي عُثر عليها في قطعة أرض أراداليون. لكن على الرغم من ذلك، فقد أزعجني الخبر. ونبشت في ذاكرتي كل الأشياء التي استعملتها في القضية (تذكرت حتى قطعة القماش والمشط الأزرق الشنيع)، وبما إنني حينئذ تصرفت بدقة وثقة، فقد استجليت في ذاكرتي كل شيء من دون صعوبة، ووجدت أن كل شي على ما يرام وهو ما توجب إثباته.

لكني لم أشعر بالهدوء. كان عليّ إنهاء الفصل الأخير، ولكن بدلاً من مواصلة الكتابة، خرجتُ مرة أخرى، وتجولت حتى وقت متأخر، وبعد أن عدت إلى المنزل منهكاً إلى أقصى حد، أخذتني سنة النوم على الفور، رغم قلقي الغامض. حلمتُ أنه وبعد تحريات عديدة كما افترضت في المنام، عثرتُ أخيراً على ليدا، التي كانت مختبئة عني، وأخبرتني بهدوء أن كل شيء على ما يرام، وقد حصلت على الميراث وتزوجت من شخص آخر، لأنه لم يعد لي وجود، أنا ميت. استيقظت وقد ركبني غضب شديد، وقلبي ينبض بجنون. مكروب! واهن! إذ لا يمكن للميت رفع دعوى إلى المحكمة. نعم، عاجز وهي تعرف ذلك! وعندما عدت إلى رشدي، ضحكتُ ـ أحلم بمثل هذا الهراء ـ لكنني فجأة شعرت أن هناك في الواقع ثمة شيء مزعج للغاية من المستحيل التخلص منه بالضحك، وان المسألة ليست في الحلم، بل في الخبر الغامض والمبهم: تم العثور على شيء... إذا تمكنوا حقاً من إيجاد اسم المقتول، وإذا كان الاسم صحيحا... كان هناك عدد كبير جداً من «وإذا» ـ تذكرتُ كيف تحققت بالأمس بعناية من المسارات الكوكبية السلسة

لجميع خطواتي، كان بإمكاني رسم مداراتها بخط منقط، لكني لم أهدأ بعد.

وفي الوقت الذي بحثت فيه عن طريقة لإلهاء نفسي عن الهاجس الغامض الذي لا يطاق، جمعت صفحات مخطوطتي، ووزنت الحزمة في راحتي، وقلت بطريقة مرحة «واو!» وقررت، قبل إضافة السطور الأخيرة، إعادة قراءة كل شيء من البداية. وفكرت فجأة أن متعة كبيرة تنتظرني. وفيما أنا أقف عند الطاولة في رداء النوم، هززت بلطف الصفحات المكتوبة التي راحت تخشخش في يدي. ثم عدت إلى الفراش، وأشعلت سيجارة، ورتبت بشكل مريح وسادة أسفل كتفي، ولاحظتُ أنني تركت المخطوطة على المنضدة، على الرغم من أنني كنت أحملها بين يدي طوال الوقت، وبهدوء دون شتم، نهضتُ وأخذتها إلى الفراش معي، ومرة أخرى رتبت الوسادة، ونظرت إلى الباب، وتساءلت مع نفسي عما إذا كان مغلقاً أم لا، لم أرغب في قطع القراءة، لكي أسمح للخادمة بالدخول عند ما أحضرت القهوة في الساعة التاسعة.

نهضتُ مرة أخرى ـ ومرة أخرى بهدوء ـ ظهر إن الباب مغلق لذا كان من الممكن ألا انهض، شعلتُ السيجارة، واستلقيتُ، واستقريت بشكل مريح، أردت الشروع في القراءة، ولكن اتضح هنا أن سيجارتي قد انطفأت، السجائر الفرنسية ليست على غرار السجائر الألمانية، تطالب بالاهتمام بها، أين ذهبت أعواد الثقاب؟ الآن كانت معي. نهضتُ للمرة الثالثة، مع ارتعاش طفيف في يدي، ووجدت أعواد ثقاب خلف المحبرة، وعدت إلى السرير، ودعست بفخذي علبة مليئة بالثقاب مخبأة في البياضات، مما يعني أنني عبثا نهضت مرة أخرى. وفجأة اشتعلتُ غضبا، رفعت صفحات المخطوطة التي سقطت وتناثرت على الأرض، وانقلب الترقب اللذيذ الذي ملأني للتو تقريباً إلى معاناة، وشعور فظيع بأن شخصاً ماكراً يعدني بالكشف عن المزيد والمزيد من الأخطاء

الفادحة، أخطاء فادحة وحسب. ومع ذلك دخنت سيجارة مرة أخرى، وصعقت الوسادة العنيدة بضربة من قبضتي، والتفت إلى المخطوطة. اندهشت من أنني لم أضع أي عنوان في صفحة البداية، بدا لي أنني ابتكرت في وقتها عدة عناوين في وقت واحد تبدأ بـ «مذكرات...»، ولكن لم أتذكر مذكرات مَن؟ وعموماً إن «مذكرات» مبتذلة ومملة بفظاعة. أي عنوان سأضعه لها؟ «المثيل»؟ لكنه مستعمل. «مرآة»؟ «صورة المؤلف في المرآة»؟ مُتصنع ومتكلف... «تشابه»؟ «تشابه غير معترف به»؟ «تبرير الشبه»؟... جاف، مع انحياز في الفلسفة... ربما: «الرد على النقاد»؟ أم «شاعر وغوغاء»؟ الأمر ليس بهذا السوء، عليّ التفكير في الأمر. قلت بصوت عالٍ «دعونا نعيد قراءتها أولاً، ثم نفكر في عنوان».

شرعت في القراءة، وبعد مدة وجيزة لم أعد أعرف فيما إذا كنت أقرأ أم أتذكر، وأكثر من ذلك، تنفست ذاكرتي التي انبعثت من جديد، كمية مضاعفة من الأكسجين، علاوة على أن الغرفة كانت أكثر إضاءة، نظراً لغسل زجاج النوافذ، وكان الماضي أكثر حيوية لأن الفن سلط الضوء عليه مرتين. تسلقت مرة أخرى تلاً بالقرب من براغ، وسمعت قبرة، ورأيت صهريج غاز أحمر دائري. ووقفت مرة أخرى، في هياج لا يصدق فوق المتشرد النائم، ومرة أخرى تمطط وتثاءب، ومرة أخرى تدل رأس قرنفلة باهت من عروة سترته. وتابعت القراءة وظهرت زوجتي الوردية، واردليون واورلوفيوس كما لو كانوا جميعاً أحياء أمامي، لكنني بمعنى ما قبضت على حياتهم في يدي. ومرة أخرى رأيت العمود الأصفر ومشيت عبر الغابة، وأنا أفكر في موضوع روايتي، ومرة أخرى، شاهدت أنا وزوجتي في أحد أيام الخريف كيف تسقط ورقة باتجاه انعكاسها، وأنا بنفسي هويت بسلاسة في بلدة سكسونية مليئة بالتكرار الغريب، ونهض الشبيه للقائي بسلاسة. ومرة أخرى جعلته يخضع لي، وتملكته، وتملص هو مني، وتظاهرت بالتخلي عن الخطة، وبقوة غير

متوقعة التهب موضوع الرواية مرة أخرى، مطالبا مبدعه الاستمرار والانتهاء. ومرة أخرى، في أحد أيام مارس/ آذار، كنت وأنا ناعس أقود سيارتي على طول الطريق السريع، وهناك، في الأدغال، عند العمود الأصفر، كان بالفعل ينتظرني.

ـ اجلس، بسرعة، علينا الابتعاد عن هذا المكان.

وسأل بفضول:

ـ إلى أين؟

ـ هناك في تلك الغابة.

العصا، أيها القارئ، العصا. العصا عزيزي القارئ، العصا. العصا محلية الصنع التي كتب عليها الاسم بالحرق على الخشب: فيليكس الفلاني من تسفيكاو. لقد أشار بعصاه، عزيزي القارئ المحترم، بعصاه، أنت تعرف ما هي «العصا»؟ طبعاً أشار، بالعصا، وركب معها في السيارة ثم ترك العصا هناك عندما نزل: فالسيارة غدت بصورة مؤقتة ملكه، لقد لاحظتُ على ملامحه «رضا المالك الهادئ.» يا لها من ذاكرة فنية! لا مثيل لنصاعتها «إلى هناك؟» سأل مشيراً بعصاه. لم أتفاجأ أبداً في حياتي...

جلستُ في سريري، وحملقت في الصفحة التي أملتها الذاكرة حليفتي العجيبة، وليس أنا، وأدركت فعلا إن هذا غير قابل للإصلاح بتاتا، ما أدهشني للغاية، ليس أنهم عثروا على عصا في السيارة وباتوا يعرفون الاسم المشترك بيننا، الذي سيؤدي حتماً إلى القبض عليّ، آه، ليس هذا ما أدهشني على الإطلاق، بل الوعي بالقضاء تماماً على عملي الفني الذي فكرت فيه بدقة، ونفذته بعناية، لقد تم القضاء عليه في حد ذاته، في جوهره، وتحول إلى غبار بسبب خطأ ارتكبته. استمعوا استمعوا! العار في انهم سيلقون القبض عليُ في كل الأحوال، حتى لو

أن جثته كانت تشبهني حقاً، فمن طريق العصا التي عثروا عليها، سيلقون القبض عليَّ معتقدين أنهم يلقون القبض عليه! لقد جرى بناء كل شيء على عدم ارتكاب أي خطأ بتاتا، والآن اتضح: كانت هناك زلة، ويا لها من زلة ـ الأكثر بذاءة وسخافة ووقاحة. استمعوا استمعوا! وقفت فوق رفات عملي الفني العجيب، وصرخ في أذني صوت مقرف: إن الرعاع، الذين لم يقروا الشبه بيننا، قد كانوا على حق... نعم، شككت فِي كل شيء، شككتُ في الشيء الرئيس، وأدركت أنني سأكرس بقية حياتي فقط لصراع عقيم مع هذا الشك، وابتسمتُ ابتسامة انتحاري، وبقلم رصاص مِثْلمْ يصرخ من الألم، كتبتُ بسرعة وحزم كلمة «اليأس» في صفحة الغلاف، عنوانا لروايتي. يتعذر إيجاد عنوان أفضل من هذا.

أحضَروا لي القهوة وشربتها لكنني تركت الخبز المحمص. ثم ارتديت ملابسي على عجل، وحزمت أمتعتي، وحملت الحقيبة إلى الأسفل بنفسي. لحسن الحظ لم يرني الطبيب. لكن المدير فوجئ بمغادرتي غير المتوقعة، وَأَخَذَ ثمناً باهظاً للغاية على الغرفة، لكنني لم أعد أهتم. لقد غادرت ببساطة لأن هذه هي التدابير التي تُتَخذ عادة في مثل وضعي. واتبعت بعض التقاليد. في الوقت نفسه افترضتُ أن الشرطة الفرنسية اقتفت أثري.

في الطريق إلى المدينة، رأيت من الحافلة عنصرين من أفراد الشرطة في سيارة مسرعة، أثارت الغبار كما لو كانت تنثر الدقيق، وتقاطعت حافلتنا مع سيارتهم، وتركت سحابة من الغبار، لكنني لا أعرف ما إذا كانوا قد هرعوا بالتحديد لاعتقالي، أم ربما لم يكونا من الشرطة على الإطلاق، لا أعرف، لقد مروا بسرعة خاطفة. وعندما كنت في المدينة ذهبت إلى مكتب البريد، على كل احتمال. والآن تأسفت على دخوله، كان بإمكاني الاستغناء عن الرسالة التي استلمتها هناك. وأخذت في نفس اليوم كتيبا سياحيا بديعا، واخترت فيه، وبصورة عشوائية منظراً طبيعياً

خلاباً، وتوجهت إلى هناك، ووصلت في وقت متأخر من المساء إلى قرية جبلية. أما بالنسبة للرسالة التي تلقيتها... مع كل ذلك سوف أستشهد بها كمثال على دناءة الإنسان:

«أنا أكتب إليك، سيدي، لثلاثة أسباب: ١) إنها طلبت، ٢) أريد أن أقول لك ما رأيّ فيك ٣) أريد أن أنصحك بصدق أن تسلم نفسك للعدالة من أجل توضح التشويش الدموي والسر الدنيء الذي بالدرجة الأولى تعاني منه بالطبع هي المرعوبة، والبريئة. أحذرك من أنني أتعامل بشك شديد مع الدوستيوفسكية القاتمة التي سولت لك نفسك روايتها لها. أعتقد، بعبارة ملطفة، أن هذه كذبة. في الوقت نفسه إنها كذبة دنيئة لأنك تلاعبت بمشاعرها.

طَلبتْ مني أن أكتب لك، معتقدة أنك ما زلت لا تعرف شيئاً، إنها حالة ارتباك وحيرة وذهول، وقالت إنك ستغضب إذا كتبنا لك. أود أن أرى كيف ستغضب: لا بد من أن يكون هذا ظريفا بفظاعة.

وعلى هذا النحو، لا يكفي قتل إنسان وإلباسه ملابس مناسبة، ينبغي جزء متمم آخر، ألا وهو التشابه، ولكن لا يوجد أشخاص متشابهون في العالم ولا يمكن أن يكونوا كذلك، وبغض النظر عن كيفية زيهم. ولكن، لم يصل الأمر إلى مثل هذه التفاصيل الدقيقة، وقد بدأ كل شيء من أن شخصا طيبا أبلغها بصدق: لقد عثروا على جثة معها وثائق زوجك الشخصية، لكنها ليست جثته. بيد أن الشيء الأكثر فظاعة: إن المسكينة وبتعليم من الوغد، ورغم كل شيء زعمت أن هذا هو زوجها، هل تفهم هذا؟ وحتى قبل أن يعرضوا عليها الجثة. أنا ببساطة لا أفهم كيف تمكنتَ من غرس هذا الرعب المقدس في امرأة غريبة عليك تماماً. إن هذا يتطلب أن تكون وحشاً شاذا حَقّاً. يعلم الرب وحده ما الذي ستعاني أيضاً. كلا، أنت ملزم بإزالة الشك الذي يحوم حولها بالتواطؤ

معك. القضية واضحة للجميع. إن هذه الألاعيب يا سيدي مع شركات التأمين معروفة منذ زمن طويل. وحتى أنني أود أن أقول إن هذا عمل أخرق، وتفاهة أصبحت مملة منذ زمن بعيد.

والآن ما رأي فيك. وصلني أول خبر في المدينة التي عَلَقْتُ فيها. لم أصل إلى إيطاليا والحمد للرب. والآن بعد قراءة هذا الخبر أتعرف ماذا؟ لم أتفاجئ! فقد كنت أعرف دائماً أنك حيوان فظ وشرير، ولم أخفِ عن المحقق كل ما رأيته بأم عيني. خاصة فيما يتعلق بمعاملتك لها، وهذه الأنفة المتكبرة من جانبك، والاستهزاء المستدام، والقسوة التافهة والبرودة، التي خيمت علينا جميعاً. أنك تشبه جداً خنزير كبير مخيف ذو أنياب فاسدة، وعبثاً لم تجعل خنزيراً يرتدي بدلتك. ويجب أن أعترف لك بشيء آخر: أنا، ضعيف الإرادة، أنا، في حالة سكر، وأنا مستعد بيع شرفي من أجل الفن، أقول لك: أشعر بالخجل لأنني قبلت صدقات منك، وأنا على استعداد لإعلان هذا العار على الملأ، والصراخ بشأنه في الشارع، فقط للتخلص منه.

هذا كل شيء، يا خنزير! إن هذا الوضع لا يمكن أن يستمر. وأتمنى موتك، ليس لأنك قاتل، ولكن لأنك وغد لئيم استغل ثقة إمراه شابة ساذجة، وبدون هذا أنها معذبة ومرتبكة للغاية طوال عشر سنوات من الحياة معك. ولكن إذا لم يخمد ويظلم فيك كل شيء بعد: فاظهر!».

كان يجب ترك هذه الرسالة من دون تعليق. لقد رأى القارئ غير المتحيز في الفصول السابقة بأي أدب ولطف تعاملت مع أردالیون، وانظروا كيف كافأني. لكن الأمر سيان، ولا يهم... أود أن أعتقد أنه كتب هذه الدناءة وهو في حالة سكر، كل شيء فيها شنيع للغاية، يخطئ الهدف، مليء بالتأكيدات الكاذبة، والعبثية التي سيفهما القارئ اللبيب حالا ومن دون صعوبة. واعذروني لا اعرف باي عبارات يمكن توصيف

كلماته التي أشار بها إلى أن ليدا المرحة، والخاوية وضيقة الأفق، بالخائفة أو أي شيء آخر، معذبة، والتلميح إلى نوع من الخلاف بيننا، وصولاً إلى الاشتباك بالأيادي. ليس لدي الكلمات التي أصف بها كل هذا. لقد استخدمها مراسلي جميعاً بالفعل، ولكن في تطبيق مختلف. أنا الذي اعتقدت في السابق أنني قد تجاوزت التخوم الأخيرة للمعاناة، والاستياء، والارتباك الممكنة، عندما أعدت قراءة هذه الرسالة، أصبحت في حالة انتابتني فيها رعشة لدرجة أن كل شيء من حولي اهتز: الطاولة، والقدح على الطاولة، وحتى مصيدة الفئران المركونة في زاوية غرفتي الجديدة.

لكن فجأة صفعت جبهتي وانفجرتُ ضاحكا. كم كان الأمر سهلاً! وكيف ببساطة كشفت سبب الغيظ الغامض في الرسالة. هذا هو غضب المالك: لم يستطع أردا ليون أن يغفر لي أنني اخترت اسمه بمثابة شفرة أتسلم بها رسائل ليدا من البريد، وأن عملية قتل فيليكس وقعت على قطعة أرضه. إنه مخطئ، فقد أفلس الجميع منذ فترة طويلة، ولا يُعْرَف من يملك هذه الأرض، وعموماً، يكفي، يكفي الحديث عن المهرج أردا ليون! وضعت اللمسة الأخيرة على صورته، ووقعت عليه بحركة الفرشاة الأخيرة في الزاوية بحروف منحرفة. سيكون أفضل من ذلك الشيء الملون المتعفن الذي خلقه هذا المهرج من وجهي. يكفي! إنه رجل طيب، يا سادتي.

ولكن مع ذلك، كيف يجرؤ... أوه، ليذهب إلى الجحيم، إلى الجحيم، ليذهب كل شيء إلى الجحيم!

٣١ مارس/ آذار، ليلاً.

يا للأسف، تتحول روايتي إلى يوميات. لكن ليس بوسعي أن أعمل

أي شيء: لم يعد بإمكاني الاستغناء عن الكتابة. حقاً أن اليوميات هي أدنى صورة من صور الأدب. سيقدر الخبراء هذه الكلمة الساحرة «ليلا»، التي يفترض أنها ذات مغزى ـ ويلك ـ «ليلا»، سيقول النقاد: انظروا إلى ما كتب في الليل، لم ينم، كم هو ممتع وهادئ!، بغض النظر عن ذلك، أنا أكتب ليلاً.

تقع القرية التي أشعر فيها بالملل في مهد وادي بين الجبال العالية والضيقة. لقد استأجرت غرفة كبيرة، تشبه المستودع، في منزل امرأة عجوز سمراء تدير محل بقالة في الطابق السفلي. ثمة شارع واحد فقط في القرية. ويمكنني وصف الجمال المحلي لمدة طويلة. الغيوم، على سبيل المثال، التي تزحف عبر المنزل من نافذة إلى أخرى، لكن وصف كل هذا ممل للغاية. يسعدني أنني السائح الوحيد هنا، حتى الأجنبي الوحيد، وبما أنهم تمكنوا بطريقة ما من شم (زد على ذلك، إنني بنفسي أخبرت المضيفة) أنني من ألمانيا، أثار هذا فضولاً كبيراً لديها. كان من المفترض أن أختبئ، لكني أتسلق إلى مكان مرئي وبارز للعيان، إذا جاز التعبير، وكان من الصعب عليّ اختيار مكان أفضل. لكنني منهك، كلما انتهى كل هذا في وقت مبكرا، كلما كان ذلك أفضل.

بالمناسبة، تعرفت اليوم على شرطي من أبناء اَلْقَرْيَة، كأن شخصية من شخصيات أوبريت تماماً! إنه رجل وردي ممتلئ إلى حد ما، مع أرجل متصالبة، وشارب أسود خشن. كنت جالساً على مصطبة في نهاية الشارع، وانهمك القرويون حولي بأعمالهم، أي أنهم كانوا يتظاهرون بأنهم يأدون أعمالهم الخاصة، ولكن في الواقع بفضول محموم راقبوني في أي هيئة كانوا، من خلف الكتف أو من تحت الإبط، أو من تحت الركبة، لقد رأيت ذلك بأم عيني. اقترب مني الشرطي بتردد، وأنشأ يتحدث عن المطر، ثم عن السياسة. ذكرني إلى حد ما بالراحل فيليكس، بنبرته الرصينة، وبالحكمة التي اكتسبها ذاتيا. سألته متى آخر

مرة جرى فيها اعتقال شخص ما هنا. فكر في الأمر وأجاب ذلك كان منذ ست سنوات خلت، اعتقلوا إسبانيا تشاجر مع شخص ما، ليس من دون إراقة دم، واختفى في الجبال. زيادة على ذلك، رأى أن من الضروري إخباري بوجود دببة في الجبال، التي تم توطينها بشكل مصطنع هناك لمكافحة الذئاب، ما بدا لي مضحكاً للغاية. لكنه لم يضحك، نهض، لف شاربه الأيسر بيده اليمنى، وتحدث عن التعليم الحديث، وقال:

ـ ها أنا على سبيل المثال، أعرف الجغرافيا، والحساب، والشؤون العسكرية، وأكتب بخط جميل...

سألته:

ـ هل تعزف على الكمان؟

هز رأسه بالنفي بحزن.

لنفترض أنني قتلت قردا. لن يمسني أحد. ولنفترض أن هذا القرد ذكي للغاية. لن يمسني أحد. ولنفترض أن هذا القرد من سلالة جديدة، يتحدث، عاري. لن يمسني أحد. واصعد بحذر على هذه المدرجات الرفيعة، ويمكنني الوصول إلى الفيلسوف ليبنيز أو الشهير وليم شكسبير وقتلهما، ولن يمسني أحد، نظراً لأن كل شيء تم بالتدريج، ومن غير المعروف متى يتم تجاوز الخط الذي تكون حالة السفسطائي بعده سيئة.

يتعالى نباح الكلاب. والبرد قارس. يا له من عذاب مبرح، مميت. وأشار بعصاه. عصاه، ما الكلمات التي يمكن إخراجها من العصا؟ يعصي، صاع، لص. صل. برد قارس بشكل فظيع، يترامى نباح الكلاب يبدأ أحدها، ثم يلتقطها الجميع. يهطل المطر. الكهرباء ضعيفة، والنور شاحب. ما ارتكبتُ في الحقيقة؟

والآن، في الوقت الذي ارتجف في الغرفة الباردة، والعن الكلاب

التي تنبح، منتظراً فرقعة مصيدة الفئران في الزاوية، بعد أن تمسك برأس الفأر، واشرب بصورة ميكانيكية شراب عشبة «راعي الحمام» الذي قررت المضيفة أن تأتي لي به، إذ عَدتْ أن مظهري يشي بأنني مريض، وربما خشيتْ أنني سأموت قبل المحاكمة، أجلسُ، وأكتب على ورقة دفتر مدرسي فلم أجد هنا ورقاً آخر، وأمعن في التفكير، وألقي مرة أخرى نظرة على مصيدة الفئران. الحمد للرب لا توجد مرايا في الغرفة، كما لا توجد أيقونة للصلاة. كل شيء مظلم، كل شيء مروع، ولا يوجد سبب محدد لتأخري في هذا العالم المظلم الذي خُلق عبثا. لا أريد أن أقتل نفسي، ولكن ليس في هذا ادخار وتوفير، ففي كل بلد تقريباً هناك شخص تدفع له الدولة أجراً لأداء خِدْمَات الموت. وبعد ذلك دوي قذيفة العدم الأبدي. والشيء الأكثر روعة هو أن كل هذا قد يستمر، أي لن يُقتلوني، بل يرسلوني إلى الأشغال الشاقة، وقد يشملني العفو بعد خمس سنوات وأعود إلى برلين وسوف أبيع الشوكولاتة مرة أخرى. لا أعرف لماذا، لكن الأمر مضحك للغاية.

١ أبريل/ نيسان

لحسن الحظ، تبدد خطر تحويل قصتي إلى مذكرات جافة. ها قد جاء الآن الشرطي الشبيه بممثل الأوبريت، وقد ارتسمت على وجهه ملامح جدية، وقد تمنطق بسيف، ومن دون النظر في عيني، طلب بأدب أوراقي الثبوتية. أجبته أنني على حد السواء أنوي قريباً التسجيل، وأنني الآن لا أود النهوض من الفراش. أصرَّ، وكان مهذبا، واعتذر، بيد إنه أصر. نهضتُ وأعطيته جوازي. وفي الوقت الذي غادر، استدار عند الباب وبنفس الصوت المهذب طلب مني المكوث في المنزل. قولوا لي من فضلكم ما بوسعي أن أعمل؟

تسللتُ إلى النافذة وأزحت الستارة بحذر. وقف مئة متفرج في الشارع وهم ينظرون إلى نافذتي. شق الشرطي طريقه عبر الحشد، سأله رجل نبيل يرتدي قبعة مستديرة بشدة، عن شيء ما، ضيق الفضوليين عليهما. من الأفضل عدم رؤية ذلك.

ربما كان كل هذا وجوداً زائفاً، حلماً سيئاً، والآن سأستيقظ في مكان ما، على العشب بالقرب من براغ. من حسن الحظ أنهم على الأقل، صادوني هكذا بسرعة.

سحبتُ الستارة مرة أخرى. يقفون ويتفرجون. هناك مئات، آلاف، ملايين. لكن خيم عليهم صمت تام، يمكن للمرء أن يسمع فقط كيف يتنفسون. ربما افتح النافذة وألقِ عليهم خطابا قصيرا.

انتهى

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفهرس

نابوكوف وروايته اليأس ٥
الفصل I ١١
الفصل II ٢٧
الفصل III ٤٩
الفصل IV ٦٣
الفصل V ٧٧
الفصل VI ١٠٥
الفصل VII ١٢٣
الفصل VIII ١٣٥
الفصل IX ١٦١
الفصل X ١٧٩
الفصل XI ٢٠١

هذا الكتاب

تُعدّ «اليأس» حدّاً فاصلاً وملموساً في طريق نابوكوف الإبداعي. وتتميز عن الأعمال التي كتبها في الحقبة الروسية إنها جاءت على نمط الرواية البوليسية، بيد إنها تختلف عن أسلوب الرواية البوليسية التقليدية في أن الراوي هو الذي حَضَرَ للجريمة، وهو الذي يتولى عرض خلفياتها. وأجمع كبار نقاد أدب المهجر الروسي بالإجماع على أن اليأس هي ذروة إنجازات الكاتب حتى ذلك الحين. وحتى الخصوم الأبديين مثل الناقدين الروسيين المعروفين خوداسيفيتش وآدموفيتش اتفقا على تقييم عالٍ لهذا العمل بناءً على تحليلهما للرواية. وأعطى الناقدان توصيفاً عميقاً لإبداع نابوكوف.

ISBN 9789922220895
9 789922 220895
الغلاف : سكينة صلوّن

مكتبة
t.me/soramnqraa